




برنارد نيومان

# أسرار الجاسوسية



هاني مراد

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

# أسرار الجاسوسية

# تطور الجاسوسية .. فى ٥٠ قرنا !

## جواسيس موسى .. فى ارض ( كنعان ) !

الجواسيس معروفون منذ اقدم عصور التاريخ .. وعلى وجه التحديد منذ عرفت الحروب . ونحن نجد فى سجلات التاريخ الأولى تعليقات لها مغزاها عن الجاسوسية ، من مصر إلى الصين . وفى أيام قبائل الرعاة الرحل ، اصبح التجسس عملية معترفا بها . ويذكر التاريخ أن يوسف اتهم اخوته بأنهم جاءوا إلى مصر لكى يتجسسوا ويتعرفوا على حالة بلاده فى السنوات السبع العجاف !

وقد وردت أول قصة للجواسيس ، رواها التاريخ المكتوب ، فى التوراة : كان موسى قد قاد الإسرائيليين حتى خرجوا من مصر ، ثم توقف بهم فى منطقة مجدبة . وكان « يهوا — أى الله — هو الذى نصح موسى بأن يبعث بجواسيس إلى أرض كنعان ( فلسطين ) ، فاختار موسى بنفسه جواسيسه رجلا واحدا من كل قبيلة ، وأظهر موسى تقديره لأهمية البعثة حين اختار الرجال البارزين من قادة القبائل ، وحين زودهم بتعليمات كثيرة دقيقة ، يفهم منها أن الجاسوسية لم تكن علما . ولا غرو فإن الحكمة وليدة التجربة قبل أن تكون نتيجة التلقين .

يقول الكتاب المقدس :

« ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان ، التى أنا معطيها لبنى إسرائيل ، رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون ..

« فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب ، واطلعوا إلى الجبل ، وانظروا الأرض ما هى . والشعب الساكن فيها ، اقوى هو أم ضعيف. قليل أم كثير . وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها ، أجيده أم ردية . وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات، أم حصون . وكيف هى الأرض ، اسمينة أم هزيلة ، أفيها شجر أم لا . وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض » .

ولا ينتظر من اى رئيس ضليع فى الجاسوسية الحديثة ، أن يصدر إلى جواسيسه من التعليمات ما يفوق التعليمات التى اصدرها موسى فى سنة ١٤٠٠ ق . م . وإن كان الأمر يتطلب بطبيعة الحال شيئا من التعديل والتبديل ، يتناسب مع تغير الظروف وتطور الحضارات .. لأن الواقع أن تعليمات موسى « غطت » الأمور الجوهرية فى مهمة اى جاسوس .. بل ان تنظيمه للعملية كان يدل على ذكاء . فلا شك فى أن المعلومات التى تاتى بها عدة مصادر ، تفوق فى القيمة والدقة ما يأتى به مصدر واحد .

وعاد جواسيس موسى ليقولوا إن ( كنعان ) أرض يتدفق منها اللبن والشهد ، وإن كان سكانها من العمالقة الجبابرة الضخام . وبعد ٤٠ عاما قضاها الإسرائيليون فى تردد وتوجس ، تغلبت الرغبة فى اللبن والشهد على الخوف من الجبابرة ، بتأثير جاسوسين معينين هما . كالب ، ويوشع . وكان أن تقدم الإسرائيليون ودخلوا فلسطين .



## الجاسوسية والدعارة : اقدم مهنتين فى التاريخ !

قد تكون صفة رحاب — عاهرة ( اريحا ) — من الأمور المتنازع عليها حتى الآن : فهل كانت جاسوسة ؟ أم «متعاونة» فقط ؟ أم من « الطابور الخامس » ؟

كان الزعيم الإسرائيلى « يوشع » قد بعث بجاسوسين إلى ( اريحا ) ، فأقاما مع عاهرة محلية ، مخلدين بذلك ذكر محالفة بين حرفتين من أقدم حرف العالم : الجاسوسية ، والدعارة !.. وحين ارتاب ملك ( اريحا ) فى الأمر ، عمدت رحاب إلى إخفاء الجاسوسين تحت كومة من الكتان على سطح دارها ، ثم أعانتهما بعد ذلك على تسلق جدران المدينة، ليخرجا منها بسلام !

ولكن ، لماذا خاطرت رحاب بنفسها كل هذه المخاطرة ؟.. كانت فريدة فى نوعها .. نوع الذين يسيرون فى ركاب الجماعات السياسية فى عصرنا الحالى ، مترسمين مبدأ معينا يرشدهم الطريق ، هو ان يكونوا إلى جانب المنتصر الظافر دائما .. هذا المبدأ الذى يؤكد مسئوليتهم عن كثير من شرور العالم !.. نعم ، فان رحاب حين اقتنعت بأن الإسرائيليين سيستولون على ( أريحا ) ، عمدت إلى مساومتهم ، وعرضت معاونتها لهم مقابل تأمين أسرتها فى الأيام التالية للغزو .. أيام النهب والسلب والمذابح ! بل انها رتبت لهم علامة سرية، هى خيط قرمزى ربطته فى نافذة بيتها ، حتى يعرف الإسرائيليون المنتصرون بيت التى تعاونت معهم

## دليلة .. ويهوذا الأسخريوطى !

على أن لدليلة دعوى قوية ، هى أنها أول جاسوسة حسناء فى التاريخ .. وقد كان إغراؤها لشمشون مبعث الوف القصص الخيالية التى وضعت فى العصر الحديث . ولكن ما فعلته دليلة كان أعظم من أن يسمى انتصارا للجاذبية الجنسية .. فقد كان جاسوسية من النوع الكلاسيكى القديم !.. كان شمشون للفلسطينيين أقوى من جيش بأكمله، فأخذت دليلة تتحايل حتى اكتشفت سر قوته ، فجردته من أسبابها ، ثم أسلمته إلى أعدائه !

والأمر الذى تجب ملاحظته ، هو أن الجاسوسية أصبحت فى ذلك العهد — عهد شمشون — من الأعمال التجارية التى تدر ربحا . فقد فعل جواسيس موسى ما فعلوه لدوافع وطنية ، وكانت رحاب تنشد أمنها وأمن أسرتها .. أما دليلة ، فقد دفع لها سادتها أجرها ، وهو ١١ ألف قطعة من الفضة . ولابد أنه كان مبلغا ضخما فى ذلك الوقت ، وخاصة إذا قورن بالقطع الثلاثين التعسة ، التى دفعها كهنة إسرائيل لجاسوس كان تلميذا للسيد المسيح ثم خانه وسلمه اليهم ، وهو يهوذا الأسخريوطى !

وتختفى دليلة فجاة من سجل التاريخ ، كعادة الجواسيس دائما . ويحتمل أنها كانت واحدة من الآلاف الثلاثة الذين كانوا يحتفلون بالعيد فى المعبد ، عندما قوض شمشون الأعمى أعمدته ، فانهار وقضى عليهم جميعا .. فكان الذين قتلهم وهو



على وشك الموت أكثر من الذين قتلهم طوال حياته ، على ما ورد فى التوراة .

وقد طالما تردد أن التوراة كانت مصدر الوحى الأول لمعظم قصص الأدب العالمى . والذى لا شك فيه هو أن الأمثلة الثلاثة المتقدمة كانت أنموذجا أصليا لعدد كبير جدا من القصص المثيرة التى وضعت فى عصور مختلفة ، كما كانت قصة « أبو كريفا » عن أنبياء ( بل ) مصدر الوف من «حبكات» القصص البوليسية الحديثة .

وتعطينا التوراة أمثلة كثيرة أخرى عن حيل للجاسوسية ما تزال تستخدم بكثرة فى عصرنا الحالى . فعندما كان الملك النبى داوود فى خطر ، ارسل إليه يوناثان إشارات خاصة بالأسهم التى كانت تطلق على جهات اتفق عليها من قبل . أما داوود نفسه فانه استخدم فى نزاعه مع ابشالوم رجلا يدعى هوشاى ، كجاسوس سرى له ، تسلل إلى معسكر العدو . وفى الوقت نفسه ، استعان ابشالوم بأحد مستشارى أبيه — وكان يدعى اهيتوفيل — ليتجسس له على معسكر داوود . وثبت بعد ذلك أن أساليب هوشاى السرية كانت حاسمة ، إذ وجد داوود نفسه فى موقف موات لكى يظفر بالنصر النهائى ، مما ادى إلى أن شنق « أهيتوفيل » نفسه خزيا وحسرة . ولم يكن داوود بالرجل الذى يحط من شأن الجاسوسية واهميتها ، ومن ثم قدر جهود هوشاى فى انقاذ عرشه ، وتهيئة فرصة النصر له فى حربه مع ابشالوم

## الجاسوسية تتغلب على قوات هانيبال « المدرعة » !

والرقابة العسكرية ظاهرة ضرورية من ظواهر مقاومة الجاسوسية فى العصر الحديث ، وهى أيضا ظاهرة قديمة قدم الكتابة ذاتها . وكان الإسكندر الأكبر يقدر امكانياتها . ففى إحدى حملاته بآسيا ، سمع شائعات عن خيانات سيرتكبها حلفاؤه بعد وقت قصير ، فأعلن يوما أنه سيكتب عدة رسائل إلى اليونان، وعرض على ضباط جيشه وحلفائه أن يكتبوا ليحمل الضابط المختار بريدهم مع بريده . وعندما استعد ذلك الضابط للسفر ، دعاه الإسكندر وفحص كل الرسائل التى كتبها رجال الجيش . وبهذا عرف أسباب الشكوى ، وعالجها بما عرف عنه من عظمة خلق ، بدلا من أن يلجأ إلى حركة تطهير تسفك فيها الدماء .

وقد شجع الأغريق والرومان والقرطاجنيون الجاسوسية فى بلاد البحر الأبيض وغذوها . وعندما واجه القائد المعروف سبيو الإفريقى أفيال هانيبال ، قائد قرطاجنة — وكانت الفيلة تؤلف القوات المدرعة فى ذلك الحين ! — كان قد علم من أحد الجواسيس موطن ضعفها ، ومن ثم أفاده ذلك . فقد كانت للأفيال مناعة تقيها السهام والحراب ، ولكن جاسوس سبيو اختلط بحراسها واستطاع أن يعرف منهم أن هناك سلاحا جديدا يملأ قلوب الأفيال ذعرا ، وهو الأصوات المدوية ! . . فحين هجمت الفيلة على قوات سبيو ، لم تقابل بحراب وسهام لا جدوى منها ، بل قوبلت بأصوات مصطنعة مدوية ، استخدم



فى اطلاقها كل نفير فى الجيش ، ومن ثم جن جنون الفيلة ، وفقد قادتها سيطرتهم عليها فى ثوان معدودة . وبهذا استطاع سبيو ان يحرز نصرا حاسما !

أما فى روما ، فان الجاسوسية بلغت مستوى جديدا باشراف كراسوس — الذى كان يعاصر يوليوس قيصر — فلم يكن جواسيسه يعملون فى ولايات نائية بالامبراطورية الرومانية فحسب ، بل كانوا يعملون فى داخل روما نفسها ، فكان هذا هو أصل نظم البوليس السرية مثل الجستابو ، والتشيكا ، والأوجبو . وكانت روما تعج بمواطنين يخفون فى طيات نفوسهم طموحا شديدا . فبث كراسوس جواسيسه وعيونه بين خدمهم ، خشية أن يصبحوا فى يوم ما أعداء لنظام الحكم . وقد جمع ثروة كبيرة من أعماله هذه ، عن طريق التهديد باستخدام المعلومات التى حصل عليها أو إفشائها .

ومنذ ذلك الوقت باتت الجاسوسية معترفا بها فى بلاط أى ملك أو امبراطور . فقد كان للامبراطورة تيودورا البيزانطية — التى سبقت برقصاتها المثيرة للحواس فى شبابها ، الجاسوسة المشهورة ماتا هارى — من الأسباب القوية ما جعلها ترتاب فى كل من حولها . ويذكر لنا المؤرخ المعروف جيبون أن جواسيسها الكثيرين كانوا يراقبون كل حركة وكل كلمة وكل نظرة ، ويرفعون بها تقارير إلى الامبراطورة ، إذا كان فيها ما يمس سيدتهم . وكان تقرير أى جاسوس من هؤلاء كافيا لسوق أى رجل إلى نهاية بشعة أليمة !

## لولا الشائعات لاحتل المسلمون أوربا !

ولقد كانت للنبى محمد ﷺ مواهب غير عادية مكنتــه من مقاومة الجاسوسية ، ولكن بعض خلفائه ذهبوا ضحايا لسلاح يعتبر من أسلحة المخابرات السرية ، أصبح فيما بعد قوة كبيرة فى الحروب .. هذا السلاح هو : الشـــائعة !.. ففى معركة « تور » ــ التى دارت بين المسلمين الأندلسيين والفرنسيين ــ فزع المسلمون لنبأ جاء فيه أن الفرنسيين أخذوا ينهبون خيامهم الملأى بالكنوز ، ومن ثم ترك الفرسان المسلمون الميدان ليحموا خيامهم من الناهبين الوهميين . وظنت بقية الجيش أن هذا يدل على الرغبــة فى التقهقر ، فاقتدت بالفرسان ، وبذلك كسب الفرنسيون المعركة . وانه لمن المحــزن حقا أن يجهل التاريخ اسم ذلك العبقرى الذى روج هذه الشائعة الزائفة ، فحال بين المسلمين وبين النصر ، وغير بذلك مصير أوربا كلها !

وكان لجنكيز خان بين جمــوع المغوليين عــدد كبير من الجواسيس .. وكان نظام الجاسوسية فى ذلك العهد يتقــدم بخطى سريعة . ولما كان جنكيز يخوض غمار حرب خاطفة ، فقد كان عليه أن ينظم الجاسوسية بين صفوف أعدائه وينظم فى الوقت نفسه وسائل سريعة لتصله المعلومات التى يحصل عليهــا جواســيسه . وما زال بعض أنواع التجسس التى استخدمها متبعــا إلى اليوم . كان يبعث إلى أعــدائه مثلا بجاسوس يدعى انه فر من جيش جنكيز ، ثم يوحى إليهم بأن هجومه ليس وشيكا ، حتى إذا ما اطمأنوا إلى ذلك ، فاجأهم جنكيز بهجــوم خاطف فيأخذهم على غرة !.. كذلك استخدم



جنكيز نوعا آخر من الجواسيس ، هو التاجر الجاســوس ، الذى كان يزور معسكر العدو ببضائعه ، ويفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع كل ما يفيد مولاه . وما زال التاجر الجوال إلى يومنا هذا خير « غطاء » أو « ستار » مناسب للجاسوس !

## أساليب ديوان التفتيش الارهابية

وكان للكنيســة ــ فى القرون الوســطى ــ نظامها الخاص لتجسس الأنباء . وقد جاء على أوربا وقت كان «البروتستانت» يتهمون فيه كل « جزويتى » بأنه جاسوس عليهم . كذلك نجد فى تاريخ الكنيســة أن ثمة اتصالا وثيقا بين الاستبداد والطغيان، من ناحية ، وبين الجاسوسية الفردية من ناحية أخرى. ويعيب بعض المؤرخين نظام التجسس الذى كانت تتبعه الكنيســة الكاثوليكية الرومانية ، ويلقون عليه تبعة فشل هذه الكنيسة فى الاحتفاظ بسلطانها فى شــمال غــربى أوربا ، قائلين أن الأســاليب المنافيــة للضمير التى كان الجواسيس يتبعونها ، والمعاملة القاسية التى كانوا يصبونها على ضحاياهم ، قد أدت إلى تعزيز المذهب البروتستانتى ، فى حين أنها كانت تهدف إلى هدمه !

إلا ان أحدا لا يستطيع أن ينكر على جواسيس الكنيســة ــ إذ ذاك ــ كفاءاتهــم . وقــد أدت نظم « ديوان التفتيش » ومحاكمه فى اسبانيا ، إلى رفع الجاسوسية إلى مستوى جديد من حيث التنظيم والأساليب . فقد كانت شبكة جواسيس ديوان التفتيش تنتظم أعوانا من كل الطبقات ، من الأمراء إلى

المتسولين ، ومن الجنود إلى الأطفال .. فسبقت النازية — بعدة قرون — إلى تشجيع الأتباع المخلصين على أن يشوا بأقاربهم ، وبثت جواسيسها فى كل مكان ، وكانت تعليماتها إليهم تقضى بأن : « على الجاسوس أن يكتسب صداقة المتهم وأن يسعى إلى استدراجه حتى يعترف له بجرمه .. وليذهب فى ذلك إلى درجة أن يدعى أنه من شيعة المتهم » !

## جاسوسية ريشيليو فاقت جاسوسية ديوان التفتيش !

على أن جاسوسية ديوان التفتيش كانت ضيقة الأفق إذا قيست بالنظام الذى ابتدعه الكاردينال ريشيليو ، الذى قيل عنه إنه كان خليقا بأن يبتكر « الجاسوسية » لو انها لم تعرف قبله !.. وكان رئيس مخابراته السرية هو الأب « جوزيف دى ترامبلاى » ، الذى اشتهر بلقب « القس الرمادى » ..

وقد كان اجتماع السياسة البعيدة النظر ، مع التطبيق الأمين الدقيق ، من أقوى أساليب « ريشيليو » التى لا تقاوم، والتى خلقت جاسوسية عريقة ، بعيدة كل البعد عن الأساليب الإجرامية التى كانت متبعة فى ذلك العصر .. فلقد كان ريشيليو فرنسيا قبل أن يكون كاثوليكيا — أى انه كان يقدم مصلحة الوطن على دواعى الدين — ومن ثم شجع أمراء ألمانيا البروتستانت وحليفهم « جوستاف أدولف » السويدى . وفى الوقت ذاته ، كان الجيش الألمانى الكاثوليكى تحت قيادة التشيكى العبقرى والنشتاين ، الذى كان يحظى بحب جنوده وولائهم ، ومن ثم كان أعظم خطر يهدد القضية البروتستانتية،



كما كان خطرا يهدد ريشيليو ذاته . ومن ثم أوفد الكاردينال السياسى مساعده — الأب جوزيف — إلى ألمانيا ، فأخذ هذا القس الوديع المظهر يتصل بالأمراء الكاثوليك من الألمان ،ويثير بالإيعاز الخفى غيرتهم ضد « والنشتاين » . وكان جواسيسه — فى الوقت ذاته — يوافونه بما كانوا يكتشفون من مواطن الضعف فى كل أمير ، فراح القس يعالج كل أمير على حدة ، ببراعة أدت فى النهاية إلى عزل « والنشتاين » .. وبهذا لم يتلاش أعظم خطر كان يتهدد ريشيليو فحسب ، وإنما أدى عزل « والنشتاين » إلى ثورة جنوده وانضمامهم إلى الجيوش البروتستانتية ! .. وفازت الجاسوسية على المهارة العسكرية فى هذه المعركة !

ولعل القارىء المدقق قد لاحظ أن الأمثلة التى سقتها حتى الآن ، تبين أن الأساليب المستحدثة فى الجاسوسية كانت جد قليلة ، ولقد كان والنشتاين بالذات مثالا لظاهرة حديثة أخرى . إذ انه كان شديد الإيمان بعلم الفلك ، ولم يكن يقدم على أية حركة دون استشارة الطوالع والنجوم . ويبدو أن الفلكيين الذين كانوا يخدمونه كانوا أسلم نية وأكثر جرأة من أولئك الذين خدموا هتلر !.. فقد تنبأ واحد منهم بساعة موت ذاك القائد العظيم ، وبالطريقة التى يتم بها . وقد آمن والنشتاين بهذه النبوءة إلى الدرجة التى جعلته يستسلم لمصيره — عندما حان — فلم يجرد سيفه ليصد الرجل الذى اغتاله !

## دروس .. فى حسن التجسس !

ومن الممكن الإسهاب فى الحديث عن عراقة الجاسوسية ، دون أن يؤثر ذلك فى طرافة الحديث وتشويقه .. وإذا كانت أقوال موسى عن جواسيسه قد بلغت من الدقة درجة تدعو إلى الاعجاب ، فان الأقوال التى صدرت عن قائد عظيم أتى بعده بزمن طويل ــ هو مارشال دى ساكس ــ ليست أقل روعة. فقد قال : « لا تستكثر كل اهتمام يبذل للجواسيس والمرشدين .. فهم كالعينين من رأسك ، ولا غنى لأى قائد عنهم .. ولا تستكثر أى مال ينفق فى الحصول على جواسيس مهرة . ويجب الحصول عليهم من البلاد المعادية .. ولا بد أن يكونوا أذكياء بارعين ، وأن يبثوا فى كل مكان : بين ضباط القيادة ، وحملة الأسلحة ، بل وبين المتعهدين وموردى الأطعمة للجيش .. فان مخازن التموين والمخابز من أروع المصادر للحكم على نوايا العدو !

وإذا كانت لقضية التجسس السوفييتى فى كندا اية قيمة ، فانها تؤيد اقتناع الروس بما قاله ذلك القائد عن استخدام الأعوان المحليين ــ من الأهالى ــ بأعداد كبيرة ، وفى الأماكن التى يمكن الحصول على معلومات منها .

ويستطرد المارشال دى ساكس قائلا : « واجب الا يعرف أحد من هؤلاء الجواسيس رفاقه ، كما يجب أن يكلفوا بمهام متعددة .. فيتسلل بعضهم ــ وهم الصالحون للتسلل ــ بين الضباط ، بينما يرافق بعض آخر الجيش كباعة أو تجار . على



أن يكون بين الفريق الأول عضو على اتصال بعضو من الفريق الثانى ، ليتسنى بذلك نقل المعلومات إلى القائد الذى يستأجرهم جميعا . إلا ان هذه المهمة بالذات يجب الا توكل إلا إلى كل ذكى جدير بالثقة ، وأن يختبر وفاؤه فى كل يوم ، للتأكد من أن لا سبيل للطرف الآخر إلى رشوته » .

وفى هذه العبارات الأخيرة ، نجد بذور النظام الذى يتبع فى « الخلايا » الشيوعية فى هذه الأيام !

## هنرى السابع كان يسرق مكافآت جواسيسه !

ولقد اقتبس « ادوارد الثالث » ــ عندما كان يحكم بريطانيا ــ نظام « المخابرات السرية » عن جمهورية البندقية . على أن بريطانيا كانت تستخدم الجواسيس قبل ذلك ، حتى أن ملكها « الفريد العظيم » لم يكن يتورع عن أن يقوم بنفسه بمهمة الجاسوسية ، وكان له فى ذلك أسلوب فنى بارع . كان يتنكر فى ثياب كاهن ، ويرتاد أندية الضباط الدانيمركيين ، فيصغى إلى أحاديثهم . على أن ادوارد الثالث نظم الجاسوسية فى هيئة رسمية تستمد نفقاتها من خزانة الدولة .

ولم يكن جواسيس تلك الأيام يهتمون بالبيانات العسكرية كهدف أول .. إذ كان ملوك تلك الأيام يحسون بأن العروش تهتز من تحتهم ، فكان هم كل منهم أن يجمع ــ عن طريق جواسيسه ــ البيانات المفصلة عن المؤامرات والدسائس .. ولم يكن الجواسيس ــ بوجه عام ــ من ذوى الخلق المتين والمقدرة الفنية . وكان الذين يكلفونهم بالتجسس يتصرفون

فيهم كيفما يشاءون .. بل انهم قلما كانوا يثقون فى اتهاماتهم للناس ! ومع ذلك فقد كان هؤلاء الجواسيس يعاونون الملوك على التخلص من كل منافس قوى !

وفى عهد هنرى السابع تقدمت المخابرات الرسمية فى الكيف ، وزادت فى الكم .. إذ اغتصب هنرى الملك بالقوة ، ولهذا لم يكن يثق بأحد . وكثرت فى حسابات « الجيب الخاص » أرقام تصلح أساسا لأية مغامرة من مغامرات الجاسوسية . ومع ذلك فان سجلات الحسابات قالت عن جاسوس ذى لحية انه تقاضى مكافاة قدرها جنيه واحد ، وكوفىء راهبان جاسوسان بجنيهين !!

كذلك ادخل هنرى السابع نظام الشفرة فى مراسلاته مع سفرائه فى الخارج ، وفى الوقت نفسه لم يترفع عن الاطلاع على بريد ممثلى الدول الأجنبية فى بلاده ! وكان ابنه — هنرى الثامن — والوزير « ولسى » فى مثل نشاطه .. بل لقد كان للأخير جواسيسه ، الذين كانوا كثيرا ما يعرقلون — بنشاطهم — اعمال الملك ذاته . ويجب الاعتراف بأن من يتولى أعمال الوزارة لملك ذكى ، محب للحياة — مثل الملك هنرى الثامن — لابد وأن يحتاج إلى إدارة خاصة للجاسوسية، ولو كان هذا لحماية نفسه . على أن هذه الإدارة لم تنقذ ولسى، بل إنها ساعدت واحدا من أعوانه ، هو توماس كرومويل ، على أن يرتقى إلى أعلى مناصب الدولة !.. وفى جو الدسائس الذى كان يحوط بمغامرات هنرى الخاصة ، وجد الجواسيس



فرصا كثيرة لنشاطهم ، وخاصة فى مراقبة كل شاب يرشح للجلوس على عرش قلب الأميرة الصغيرة اليزابيث !

## اليزابيث .. وجاسوسها الأعظم !

ومن المحتمل أن « التلمذة » فى مدرسة الجاسوسية قد احدثت تأثيرها فى اليزابيث .. إذ أنها اثبتت — حين ارتقت عرش انجلترا — انها ليست « مستجدة » فى فن المخابرات السرية ، فقد اتخذت من سفرائها جواسيس لها ، وكانوا يرفعون تقاريرهم إليها بالشفرة . اما وزيرها « سيسل » فقد تتلمذ على يديها !.. ولكن « الشرف الأكبر » فى المخابرات السرية ، فى ذلك العهد ، كان معقودا للسير فرانسيس والسنجهام ، هذا الرجل القدير الذى يصلح كنموذج للجواسيس فى أى عصر . فقد كان عالما خبيرا فى اللغات ، وعرف عادات شعوب كثيرة فى أسفاره ، وتلقى كثيرا من فنون الجاسوسية على أيدى الجزويت والإيطاليين ، وكانوا فى ذلك الوقت أدهى جواسيس المخابرات السياسية !.. وكان جواسيسه مستقرين فى مناصب عالية ، فى عواصم كثيرة .. وكانت تلك الأيام أيام بيع وشراء ، ولذا لم يكن من الصعب شراء ذمة أى إنسان ، ولو كان وزيرا !.. وقد استطاع هذا الرجل أن يحذر اليزابيث من مؤامرات كثيرة ، كان عقل الملكة اليقظ — حينذاك — قادرا على مواجهتها . ولم يكن فرانسيس يستبقى جاسوسا واحدا « فى خدمته » مدة أطول مما يجب ، وبدلا من ان يمنح الجاسوس — فى نهاية الخدمة — مكافأة مالية كبيرة ، كان غالبا ما يعينه فى منصب كبير . ومن

الأمثلة على ذلك انه عين أحد جواسيسه ، بعد خدمة خمس سنوات ، فى منصب « مراقب الدواجن » فى مطبخ الملكة !

وكان أعظم نصر أحرزه فرانسيس ، هو أنه حذر حكومته فى الوقت المناسب من خطر اسطول الأرمادا الأسبانى ، الذى كان يجهز لتدمير قوة بريطانيا البحرية . وكان قد وضع احد جواسيسه بين خدم واتباع أميرال الأسطول الأسبانى ، الذى اتفق أن مات فى ذلك الوقت ، فدب الاضطراب فى صفوف الأسبانيين . ( فهل كان موت هذا القائد من قبيل المصادفات أم بتدبير محكم ؟! ) . وقد استطاع ذلك الجاسوس أن يزود رئيسه فرانسيس بقائمة كاملة عن عدد السفن الإسبانية وبحارتها ومخازنها . وعندما أعلن نبأ موت الرجل بعد ذلك ، كتب فيليب ملك أسبانيا على هامش الرسالة : « هذه أنباء طيبة » !

## اغفال مكافاة الجاسوس يكلف غاليا !

وفى عهد ملوك أسرة ستيوارت — وكانوا أشداء دائما — زادت قيمة المخابرات السرية الخاصة بأسرة تيودور المنافسة لهم . وقد ثبت بعد ذلك ان الاهمال يكلف صاحبه كثيرا جدا .. فانه كلف أسرة ستيوارت عرشهم ، وكلف واحدا منهم حياته ! .. ولا غرو فقد كانوا غالبا ما يغفلون عن مكافأة اتباعهم وجواسيسهم ، ومن ثم اغفل هؤلاء ابلاغ الملك بحقيقة شعور الشعب . وفى عهد هذه الأسرة كانت هيئة « حجرة النجم » ، قد بدأت كمجلس عدالة ، ثم تحولت إلى إدارة المخابرات السرية ، وأخيرا أصبحت وكالة للقمع والإرهاب ..



فكانت تعبىء من الجواسيس والمرشدين عددا يزداد يوما بعد يوم . وكان هؤلاء يجعلون من حياة من يخالف أوامر السلطة القائمة جحيما لا يطاق . على ان هذه الهيئة السرية أدت إلى إحراز نتيجة هامة واحدة .. فانها عاونت على تعمير امريكا، إذ كان المهاجرون الأوائل إليها هم أولئك الذين استبد بهم اليأس — من الانجليز — بسبب جواسيس هيئة « حجرة النجم » ، الذين لم يكن لهم أى مبدأ أو ضمير ، والذين كانت الحرب الأهلية فى انجلترا تنأى بهم عن التجسس السياسى ، وتحول هيئتهم إلى « مخابرات عسكرية » .

على أن النظام الديموقراطى كان ينهض ببطء ، برغم هذا الفساد . ولم يتسن وقف الفساد تماما إلا عندما جاء حكم ; وليم ومارى .. فقد كان وليم جنديا أصيلا ، فأولى المخابرات العسكرية اهتمامه ، بينما كان يحتقر المرشدين العاديين ( المخبرين ) ، ويفضل إنشاء قوة خاصة تحل محلهم ، وتكون تابعة للبوليس ..

وازدادت أهمية المخابرات السرية فى عهد أسرة هانوفر ، فأصبحت جزءا من نظام الدولة ، واستخدمت وسائل كثيرة ما زالت مطبقة إلى اليوم ، مثل : الرقابة على البريد ، وتسلل الجواسيس ، واستخدام الشفرة ، والحبر السرى .. وهى حيلة كيميائية تجعل الكتابة منظورة أو غير منظورة ، وفقا للظروف والأحوال . على أن التوسع الذى حدث فى تلك الإدارة كان يسيرا إذا قورن بما حدث فى بداية القرن الحالى . ففى سنة ١٩١٣ — مثلا — وصل المبلغ الذى اعتمده البرلمان

البريطانى للمخابرات السرية إلى ٥٠ الف جنيه . وفى سنة ١٩٤٨ وصل المبلغ إلى مليون ونصف مليون جنيه !

## اباطرة .. يتجسسون لمصلحتهم !

كذلك كان للجاسوسية فى المانيا شأن كبير . وقد زرت — منذ عهد قريب — حانة قديمة فى « ستراسبورج » ، الحق بها فناء لم يكد يتغير فيه شىء خلال القرون الثلاثة الأخيرة .. واتيح لى أن أرى على جدار فى تلك الحانة ، اسماء من مروا بها من المشاهير ، فاذا اسم فردريك الأكبر — الإمبراطور الألمانى المعروف — بينها . والشىء الذى لم يذكر إلى جانب الاسم ، هو ان فردريك ، حين زار الحانة ، كان يتجسس لمصلحته الخاصة !.. ولم يكن فردريك اول زعيم يفعل ذلك.. فقد ذكرنا أن « الفريد » — ملك انجلترا — كان كثيرا ما يتسلل إلى خطوط الدانيمركيين .. كما كان « جوستاف ادولف » — ملك السويد — يعرف عن ارض المانيا اكثر مما يعرف الأمراء الألمان انفسهم ، إذ كان يسافر متخفيا باسم الكابتن «جارس»، وهو اسم مؤلف من الحروف الأولى لاسمه ولقبه . وقد ثبت انه لم يدرس التجسس فحسب ، وإنما حذق ايضا فن التعمية او « الكاموفلاج » ، وهو فن عرفه الصينيون منذ القدم ..

وإذا كانت الأساطيل الحديثة تستخدم الدخان كستار مصطنع تخفى تحته حركاتها ، فإن جوستاف سبقها إلى ذلك، إذ احرق أكواما من القش المبتل ، فانبعث منها دخان كثيف ستر زحف مراكب جيشه فى أحد الأنهار !



ولما كان الألمان مولعين بطبعهم بضخامة الهيئات والمنظمات، فان شبكة جاسوسيتهم كانت هائلة ، حتى أن فردريك الأكبر ذكر أنه حين كللت حروبه بالظفر ، كان فى جيشه مائة جاسوس فى مقابل كل طباخ !.. وقيل إنه كان يطلق فى اثر المارشال « دى سوبيز » مائة جاسوس متنكرين ، يتسللون إلى معسكرات الجيش المعادى على انهم طهاة !

## من ساحات القتال .. إلى مخادع الملوك !

وانتقل التجسس — بعد ذلك — من ساحات القتال إلى مخادع الملوك .. وقد حدث هذا فى عهد ملوك كان لكلمتهم حكم القانون . فقد يكون من الميسور اندساس الجواسيس بين مستشارى الملك ، أو بالأحرى ابتياع ذمم بعض مستشارى الملك ليكونوا جواسيس .. ولكن الملك يكون — فى الغالب — أكثر تأثرا برأى المرأة التى تشاطره فراشه ، منه برأى مستشاريه .. وليس من المحتوم أن تكون تلك المرأة هى الملكة ، إذ ان الملكة لم تكن تحظى بمشاطرة الملك فراشه إلا عندما يبغى إنجاب ورثة رسميين للعرش ! .. ومن ثم فقد كانت النساء اللائى نقلن الجاسوسية إلى مخادع الملوك هن .. الخليلات والمحظيات !

ولم يكن ثمة سبيل إلى الاستعانة بالبغايا فى هذا المضمار، وإنما كان الاعتماد الأول على السيدات ذوات المكانة والحسب .. حتى لقد كان بين السياسيين من يدفع بأخته لتكون عشيقة للملك ، فى سبيل مصالحه الخاصة ، ومن أبرز الأمثلة

فى هذا الصدد « لويز كيرواى »، التى أعارها لويس الرابع عشر — ملك فرنسا — لتشارلس الثانى ، ملك انجلترا . وكانت امرأة رائعة ، تنحدر من أصلاب ملكية فى فرنسا وانجلترا ، إذ كانت من سلالة « هنرى نافار » — الفرنسى — كما كانت من احفاد تشارلس جيمس الإنجليزى . وقد منحها تشارلس الثانى لقب «دوقة بورتسماوث» . . تقديرا لخدماتها الغرامية ! فى حين منحها لويس الرابع عشر لقب « دوقة أوبنيى » ، اعترافا بخدماتها كجاسوسة . وكان أعظم أعمالها فى هذا المجال ، هو ان أغرت ملك انجلترا بقبول معاهدة دوفر ، التى كانت فى الواقع استسلاما تاما لرغبات فرنسا ، وتراميا فى احضانها ، إلى درجة جعلت تشارلس الثانى يستعين بالجيش الفرنسى على إخماد ثورة رعاياه على هذه المعاهدة !

وقد ادى اقبال الملوك على اتخاذ محظيات لهم إلى قيام منافسات شديدة بين الوزراء — بعضهم وبعض — وبين الدول الأجنبية كذلك . . فكان بعضهم يدفع بالغوانى الحسان فى طريق الملك ، بينما كان غيرهم يسعى إلى الاستعانة بالمحظيات الموجودات بالفعل . . وكانت هذه الطريقة من طرق التجسس تكلف صاحبها أبهظ النفقات !

ومما يذكر فى هذا الصدد ، ان الملكات كن ينشأن على معرفة حقوقهن والتزام حدودهن . . ولكنهن — مع ذلك — كن كثيرا ما يسعين إلى معرفة اقرب المحظيات إلى قلب الملك ، فى اية لحظة معينة . وكن يلجأن فى ذلك إلى أساليب التجسس ، وقد كانت « كاترين دى مديتشى » أبرعهن فى هذا المضمار . .



ويقال ان دم الجواسيس كان يجرى فى عروقها . فقد حرصت ، عند إنشاء قصر اللوفر فى فرنسا ، إلى دس أنابيب خفية فى الجدران ، لتتمكن من أن تسترق السمع فى إحدى الغرف ، لما يدور بين أفراد الحاشية فى غرفة مجاورة . . ولعل هذا منشأ المثل السارى : « للجدران آذان ! » .

وكانت نسبة كبيرة جدا من الوصيفات تعمل فى التجسس . . على أن مهامهن كانت تتجاوز مجرد تسقط المعلومات ، إذ كن يساهمن أحيانا فى خلق الثورات الشعبية التى اطاحت ببعض الملوك عن عروشهم . فقد كان مما يثير عقول اهل الريف والعمال — فى أوربا الغربية — ان يدفعوا الضرائب لينفق منها الملوك فى بذخ على خليلاتهم ! . . ولم تكن المحظيات انفسهن لترهبن تلك الثورات ، بل إنهن كن من الذكاء بحيث يدركن تماما مدى تلك القوى التى كن يتسببن فى إطلاقها من عقالها !

## ظهور الجاسوسية العسكرية الحديثة

على أن الثورات فى أوربا لم تلبث أن تحولت إلى طوفان اغرق الملكية فى كثير من الدول — وحمل هذا الطوفان على أمواجه نوعا آخر من الجواسيس والبوليس السرى والمرشدين — كما جرف فى طريقه النبلاء ، واتبعهم بمن كانوا فى حكم النبلاء . وسادت عهود إرهابية ، انحط فيها مستوى التجسس ، حتى غدا مجرد اتهام شخص ما كافيا لاعدامه . . تماما كما حدث فى أوربا الغربية عقب سنة ١٩٤٥ ، إذ كان

اتهام اى شخص بأنه « تعاون » مع الأعداء الألمان ، كفيلا بأن يورده مورد الهلاك !

على ان التجسس لم يقتصر فى فرنسا على مجرد تدبير الدسائس والمؤامرات السياسية . إذ كانت أوربا دائما فى حروب ، أو فى ارتقاب حروب ، وهى ظروف كلها مواتية للجاسوسية . وكانت الجاسوسية قد غدت — فى تلك الأثناء هيئات منظمة معترفا بها فى كل دولة كبيرة . ولكن سياسة « مخادع النوم » والدسائس ، التى تفشت فى القرون الأخيرة، أثلمت نصل الجاسوسية، كما هبطت بكفاءة التجسس الحربى. وقد ادرك « ولينجتون » — قاهر نابليون — قيمة الحصول على بيانات عن حركات الجانب الآخر فى المعركة .. وكانت هذه بداية وجود الجاسوس العسكرى الحديث . وكان نابليون أكثر منه اهتماما بالجواسيس ، حتى لقد كان يرى أن الجاسوس الواحد — فى المكان المناسب — قد يعادل فى قدرته وعمله عشرين ألفا من الجنود !

ولم يغفل نابليون ابتكار الأساليب التى تعتمد على الذكاء .. حتى لقد كانت أعظم المهام التى عهد بها مرة إلى جاسوس له ، دسه فى معسكر الروس ، هى أن يتبين « من التى شاطرت القيصر فراشه فى الليلة السالفة » ، والعمل على أن تكون المقربات إلى القيصر ، على استعداد لأن يعملن لحساب الفرنسيين !



# الفصل الأول

## « امبراطور الجواسيس »

أطلق نابليون لقب « امبراطور الجواسيس » على « كارل شولميستر » . وليس لى أن أرتاب فى رجاحة رأيه ، فقد كان « شولميستر » فى مكانة شاهقة بالنسبة لكافة جواسيس العصور الماضية ، بل إنه كان يبز أى منافس من جواسيس العصر الحاضر .. ولا ينفى هذا أن الوقت والظروف كانت فى صفه ، إذ ان الثورة الفرنسية والحروب النابليونية كانت تمهد سبيل الحياة العملية الحافلة لكل رجل أوتى مهارة وعزما وضميرا لا يحفل كثيرا بالحساب !

ولقد ولد « شولميستر » فى سنة ١٧٧٠ ، بالقرب من ( ستراسبورج ) ، لأب كان قسا من أتباع « لوثر » ، وكان يعتقد — سواء عن صواب أو عن خطأ — أنه من سلالة نبلاء المجر . وعندما سئل يوما أن يثبت هذا الزعم ، لم يتورع عن تزوير الوثائق اللازمة !

وقد اقترن « شولميستر » بفتاة من بنات الألزاس ، وأنشأ لنفسه هناك متجرا متواضعا لبيع السلع المصنوعة من الحديد، فسرعان ما أثرى .. ولكن ثراءه جاء عن طريق غير طريق مهنته ! .. ولما كان إقليم الألزاس من أقاليم الحدود — الواقعة بين فرنسا والمانيا — فان التهريب من اكثر المهن رواجا فيه ! .. ومع أن القانون يحرمه رسميا ، إلا أن السكان لم يكونوا يرون

فيه اى عيب يضير ، ومن ثم لم يلبث صيت شولميستر أن ذاع بوصفه مهربا جريئا بارعا ! .. واستطاعت هذه السمعة ان تجتذب انتباه احد قادة جيش نابليون– وهو الجنرال سافارى– فاستخدمه جاسوسا . وبعد ان اختبر مهارته ، عهد إليه بالمهمة الشاقة ، غير المستساغة ، التى دفعت به إلى الأمام فى مضمار الجاسوسية .

## نابليون يستعين بالجاسوس المجرد من القلب !

كان ذلك فى سنة ١٨٠٤ ، وقد فرغ نابليون من تقليم اظفار الثورة ، واتخذ لنفسه تاجا إمبراطوريا . وكان عليه – فى بادىء الأمر – أن يحسب حساب الأخطار التى تتهدد ملكه وتاجه من أمراء آل بوربون المنفيين .. فمع أن هؤلاء الأمراء كانوا عاجزين عن اى عمل ، إلا انه كان فى وسع أعداء نابليون فى الخارج أن يتخذوهم مطايا للنيل منه . وكان من هؤلاء الأمراء « دوق انجين » الذى لجأ إلى المانيا . وادرك نابليون ان بوسعه أن يرهب جميع الأمراء ، إذا هو أقدم على تصرف صارم مع واحد منهم ، ومن ثم وقع اختياره على « دوق انجين » ليكون كبش الفداء ، وعهد إلى شولميستر باستدراج الدوق إلى أرض فرنسية !

وعمد شولميستر إلى القاعدة العسكرية التقليدية : مهاجمة العدو فى أضعف مواقعه .. وكان أضعف مواقع « دون انجين » هو قلبه ، إذ كان متعلقا بفتاة تقيم فى ( ستراسبورج ) ، فما كان من شولميستر إلا أن اختطف عشيقة الدوق ونقلها إلى بيت ريفى فى جنوب الألزاس ، بالقرب من الحدود ، ثم زور رسالة

فما كان من ( شولميستر ) إلا أن اختطف عشيقة الدوق ونقلها إلى بيت ريفى فى جنوب الألزاس ، بالقرب من الحدود ..

من الفتاة إلى الدوق ، تناشده فيها أن يخف إلى نجدتها .. وكأى عاشق ولهان ، بادر الدوق إلى نجدة حبيبته ، وقد خيل إليه أن بوسعه أن يرشو الحراس القائمين على الفتاة ، ثم يختطفها ويحملها على جواده عابرا بها الأميال القلائل التى تفصل بين سجنها وبين الأراضى الألمانية .. حيث الحرية !

أما شولميستر ، فبعد أن أعد الفخ وزوده بالطعم الشهى ، تبع ينتظر أن تغتر الفريسة بالطعم ، فيطبق الفخ عليها فكيه .. ثم استبد به القلق ، فلم ينتظر وصول الدوق إلى الفخ ، بل كمن له فى الطريق خشية أن يفطن إلى الخدعة فى آخر لحظة فيبادر إلى النجاة .. واستطاع الجاسوس الداهيــة أن يوقع بالدوق وهو على الحدود ، قبل أن يصل إلى الأرض الفرنسـية .. وتولى نابليون ما بقى من هذا الأمر ، إذ قدم الدوق المنكود الطالع إلى محكمة عسكرية تولت محاكمته فورا ، وقضت بإعدامه رميا بالرصاص .. أى بقتله بطريقة قانونية !

وقال تاليران — وزير خارجية نابليون — إن ما حدث كان غلطة سياسية تفوق الجريمة شناعة .. وقد أصدر حكمه هذا عن حكمة وبصيرة نافذة . ولكن الجنرال سافارى قدم شولميستر إلى نابليون قائلا : « هذا يا مولاى رجل كله عقل مفكر ، ولكنه مجـرد من القلب » .. فوعد نابليون بأن يهيىء لمثل هــذا « الوحش » فرصا كافية ، وأجزل له العطاء .

وهكذا أطلق العنان لشولميستر فى مضمار الجاسوسية ، فكانت المغامرة التالية أعظم ما عمل فى حياته .. بل إن تاريخ الجاسوسية بأسره لم يضم لها مثيلا !



## جيش كامل يتبدد .. بخدعة امبراطور الجواسيس !

كان « وليم بت » — رئيس وزراء بريطانيا — قد وقف كل جهود بلاده وماليتها على تنظيم حلف دولى يحد من توسع نابليون فى بسط نفوذه السياسى . وكان العضوان الرئيسيان فى ذلك الحلف هما النمسا وبروســيا .. ولكن نابليون لم يشأ أن ينتظر حتى تقوم لهذا الحلف قائمة ، فتتوطد دعائمه ، وإنما آثر أن يكون البادىء بالضرب ، فيهاجم الحلف وهو فى مهده ! .. وفى سبيل ذلك ، سافر شولميستر إلى ( فيينا ) منتحلا لنفسه شخصية نبيل مجرى من سلالة عريقة ، زاعما أنه طرد من فرنسا حيث كان يتجسس على نابليون .. وهى حيلة كثر اللجوء إليها فى المناورات الجاسوسية الحديثة !

وعرض شولميستر خدماته على المارشال « ماك » ، القائد النمسوى .. واستطاع أن يدلى إلى القائد بأمور كثيرة عن أحوال جيش نابليون ، أقنعته بقيمة هذا اللاجىء الطريد .. إذ أوحى الدهاء إلى شولميستر بأن يتعمد أن تكون المعلومات التى أدلى بها — فى البداية — صحيحة ، يتسنى للنمسويين أن يستوثقوا من صحتها بسهولة . وبذلك اكتسـب ثقة السلطات العسكرية ، إلى درجة أنه عين رئيسـا للمخابرات النمسوية لقوات المارشال ماك ، بعد أشهر قلائل !

وكان هذا العمل من أروع المغامرات الجاسـوسية التى لا مثيل لها .. بل إنه فاق الخيال ، حتى لقد اتخذ منه الكتاب موضوعا لأكثر من قصة من القصص المثيرة .

واستطاع شولميستر — وهو فى هذا المنصب الفريد — أن

ينقل إلى نابليون كل حركة كانت تحدث فى صفوف أعدائه . ولما كانت الموارد المالية التى وضعت تحت تصرفه واسعة ، فانه استطاع أن يرشو ضباطا من النمسويين لمعاونته . وتعمد أن يحصل على رسائل مزورة ادعى أنها مهربة إليه من عناصر فرنسية ساخطة على نابليون .. بل إنه أقدم مرة على نشر حديث كان نابليون قد أدلى به إلى خاصته ، وزعم هو لرؤسائه فى النمسا أن أعوانه المنبثين فى فرنسا قد حصلوا له على نصه .. ومن ثم وقع المارشال ماك فى أقدم خدعة عرفها التاريخ ، إذ اعتقد أن فرنسا تضطرم استياء من نابليون ، وأن جيش الامبراطور يوشك أن يتمرد عليه !

ثم مضى شولميستر فى خطته البارعة خطوة أخرى ، إذ أثبت للقائد النمسوى ولرؤسائه — بأدلة ووثائق مزورة بالطبع ! — أن نابليون شرع فى سحب قواته من الميادين الخارجية ، لقمع الاضطرابات التى بدأت تستشرى فى فرنسا .. ومن ثم انطلق ماك بجيشه مغادرا الأراضى النمسوية ، زاحفا صوب ( ميونيخ ) ، ليطارد الجيش الفرنسى المنسحب .. ولكنه لم يلبث أن فوجىء بجيش فرنسى يعترض طريقه ، زاحفا نحو الشرق !.. وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت ثلاثة جيوش أخرى عند جناحى جيش ماك .. وتبين القائد النمسوى أن الفرنسيين قد أحاطوا بقواته ، وقطعوا خطوط اتصاله بقاعدته ، فجاهد متقهقرا إلى ( أولم ) ، ولكن انطباق فكى الكماشة الفرنسية عليه اشتد ..

ولم تكن ثمة حاجة إلى قتال يذكر ، لأن رجلا واحدا كان قد



أعد كل شىء لضمان انكسار النمسويين دون ما حرب .. ولم يكن هذا الرجل سوى شولميستر !

ومع ذلك ، فان الجاسوس الداهية لم يكشف عن حقيقته — فى نشوة النصر — ولا فضحته الأحداث .. بل إنه كان بين الضباط النمسويين القلائل الذين تمكنوا من الافلات من حلقة الحصار الفرنسى ! .. واستطاع — بما أوتى من جراءة تبلغ حد الاستهتار — أن يندس فى أعلى مجالس الحرب الروسية والنمسوية . ولم يقدر لنابليون يوما أن يحصل على معلومات عن أعدائه تضارع تلك التى كان شولميستر يزوده بها . على أن دور شولميستر لم يقتصر على استقصاء المعلومات ، وإنما راح يغرى أعداء نابليون باتباع التوجيهات الاستراتيجية التى كان يمليها عليهم ، مما أدى إلى انتصار نابليون فى معركة ( أوسترليتز ) .

ولقد حاول الروس والنمسويون أن يبزوا نابليون فى خططه الفنية ، وأن يعزلوا جيشه عن قاعدته ، فانتشرت قواتهم فى ساحة طويلة ، ولكن خطوطهم كانت ضعيفة إلى درجة جعلت نابليون يقول مباهيا : « لسوف يصبح هذا الجيش ملكى قبل أن يأتى الغد ! » .. ولم يكن يبنى حكمه على غير منطق أو حكمة ، فتم له ما أراد ! .. وأدى انتصاره فى ( أوسترليتز ) إلى القضاء على ما كان يسمى إذ ذاك « الحلف الأعظم » ، كما قضى على « بت » ، رئيس وزراء بريطانيا الذى ناصب نابليون العداء طوال حياته .. وقد بلغ من حسرة « بت » وتشاؤمه ، أنه قال غداة انتصار غريمه :

« اطووا خريطة أوربا ، فإننا لن نحتاج إليها طيلة العشرين سنة التالية ! »

وهكذا استطاع جاسوس واحد أن يغير مجرى التاريخ ، وهو عمل نادر لا يكاد يكون له مثيل !.. على أن أعداء فرنسا كانوا قد بدأوا يرتابون فى شولميستر فى تلك الأثناء . فلم ينقذ حياته من عواقب اكتشاف أمره سوى تقدم قوات فرنسا فى أوربا .. وقد حرص شولميستر — حتى اللحظة الأخيرة — على ان يحتفظ بأعوانه فى أرقى المناصب الرفيعة ، مما ادى إلى ارتباك خطط النمسا وروسيا .. وبينما كان جيش كل منهما ينتظر وصول الجيش الآخر لينضم إليه ، كان نابليون قد استولى على العاصمة النمسوية !

وكان اللقب الوحيد الذى خلعه نابليون على شولميستر هو: « امبراطور الجواسيس » !.. ولقد حاول الجنرال سافارى أن يحمل نابليون على أن يمنح شولميستر وسام « اللجيون دونير » ، ولكن نابليون اصر على ان يكتفى باللقب الذى ذكرناه ، قائلا إن الذهب هو المكافأة الوحيدة التى يحق للجاسوس أن يطمع فيها . والواقع ان نابليون كان سخيا ، إذ اصبح شولميستر موفور الثراء ، كما انه تبوأ مناصب رفيعة خطيرة الشأن : فكان مديرا للبوليس فى النمسا ، وقوميسيرا عاما للقوات الفرنسية .. ولكنه احتفظ دائما — إلى جانب كل منصب — بمركزه كمدير للمخابرات السرية . وقد هيأت له المناصب فرصا كافية لزيادة ثروته ، فاستغلها أعظم استغلال .



وما كان سخاء نابليون بالمال دون الألقاب إلا رغبة منه فى الا تتسلط الأضواء على الجاسوس .. فقد كان غروره كفيلا بأن يزين له ان يبدو للناس صاحب الفضل كله فى انتصارات نابليون !

## الجاسوس الذى يخدم وطنه .. لا يكون وضيعا !

ولقد ينظر بعض الناس إلى الجاسوس نظرتهم إلى «مخلوق وضيع » ، يستخدم وسائل قوامها الجبن والنذالة . ولكن هذا القول لا يصدق فى كل الأحوال ، فان الجاسوس الذى يعمل لنصرة قضية بلاده يؤدى خدمة من « انبل » الخدمات . كما أن الجاسوس يحتاج إلى شجاعة ، إذ انه « وحدة » قائمة بذاتها، فهو لا يعتمد على إخوان او زملاء يساندونه ويقوون روحه المعنوية . ولا مراء فى ان « الشجاعة » — بما لهذه الكلمة من مدلول عسكرى — لم تعوز شولميستر . فقد حدث فى إحدى المناوشات بمدينة « ويزمار » ان دب الاضطراب فى صفوف القوات الفرنسية ، وإذا شولميستر يتصدى لثلاثة عشر من الفرسان الهاربين ، فينظم منهم قوة شن بها هجمة عنيفة مكنته من الاستيلاء على المدينة !.. واستطاع فى معركة اخرى أن يدافع وحده — تقريبا — عن جسر ذى قيمة حربية .. وعندما قامت حوادث الشغب فى « الألزاس » ، سعى حتى اعتقل زعيمها وأعدمه فى الحال ، فقمع الثورة برصاصة واحدة!

ومن سخريات القدر أن نجاح شولميستر أدى — فى الوقت ذاته — إلى انهيار مكانته . إذ أن نابليون لم يكد يطمئن إلى انه اصبح سيد النمسا بأسرها — وكان جزء من الفضل فى ذلك يرجع إلى دهاء شولميستر — حتى بادر إلى الزواج من

الأميرة « مارى لويز » النمسوية . وقد قدر لها أن تعرف الدور الذى لعبه هذا الجاسوس فى إيقاع الكارثة بوطنها . فعملت على حرمانه من الحظوة التى كان يتمتع بها فى البلاط الفرنسى ..

واعتزل شولميستر الناس فى ضيعة له بالالزاس . ولكن الجيش النمسوى لم يكد يدخل هذا الإقليم ، بعد انهيار نابليون ، حتى اتجهت بطارية كاملة من مدفعيته إلى تلك الضيعة ، وأزالت بيت شولميستر من الوجود .. ومع ذلك ، ظل الرجل وفيا لنابليون فى محنته ، فما ان هرب الامبراطور من جزيرة ( البا ) ، حتى انضم شولميستر إليه .. ولكن نابليون لم يلبث ان هزم فى معركة ( واترلو ) ، فاعتقل شولميستر . غير انه تمكن من الهرب بعد أن رشا الحراس وخسر الجزء الأكبر من ثروته .

ومع أن أسرة « بوربون » لم تبد كرما نحو رجال نابليون — حين عادت إلى حكم فرنسا — إلا انها تركت شولميستر يعيش .. بل انها منحته ترخيصا بفتح حانوت لبيع السجاير والتبغ فى ( ستراسبورج ) .. وقد حدث فى سنة ١٨٥٠ أن زار رئيس جمهورية فرنسا — الذى أصبح امبراطورا باسم نابليون الثالث — عاصمة الألزاس ، فذهل وزراؤه حين رأوا أن أول عمل حرص عليه ، هو أن زار حانوتا متواضعا لبيع التبغ ، وصافح صاحبه الشيخ !

وضرب شولميستر رقما قياسيا فى أعمار الجواسيس ، إذ مات وهو فى الثالثة والثمانين من عمره !



# الفصل الثانى

## « أستاذ الجاسوسية »

إذا كان شولميستر « امبراطور الجواسيس » ، فان ولهيلم شتايير كان أستاذا للجاسوسية .. وهما معا يتقاسمان فضل تأسيس الجاسوسية بشكلها الحديث !

ولقد كان كل منهما ينحدر من أسرة فقيرة ولكنها كريمة الأصل . وكان لكل منهما اتصال بالكهنوت .. فقد اتجهت دراسة « شتايير » فى البداية إلى الدين ، ثم اتجه إلى دراسة القانون فى برلين ، وأدى اتصاله بالمجرمين — بحكم مهنته كمحام — إلى أن يحترف الجاسوسية . ولم تكن مغامراته الأولى مشوقة ، لأن بروسيا كانت تحت حكم عاهل مستبد ولكنه جبان ، هو « فردريك ولهيلم » ، الذى كان يعيش فى رعب من الأفكار الديمقراطية التى اجتاحت أوربا حوالى عام ١٨٤٨

وكانت وسائل شتايير سهلة بسيطة ، إذ كان ينضم إلى الجمعيات الثورية ويتظاهر بالتحمس لها ، لكى يتمكن من معرفة أسرارها . وحدث مرة أن هاج القوم ضد الملك ، واتجهوا إلى قصره ، فتحايل شتايير حتى صار على رأسهم ، وأبدى من النشاط والتحمس ما حملهم على « انتخابه » متحدثا باسمهم . وإذ ذاك ، استطاع أن يطمئن الملك المذعور إلى أن « جاسوسه شتايير » يقبض على أزمة الموقف ! ولم ينس الملك قط هذا الحادث طيلة حياته .. أو طيلة السنين التى ظل خلالها محتفظا

بعقله ، على الأقل !.. ولما كانت لشتايبر خبرة واسعة بالقانون الجنائى ، لذلك لم يكن ثمة عجب فى أن تعينه السلطات العليا مديرا للبوليس ، وهو لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره !

وما أن تولى هذا المنصب ، حتى شرع فى تنظيم إدارته وفق رغبته ، فاستعان إلى جانب ضباطه النظاميين بنفر من عملائه المجرمين ! ورحل إلى إنجلترا ليراقب الألمان المبعدين عن بلادهم ، ومنهم كارل ماركس ، صاحب كتاب راس المال !

وظل شتايبر يتمتع بنفوذ هائل حوالى عشر سنوات ، ثم اصبح جنون الملك أشد من أن يخفى .. وكان الوصى على العرش — وقد تبوأ الحكم فيما بعد باسم الامبراطور غليوم الأول — يعتقد أن تعيين شتايبر فى منصبه من آثار جنون أبيه، ومن ثم فصله من الخدمة فجأة . وانتهز أعداؤه الكثيرون هذه الفرصة ، فساقوه إلى ساحة القضاء متهما باثنتى عشرة تهمة .. ولكن ذكاءه وإلمامه بالقانون الجنائى مكناه من أن يبرىء نفسه أمام القضاء . وقد عمد فى سبيل ذلك إلى إماطة اللثام عن جهوده فى الجاسوسية ، مثبتا انه ما بذل هذه الجهود إلا لمصلحة العرش .

وهنا حدثت ظاهرة عجيبة : فمن المعروف أن افتضاح أمر الجاسوس وتكشف هويته ، يسدان أمامه ميدان التجسس بعد ذلك . أما فى حالة شتايبر ، فان إماطة اللثام عن أسراره كانت بداية حياة جديدة بالنسبة إليه . فقد التحق بخدمة قيصر



روسيا ، وقضى خمس سنوات مشرفا على مراقبة أعداء القيصرية من الروس المقيمين فى الخارج .

على أن شتايبر ظل فى قرارة نفسه بروسيا ، متعلقا بوطنه، برغم عمله فى خدمة القيصر . فما أن انتهى أمد هذه الخدمة ، حتى عاد إلى بلاده بثروة كبيرة من المعلومات عن روسيا .

وكان تجسسه — حتى ذلك الحين — قاصرا على الميدان السياسى دون العسكرى . ولكنه قدم إلى « بسمارك » فى سنة ١٨٦٣ ، فأدرك ذلك السياسى الثاقب البصيرة ، مدى مقدرة شتايبر وكفاءته ..

وكان أهم ما يسعى إليه بسمارك — فى تلك الآونة — أن يجرب قوة بروسيا إزاء النمسا ، بعد أن اعد الجيش البروسى تمام الإعداد لتلك المهمة ، طامعا فى أن يدحر النمسا ويمكن لبروسيا من أن تتزعم الدويلات الألمانية .. ومن ثم طلب إلى شتايبر أن ينظم النشاط الجاسوسى — فى قلب النمسا ذاتها — تمهيدا لهذه الغاية .

## بائع التماثيل الذى اصبح مستشارا للملك !

واتبع شتايبر ، فى سبيل التسلل إلى معسكر الأعداء ، ما اتبعه شولميستر من قبل ، مع فارق واحد : فقد دخل شولميستر النمسا منتحلا شخصية سليل لإحدى الأسرات النبيلة .. أما شتايبر فقد دخلها كبائع متجول ، يدفع أمامه عربة محملة بالتماثيل الدينية الصغيرة ، والأيقونات ، وبطاقات

البريد القذرة !.. وكان موفقا فى اختياره ، فان الجنود يشغفون عادة بالأيقونات والصور !

وظل شتايبر يدفع عربته فى ارجاء النمسا اربعة أشهر . وكان يدخل معسكرات الجيش ويساوم عملاءه من الضباط والجنود ، ثم يجاذبهم اطراف الحديث .. وعندما عاد إلى بروسيا ، دهش الجنرال فون مولتكه — القائد البروسى المشهور — لدقة المعلومات والبيانات المفصلة التى حملها . والتى استعان بها بسمارك ، فلم يلبث ان اتخذها قادته أساسا فى رسم خططهم ، وتحديد مواعيد عملياتهم الحربية .. وبهذا استطاعوا أن يكسبوا المعركة الحاسمة بعد ستة اسابيع من بدء الحرب !

ولقد عين شتايبر — أثناء هذه الحملة — مديرا للأمن ، ولكن الضباط الاوتوقراطيين فى الجيش البروسى كانوا ينفرون منه ، وإن كان « فون مولتكه » قد أسبغ عليه رضاءه ، وأنعم عليه بوسام رفيع . ولم يكن القائد البروسى محابيا فى هذا ، فان شتايبر لم يقتصر على كشف مواطن الضعف فى النمسا ، بل انه نظم هيئة جد قديرة لمقاومة جاسوسية الأعداء فى بلاده ، واستغل ما اصبح معروفا اليوم بأنه اقوى سلاح فى الحرب الباردة أو الساخنة على السواء .. سلاح الدعاية ! وقد بلغ من براعة شتايبر ، انه استخدم هذا السلاح بحديه : استخدمه فى رفع الروح المعنوية لدى البروسيين ، كما استخدمه فى إضعاف الروح المعنوية لدى الأعداء !



وفى تلك الأثناء ، كان « غليوم الأول » — الذى أقصى شتايبر عن منصبه حين كان وصيا على العرش — قد أصبح ملكا لبروسيا . . ولكنه اضطر فى هذه المرة إلى الاعتراف بفضل شتايبر وجهوده ، فمنحه مكافأة مالية سخية ، وعينه مستشارا خاصا للملك !

## « أستاذ الجاسوسية » .. يمهد لغزو فرنسا !

وما أن انتهى بسمارك من حرب النمسا ، حتى بدأ يتطلع إلى محاربة فرنسا . ولم يشغل باله — إذ ذاك — سوى أن قادة جيشه أبدوا رغبتهم فى تجنب فتح جبهة ثانية ، أو بالأحرى فى تجنب اشتباك روسيا مع بلادهم اثناء محاربة الفرنسيين . وقد استطاع شتايبر بدهائه وذكائه أن يحقق لهم رغبتهم هذه . إذ جمع معلومات تثبت وجود مؤامرة بولندية لاغتيال قيصر روسيا — الذى كان يزور فرنسا فى تلك الفترة — ولكن شتايبر تكتم هذه المعلومات حتى اطمأن اولا إلى ان البوليس الفرنسى اعتقل المتآمرين فى الخفاء ، اى دون ان يدرى القيصر بما كان يجرى .. وإذ ذاك فقط ، اذاع شتايبر ما كان لديه من معلومات .. ولما لم يكن التآمر على قيصر روسيا بالجريمة الخطيرة ، لا سيما فى عهد ديمقراطية نابليون الثالث، فان المتآمرين لم يعدموا ، مما أحنق القيصر الروسى .. ومن ثم دب الجفاء بين روسيا وفرنسا !

وبدأ شتايبر بعد ذلك حملة التجسس التى أراد أن يمهد بها لغزو فرنسا، فقضى ثمانية عشر شهرا يجوس خلال الأقاليم

الشمالية الشرقية من فرنسا — وهى التى كان مقدرا أن تغدو ميادين للقتال المقبل — وأنشأ شبكة للجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل ، وقد ساعده فى ذلك أن القيود لم تكن شديدة على الحدود القائمة بين بروسيا وفرنسا ، حتى أن كثيرا من الألمان كانوا ينتقلون إلى فرنسا وينتشرون فى أرجائها سعيا وراء الرزق .

وكان شتايبر يدرك فداحة المسئولية الملقاة على عاتقه .. فلو أنه ارتكب خطأ واحدا ، لكانت فى ذلك الطامة الكبرى ، إذ كان بسمارك يعتمد على تقاريره ويعول على ما يجيء بها لاتخاذ قراره النهائى ، سواء بالحرب أو السلام ! ومن ثم عكف الجاسوس على دراسة « طبوغرافية » المنطقة التى كان مقدرا أن يدور فيها القتال ، وعنى بملاحظة مواطن الضعف فى خطوط المواصلات والامدادات .. وبذلك ادى خدمة جديدة للجاسوسية الحربية التى تسبق العمليات !

كذلك جمع واعوانه إحصاءات سرية دقيقة عن الشئون الاقتصادية لمناطق الحدود ، ليمكن القائد الألمانى من تقدير ما تستطيع كل قرية أن تمد به الجيش الغازى من مؤن واقوات .
وما لبث شتايبر أن عاد إلى بروسيا فى أوائل سنة ١٨٧٠ ، وقال لبسمارك — مباهيا — إنه بث ثلاثين الفا من أعوانه فى فرنسا .. ومع أن العدد الحقيقى لم يتجاوز أربعة آلاف — فى الواقع — إلا أنهم كانوا يؤلفون اكمل شبكة للتجسس عرفها التاريخ حتى ذلك الحين !

وانتصرت قوات بروسيا ، ووقع الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث فى أسر الألمان ، واستقر شتايبر ورجاله فى



قصر ( فرساى ) . حتى إذا سعى السياسى الفرنسى المعروف « جول فافر » إلى مفاوضة الغزاة المظفرين ، انزله الألمان فى ذلك القصر .. وإذ ذاك ، انتحل شتايبر شخصية خادم عين للعناية بحاجات الضيف ، وبذلك تسنى له أن يتجسس عليه ، وأن يفحص رسائله ويتعرف من خلال سطورها مواطن الضعف فى موقف الفرنسيين ، مما ضاعف من فرص المساومة لدى الجانب الألمانى !

وازداد عدد الأوسمة التى نالها شتايبر ، حتى أصبح ٢٧ وساما .. ومع ذلك ، فان العسكريين الألمان ظلوا يزدرونه !

والواقع أن النصر لم يغر شتايبر على أن يخفف من وطأة الجاسوسية على فرنسا ، إذ كان يرى أن فرنسا لن تقعد عن الانتقام من ألمانيا . ولهذا ظل يحتفظ بشبكة جاسوسيته ، وأخذ يبتاع الفنادق ويعين أعوانه فى مناصب الإدارة فيها ، كما راح يبثهم فى دور الوزراء ومكاتبهم .. حتى لقد كانت خليلة وزير الحربية الفرنسى ، كما كان حوذيه ، من جواسيس شتايبر ، فى فترة من الفترات !

### يموت محسورا .. لأن الألمان كانوا يزدرونه !

على أن المهام التى كانت ترتقبه فى ألمانيا ، كانت أخطر وأكثر إرهاقا .. فان الدويلات التى اندمجت فى الامبراطورية الألمانية الجديدة كانت مصدر خطر كبير ، إذ كان من المحتمل أن تنقض على الامبراطورية فى أى وقت . ومن ثم حرص شتايبر على الا يغفل مراقبتها قط . كذلك كان عليه أن يتخذ

الحيطة لنفسه ، إزاء أعدائه المجردين من الرحمة . ومع ذلك، فانه مات مثقل القلب بالهم محسورا ، لأن المجتمع الألمانى ظل يزدريه !

ويصف مؤرخ معاصر جنازته ، فيقول إن عدد المشيعين كان كبيرا ، وأن علية القوم ساروا عن بكرة أبيهم وراء تابوته .. ولكن جو الجنازة لم يكن قاتما حزينا ، لأن بعض هؤلاء القوم لم يجيئوا إلا ليتثبتوا من أن شتايبر قد مات .. إلى الأبد !

ومع أن شتايبر كان « استاذا » فى الجاسوسية ، إلا أنه لم يكن عبقريا ، اللهم إلا فى قدرته على تحمل الآلام ، وفى براعته فى تنظيم الجاسوسية على نطاق لم يسبق له مثيل فى اتساعه وكفاءته .. وقليلون هم الذين لم يفيدوا من آثاره ، من العاملين اليوم فى المخابرات السرية . كذلك يعتبر شتايبر المسئول عن المعاملة العنيفة التى يلقاها الجواسيس اليوم ، إذا وقعوا فى قبضة أعدائهم ، إذ انه لم يكن يرحم اى جاسوس فرنسى يقع فى قبضته .. وكان مجرد إقدام اى فلاح فرنسى على مساعدة مواطنيه ــ إبان الاحتلال الألمانى لفرنسا ــ ذنبا يجعله فى نظر الألمان جاسوسا !.. ولا جدال فى ان الفرنسيين استخدموا بدورهم هذا الأسلوب فى معاملة اى جاسوس وقع فى أيديهم ، من أعوان شتايبر .

على أن أهم اثر تركه شتايبر فى عالم الجاسوسية ، هو ذاك الذى يتمثل فى حجم نظامه وكفاءته .. ومن الممكن أن يقال انه ارتقى بالجاسوسية من « التجزئة » إلى « الجملة » .



# الفصل الثالث

## جواسيس قدامى .. وعالم جديد !

كان اول آثار الجاسوسية على الدنيا الجديدة ــ أمريكا ــ انها اثارت جدلا طويلا حول مشروعية إعدام الجاسوس ، من الناحية القانونية ، فعندما اشتد النزاع بين بريطانيا والمهاجرين الأوائل ــ الذين عمروا أمريكا ــ كان البريطانيون على دراية بتطورات موقف الأمريكيين . ولا عجب فى ذلك . فان عددا كبيرا ممن عمروا أمريكا ظلوا يحتفظون لوطنهم بالولاء . على ان نشاط المخابرات البريطانية لم يستند إلى هؤلاء ، ولا اقتصر على حدود المستعمرات الأمريكية ، وإنما امتد إلى فرنسا واسبانيا ، إذ كان ملوكهما يمدون أيديهم بالعون لأولئك الأمريكيين الأوائل .. لا لأن هؤلاء الملوك كانوا يتشيعون للديموقراطية ، وإنما لأنهم كانوا لا يتورعون عن اى عمل يضر بانجلترا !

ولقد تجلى تقدير الأمريكيين للفرنسيين فى أنهم أوفدوا احد اقطابهم ــ وهو بنجامين فرانكلين ــ ليمثلهم فى باريس .. وكان فرانكلين يستعين بمساعد يدعى الدكتور ادوارد بانكروفت .. ولكنه لم يكن يدرى أن هذا « البانكروفت » كان جاسوسا بريطانيا !.. وقد اضطر بانكروفت إلى أن يكون جاسوسا مزدوج الشخصية ، ذلك لأنه كان ينقل إلى لندن كل ما يرد فى ملفات فرانكلين وأوراقه الخاصة ، ولكى يجد

حجة يستند إليها فى سفره إلى لندن ، تظاهر بالتجسس على بريطانيا لمصلحة أمريكا ، حتى يطمئن فرانكلين .. ومن ثم فقد كان يعود إلى باريس — من لندن — محملا بأنباء متباينة ذات قيمة ، ولكنها كانت عادة من الأنباء القديمة التى لا سبيل لفرانكلين إلى الإفادة منها . وتوحى الأساليب الدقيقة المدروسة التى كان ينتهجها هذا الجاسوس ، بأن « حرب الاستقلال » الأمريكية كانت خليقة بأن تفقد الشطر الثانى من اسمها — أى تصبح « حربا » دون « استقلال » — لو أن البريطانيين عنوا بأساليبهم العسكرية فى الحرب قدر ما عنوا بتنظيم جاسوسيتهم !

أما فى أمريكا ، فقد كان « جورج واشنطن » — بطل حرب الاستقلال — مشغوفا بدراسة تاريخ فردريك الأكبر ، ومن ثم أدرك قيمة الجواسيس . ولكن تجربته الأولى باءت بفشل أليم ، وإن كان الجاسوس الذى قام بها قد اكتسب مكانة فى تاريخ القومية الأمريكية ، شبيهة بمكانة أبطال الأساطير .

وكان ذلك الجاسوس هو : « ناثان هيل » .. وكان شابا باسلا ، أوفد إلى صفوف القوات البريطانية ليتجسس أنباءها . ولكن الشجاعة ليست عنصرا كافيا لأى جاسوس ، إذ أن الخبرة والمران يفوقان الشجاعة فى هذا المضمار .. ولم يكن « هيل » مدربا ، وإنما كان غرا ساذجا ، فسرعان ما انكشف أمره ، وحوكم وشنق . ومع ذلك فقد أذيعت قصص مثيرة عن شجاعته عند الموت ، وعزى إليه أنه قال انه يأسف لأنه لا يملك سوى حياة واحدة يضحى بها من أجل وطنه . وقد



ردد كثير من الساسة هذه العبارة فى خطبهم ، كما أقيم لناثان هيل تمثال فى نيويورك !

على أن جورج واشنطن ما لبث أن أدرك الا جدوى من الجواسيس الهواة ، ومن ثم أنشأ « قلما » للمخابرات السرية مؤلفا من جواسيس محترفين ، فسجل هذا القلم نجاحا فائقا . كذلك نظم واشنطن هيئة لمقاومة تجسس الأعداء أنباء أمريكا ، وقد استطاعت هذه الهيئة ان تثأر لناثان هيل . وكان أعظم نصر لها يوم ساقت الجاسوس البريطانى الميجر جون أندريه إلى حتفه . ففى أوائل سنة ١٧٨٠ اتصل قائد أمريكى يدعى « بندكت أرنولد » بالبريطانيين ، مبديا استعداده لخيانة الجانب الأمريكى ، وتسليم قلعة ( ويست بوينت ) إليهم ، فأرسلت بريطانيا إليه الميجر جون أندريه ، فى زيه العسكرى ، ومعه علم الهدنة . وفيما كانت المفاوضات وتدبيرات التسليم دائرة ، اضطرت سفينة أندريه إلى التوغل فى نهر هدسن ، هربا من النيران الأمريكية . ولكى يعود أندريه أدراجه — بعد أن فقد سفينته — عمد إلى ارتداء الثياب المدنية ، مخالفا بذلك الأوامر التى كانت صادرة إليه . وإذ ذاك اعتقله الأمريكيون ، وحاكموه على أنه جاسوس ، ونفذوا فيه حكم الإعدام ، وجزع السير هنرى كلينتون — قائد القوات الاستعمارية البريطانية — لأن أندريه كان صديقا شخصيا ، وجاسوسا ، له !

وقد ظل الجدل دائرا حول مشروعية إعدام أندريه لسنوات عديدة بعد الحرب ، فكان ثمة من يرون أنه أعدم ظلما ، لأنه

كان فى مهمة تتعلق بمفاوضات فى ظلال هدنة .. وكان هناك من يرون ان تخليه عن الزى العسكرى ، وارتداءه الثياب المدنية ، يتضمنان مخالفة لشرط جوهرى من شروط المفاوضات العسكرية . على أن حكومته اصرت على انه أعدم ظلما ، وغالت فى إظهار رأيها ، بأن دفنته مع العظماء فى مقابر ( ويستمنستر ) . فكان بذلك الجاسوس الوحيد الذى دفن مع العظماء .

## الجاسوسية فى الحرب الأهلية الأمريكية

وانتهت الحرب ، وأعلن استقلال أمريكا ، فانصرف الأمريكيون إلى شئونهم الداخلية ، واهملوا المخابرات العسكرية إهمالا تاما .. وما حاجتهم إلى التجسس والدولة الناشئة قد آثرت – فى نزوعها إلى التحرر – أن تنأى بجانبها عن كل ما يقحمها فى مشكلات أوربا ؟

ولكن الغيب كان يضمر للأمريكيين وقتا يحتاجون فيه إلى التجسس ، لا على أعدائهم ، وإنما على بعضهم بعضا .. وكان ذلك عندما بدأت الحرب الأهلية الأمريكية . فقد اعترف أحد زعماء الولايات الشمالية – والحسرة تفرى فؤاده – بأن هذه الحرب كان من الممكن تلافيها لو أن الولايات الشمالية أوتيت نفرا من الجواسيس الأكفاء الذين كانوا خليقين بأن يعرفوا أن سكان الجنوب كانوا يتأهبون للاشتباك !

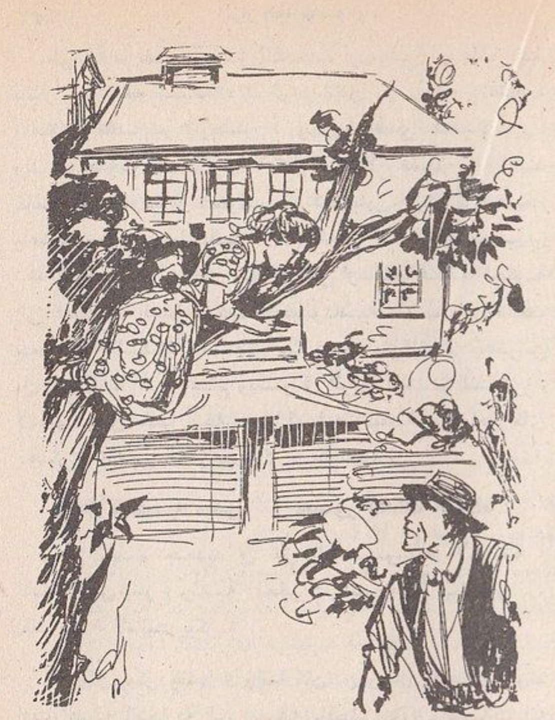
على أن الشماليين بادروا فى مطلع الحرب إلى إنشاء إدارة للمخابرات ، نظمت أدق تنظيم على يدى « الان بينكرثون » ،



الذى كان قبل ذلك من رجال البوليس السرى غير الحكوميين .. ولعله أقرب رجال المباحث شبها بأولئك الذين يرد ذكرهم فى القصص البوليسية الخيالية !

وقد استطاع اثنان من اعوان بينكرثون – هما : تيموثى وبستر ، وهارى ديفز – أن يندسا بين صفوف عصابة من أبناء الجنوب ، كانت تتآمر على قتل « ابراهام لينكولن » ، الذى كان قد انتخب رئيسا للدولة الناشئة وأوشك أن يتقلد المنصب رسميا . وما أن عرف بينكرثون بالمؤامرة ، حتى بادر إلى اتخاذ التدبيرات التى تقى سلامة الرئيس ، فنقله سالما إلى مدينة واشنطن . على أن السلطات اقدمت إذ ذاك على عمل لم يكن ينطوى على روية أو حكمة ، إذ روجت أنباء المؤامرة وفشلها ، فأخذ الرأى العام يسبغ على النبأ من خياله ويحيطه بجو روائى ، مما ألهب الشعور فى الولايات الشمالية، وأقنع ابناء الولايات الجنوبية بأن بلادهم مكتظة بجواسيس من الشمال .. وهى فكرة أثارت ذعرهم وحنقهم برغم بعدها عن الحقيقة !

وبدأت المعركة بين الشمال والجنوب ، فأصبح بينكرثون اول رئيس للمخابرات السرية التابعة للحكومة الاتحادية فى أمريكا . وساعدت دقة البيانات والمعلومات – التى كان يحصل عليها – على سد بعض النقص الذى كان ملموسا فى الاستعدادات الحربية لدى الشماليين . وأخذ جهاز المخابرات السرية فى الاتساع والتشعب ، ولكنه منى بكثير من الفشل ، لأن بينكرثون كان يضطر إلى تجنيد أو تعيين ألوف من



صبية فى الثامنة من عمرها ، جلست بين أغصان شجرة مجاورة للدار ، وراحت تحذر كل الوافدين عليها .



الهواة ، الذين لم يؤتوا ـ برغم تحمسهم ـ من الكفاءة والاستعداد ما يمكنهم من النهوض بأعباء المهام التى كانوا يكلفون بها !.. وكانت طرق هؤلاء الهواة تختلف كل الاختلاف عن طرق مدرسة شولميستر وشتايبر التى كانت تتصف بالكفاءة والتجرد من الرحمة .

ولقد اكتشف بينكرتون يوما أن إحدى السيدات ذات المكانة فى واشنطن تتجسس لحساب الولايات الجنوبية ، فاعتقلها .. وحاول أن يستخدم دارها فخا لاعتقال المتعاونين مع تلك السيدة . ومن ثم كمن مع رجاله فى الدار ليعتقلوا المترددين عليها ، ولكن أحدا لم يفد .. وتبين أن قلم المخابرات السرية هزم على يدى صبية فى الثامنة من عمرها ، جلست بين أغصان شجرة مجاورة للدار ، وراحت تحذر كل الوافدين عليها ، فكانوا يعودون أدراجهم من حيث أتوا !

على أن تيموثى وبستر ـ مساعد بينكرتون ـ حصل بحيلة بارعة على معلومات وافية عن جواسيس الولايات الجنوبية . فقد رسم خطة محبوكة أدت إلى اعتقاله على أنه من جواسيس الجنوب الهاربين من السلطات الشمالية ، وبذلك أتيح له أن يعاشر الجواسيس المعتقلين وأن يجمع معلومات كثيرة عنهم وعن الجنوب . وما لبث أن فر من السجن ورحل إلى الجنوب ، واستطاع بهذا « الماضى » أن يلتحق بخدمة الولايات الجنوبية ، وأن ينفذ إلى الأوساط العليا فيها . وقد اعترف قادة الشمال ـ بعد ذلك ـ بقيمة ودقة البيانات التى أمدهم بها فى هذه المغامرة .

على أنه لم يلبث ــ لسوء الحظ ــ أن مرض . وهنا ارتكب بينكرتون غلطة شنيعة ، إذ أوفد اثنين من رجاله لإنقاذه ، فاعتقلا وأفشيا سر « وبستر » . وكان أن قضى عليه بالإعدام . ولم تبد حكومة الشمال براعة كافية فى علاج قضيته . . فقد كانت سجونها ملأى بالجواسيس الجنوبيين ، ولو أنها هددت باعتبارهم رهائن وإعدامهم ، لاستطاعت ــ فى الغالب ــ أن تنقذ « وبستر » . ولكن المذكرة التى أرسلتها هذه الحكومة إلى السلطات الجنوبية كانت « دبلوماسية » ، نمت عن ضعف جعل هذه السلطات تستهين بها . ولم يثر إعدام جاسوس من الهياج ما أثاره إعدام وبستر فى الرأى العام الشمالى ، لا سيما حين طلب الجاسوس إعدامه رميا بالرصاص كأى عسكرى ، فأبى الجنوبيون إلا أن يشنقوه !

**ينتحل شخصية مصور .. ويصور أهداف الأعداء !**

وبزغ نجم جديد فى أفق الجاسوسية الأمريكية ، استطاع أن ينتزع رئاسة المخابرات السرية من بينكرتون . . ذلك هو « لافاييت بيكر » .

ولم يكن بيكر جنديا ، وإنما كان من رجال الأعمال ، وقد أدت أعماله التجارية إلى اتصاله بالمخابرات ، والثابت أنه عرض بنفسه المساهمة فى هذا المجال الخطير ، فطلب إليه أن يقدم « عينة » مما كان بوسعه القيام به . . وكانت الحرب



ما تزال مشتعلة الأوار بين الشمال والجنوب ، فأخذ بيكر يجوس خلال معسكرات الجنوبيين ، منتحلا شخصية مصور متجول . وكانت آلة التصوير فى ذلك الحين شيئا مستحدثا طريفا ، فكان الجنود ــ بل والقادة ــ يتسابقون للوقوف أمام بيكر كى يلتقط لهم صورا . . وكان من الممكن أن يستمر الجاسوس طويلا فى جولته ، لولا أن آلة التصوير كانت مجرد ستار . . كانت آلة ناقصة العدسات ، ولم يكن بيكر يحمل زجاجا حساسا ، ولا معدات التحميض والطبع . فلما أخذ الذين صورهم يطالبونه بالصور ، اضطر إلى الفرار عائدا إلى خطوط الشماليين ! . . على أنه كان قد التقط عدة صور لأهداف هامة ، فكان جزاؤه أن عين ضابطا فى المخابرات .

وأخذ نجم بيكر فى الصعود بسرعة خاطفة . . كان أقرب الجواسيس الأمريكيين إلى طراز شتايبر ، إذ كان يمضى نحو هدفه دون أن يعجزه أى شىء . وكان يسلك فى سبيل ذلك أساليب لا يستسيغها أحد ، كالنصب والابتزاز . على أنه استطاع أن يمد نظام الجاسوسية الأمريكية ــ الذى كان فى ذلك الحين فجا ــ بالناحية الواقعية التى كانت تعوزه . ومن ثم اتسع نطاق المخابرات السرية عندما تولى رئاستها ، وتحسن مستوى كفاءتها ونشاطها . . ولكنه ارتكب غلطة جسيمة ، إذ أهمل الجانب المقاوم لجاسوسية الأعداء ، فى إدارته ، مما أوقع بأمريكا والعالم خسارة فادحة .

## لينكولن يعارض فى إعدام الجواسيس .. فيقتله جاسوس !

والذى يقـرأ التاريخ العسكرى الأمريكى فى تلك الفترة — فترة الحرب الأهلية — قد يعـانى بعض الارتباك ، لأن الجيشين الشمالى والجنوبى كانا يطلقان على جواسيسهما اسم « الكشافة » أو « الرواد » . على أن الاسم لا ينال من قيمة الأعمال التى قام بها أولئك الجواسيس ، ولا من بسـالتهم ، برغم أن أكثرهم كانوا من الهواة !

وكان ابراهام لينكولن يعـارض فى إعـدام جواسيس الجنوب . وقد وقعت فى أيدى الشماليين يوما جاسـوسة أكرموا وفادتها وأحسنوا معاملتها برغم أنها قتلت جنديا من أبنائهم وهى فى السابعة عشرة من عمرها .. تلك هى « بيل بويد » ، التى استطاعت بجمالها أن تحمل كثيرا من ضـباط الشمال على أن يطمئنوا إليها ، ويتحدثوا دون حرج على مسمع منها ، فجمعت معلومات كثيرة مكنتها من أن تنذر «جاكسون» — قائد الجنوبيين — من هجوم قوى كان الشماليون يدبرونه له !. على أنها لم تلبث أن اعتقلت — نتيجة وقوع أحد رسلها فى أيدى السلطات — وانتهى الأمر بأن سلمت إلى الجنوبيين فى مقابل جاسوس شمالى كان فى قبضـتهم . حتى إذا انتهت الحرب ، تزوجت من ضابط من أبناء الشـمال ، واكتسبت صيتا ذائعا وثروة طائلة بما ألقته من محاضرات وصفت فيهـا مغامراتها !



وكانت تقابلها فى مخابرات الشماليين جاسوسة مشهورة ، هى « اليزابيث فان لو » ، التى اعتمدت على ذكائها أكثر مما اعتمدت على جمالها .. فقد كانت من أسرة جنوبية طيبـة الأعراق ، وكانت لها آراء ضد الرق أثارت الشبهات فى مدى سلامة عقلها ، حتى أطلق عليهـا لقب : « بيث المجنونة » .. فكان هذا خير ستار لها ! .. ولم تكن مغامرة بطبعها ، ولكنها كانت بارعة فى التنظيم والتدبير ، فمكثت فى دارها بريتشموند — عاصمة الجنوبيين — وبسطت شبكة جاسوسيتها لحساب الشماليين ، وكانت تستخدم «شفرة» خاصة لموافاة السلطات الشمالية بتقاريرها ! .. ولم تكن مهمتها عسـيرة — إذ كان مستوى تدابير الأمن فى الجنوب منخفضا — وقد بلغ من دقة خططها أن نظمت وسـيلة لتهـريب الأسرى من الجنـود الشماليين ، على نطاق واسع !

وقد أنفقت الآنسـة « فان لو » ثروتها فى دفع أجـور أعوانها ، فكان الجزاء الوحيد الذى كافأتها به الحكومةالاتحادية - عندما تم لها النصر - أن عينتها مديرة للبريد فى «ريتشموند»! ولكن هذا المنصب لم يعوضها شيئا ، لأن الجنوبيين كانوا قد فطنوا — فى ذلك الحين — إلى الدور الذى قامت به تلك التى حسبوها « مجنونة » .. وزاد من نحسها أن تولت الحـكم وزارة خفضت منصب مديرة بريد « ريتشموند » إلى درجـة كتابية بسيطة ، ثم عزلتها منه فى النهاية .. فماتت فقيرة !

على أن الآنسـة « فان لو » ما كانت لتحرز ما أحرزت من نجاح — برغم دهائها وذكائها — لولا إهمال الهيئة الموكلة

بمقاومة جاسوسية الشمال ، لدى الجنوبيين .. وهو عيب كان الشماليون يعانون منه هم الآخرون . وقد ازداد استفحالا بعد انتهاء الحرب ، لأنهم لم يفطنوا إذ ذاك إلى أن الجنوبيين لم يسلموا لهم فى الحرب إلا قهرا ، وقد ظلوا بعد انتهاء القتال يعارضون الشماليين جهرا وعلانية .. وكان من أعنف أنصار مبدأ انفصال الجنوب عن الشمال ، « جون ويلكس بوث » الذى كان ممثلا وخطيبا مفوها . وقد سد رجال المخابرات الشمالية آذانهم دون ثرثرته ، اعتقادا منهم بأن الرجل الذى يتكلم كثيرا لا يعمل شيئا على الاطلاق . ولكنهم كانوا على خطأ عظيم فى ذلك ، إذ دفعوا حياة « ابراهام لينكولن » ثمنا لغلطتهم هذه ! .. فقد استطاع بوث أن يقتل ابراهام لينكولن أثناء وجوده فى المسرح . وقد حاول بيكر — مدير المخابرات — أن يغطى إهماله بإثارة عاصفة من الهياج ضد القاتل وشركائه !

وهكذا نرى أن الجواسيس الذين مجدهم الأمريكيون — فى تاريخ حرب الاستقلال والحرب الأهلية — لا يشغلون مكانا رفيعا فى سجلات الجاسوسية العالمية !

---



# الفصل الرابع

## قضية دريفوس

كان « الفريد دريفوس » يهوديا .. ولو لم يكن يهوديا لما أصبح محور قضية من قضايا التجسس والدسائس اهتزت لها الجمهورية الفرنسية فى فترة من فترات تاريخها الحديث . ذلك لأن هتلر لم يكن خالق مذهب الاضطهاد العنصرى ، وإنما كان اكثر المؤمنين به تطرفا !

وقد أماط لثام المؤامرة التى اتهم فيها هذا اليهودى ، ضابط من المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، من رجال المخابرات السرية الفرنسية . فقد كان من مهام « بريكيه » — الضابط — أن يراقب الملحق العسكرى الألمانى فى باريس ، لأنه كان من الجواسيس الديبلوماسيين . وكانت أساليب « بريكيه » عادية إلى درجة كبيرة ، إذ كان يرشو المرأة الموكلة بجمع قمامات دار ذلك الألمانى ، فكانت تحمل إليه محتويات سلة الأوراق المهملة .. وهى حيلة عتيقة ، تثمر أحيانا بعض النتائج .

على أن « بريكيه » لم يلبث أن عمد إلى وسيلة ثانية أسفرت عن نجاح أعظم ، إذ راح يبدى هوى عنيفا لزوجة بواب دار الضابط الألمانى ! .. وما أن استجابت له المرأة حتى أصبح فى مقدوره أن يراقب رسائل الضابط . وفى ذات يوم ، طرب « بريكيه » حين وجد بين الرسائل الواردة للألمانى ، خطابا غفلا من التوقيع ، يشير إلى خمس خطط عسكرية كان كاتب الرسالة على استعداد لأن يبيعها للألمان .. وبدا من أول الأمر أن هذه الرسالة كانت خطيرة الشأن ، إذ لم يكن هناك من يعرف شيئا عن تلك الخطط سوى نفر قليل من ضباط أركان

الحرب العامة . ومن ثم بدأت التحريات بين أولئك الضباط ، حتى انحصرت الشبهات فى خمسة ، كان بينهم « دريفوس » اليهودى !

وكان الكابتن « ألفريد دريفوس » من أسرة الزاسية طيبة ، آثرت فى سنة ١٨٧١ أن تكتسب الجنسية الفرنسية . وقد التحق دريفوس بالجيش ، فأبدى مقدرة فائقة . ومع أنه لم يكن محبوبا من رفاقه ، إلا أن أحدا لم يكن يملك أن ينكر عليه ذكاءه وتفوقه الذهنى ، ولهذا عين فى هيئة أركان الحرب ، فكان أول يهودى يبلغ هذه المرتبة السامية فى الجيش الفرنسى . ثم دبرت مؤامرة خطيرة ، فاختير ليكون الضحية ، إذ كان من الأنسب للجيش أن يدان يهودى بالخيانة ، عن أن يدان سليل أسرة فرنسية عريقة . لذلك اتهم بأنه كاتب الرسالة التى عثر عليها « بريكيه » . وأجريت له محاكمة صورية ، وقضى بتجريده من رتبه العسكرية ، وبسجنه مدى الحياة فى ( جزيرة الشيطان ) .

على أن أعداء دريفوس هم الذين افسدوا بأنفسهم المؤامرة التى دبروها ، إذ عمدت صحيفة معادية لليهود إلى نشر وصف زائف للقضية ، وغالت فى ذلك إلى أبعد الحدود .. والدعاية إذا تمادت أكثر مما ينبغى انقلبت إلى عكس ما هو مرغوب منها. وقد أدى إسراف الصحيفة إلى أن انقلبت قضية دريفوس إلى قضية سياسية ، إذ استغلها الراديكاليون التقدميون كسلاح لمهاجمة غرمائهم الرجعيين .

وبعد عدة أشهر من محاكمة دريفوس، تولى رئاسة المخابرات السرية الفرنسية ضابط متوقد الذكاء يدعى الكولونيل بيكار ،



فجاءه جاسوس — ذات يوم — برسالة من سلة مهملات الملحق العسكرى الألمانى ، وقد مزقت إلى قصاصات صغيرة .. وبضم تلك القصاصات — بعضها إلى بعض — تبين أن الرسالة كانت تتضمن مسودة مذكرة موجهة من الضابط الألمانى إلى الميجر « استرهازى » .. وكان ضابطا فى الجيش الفرنسى ، ينحدر من أصل مجرى !

وظن بيكار أنه وقع على قضية شبيهة بقضية دريفوس ، ولكنه دهش حين رفض رؤساؤه المضى فى التحقيق . فلما ألح عملوا على نقله إلى شمال إفريقيا . واستغلت الكتلة المعادية لليهود هذا الحادث فى الدعاية ، وبذلك أشهرت سلاحا رد إلى صدرها . إذ نشرت إحدى الصحف — بتلك المناسبة — صورة للرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها ، ونشرت إلى جوارها رسالة أخرى بخط دريفوس ، لتقنع القراء بتشابه الخط فى الرسالتين .. فاذا القدر يفسد على الصحيفة غرضها ، إذ تعرف صاحب مصرف مالى على خط صاحب الرسالة التى حوكم دريفوس من أجلها .. وكان الخط لأحد عملائه .. وكان ذلك العميل هو « استرهازى » بالذات !

وقدم « استرهازى » للمحاكمة فبرئت ساحته .. ولم تلق العدالة من السخرية ما لقيته فى فرنسا إذ ذاك . على أن القلم انبرى ليثبت مدى سلطانه ، فكتب الكاتب الفرنسى المعروف « اميل زولا » حملته المعروفة : « انى اتهم ! » ، وتولى جورج كليمنسو نشرها ، وإذا فرنسا تنقسم إلى فريقين : فقد انحازت العناصر التقدمية إلى دريفوس ، ووقفت الدولة والكنيسة ضده ، وهما صاحبتا النفوذ والسلطان . وحوكم زولا بدوره

وادين ! وبلغت العنصرية أوج استعارها ، فلم يكن ينقصها سوى إعدام اليهود فى حجرات الغاز ، لتبلغ ما بلغته من مستوى فى عهد هتلر !

ثم وقع حادث غريب : كان بين كبار ضباط المخابرات السرية الفرنسية رجل يدعى الميجر هنرى .. وقد اكتشف هذا الضابط أن الرسالة التى حوكم من أجلها دريفوس ، كتبت على نوع خاص من الورق الأزرق الرفيع ، لم يكن يستخدمه بين ضباط هيئة أركان الحرب الفرنسية سوى « استرهازى » . ولكن هنرى كتم اكتشافه ، لأنه كان متواطئا مع المتآمرين .. على أنه ما لبث أن خلف بيكار فى رئاسة المخابرات السرية ، فأزعجته حملة زولا وكليمنسو ، وزور وثيقة لتعزيز إدانة وزير الحربية إذ ذاك غير الوزير الذى بدأت فى عهده القضية ، دريفوس ، ولكن التزوير لم يكن متقنا . وشاء الحظ أن يكون وزير الحربية إذ ذاك غير الوزير الذى بدأت فى عهده القضية، فاعتقل هنرى .. وإذا به يعترف بالحقيقة ، ثم انتحر فى سجنه ، بينما فر استرهازى إلى انجلترا .

وتجلت الحقيقة .. ومع ذلك فان السلطات رفضت الافراج عن دريفوس ، فثار الرأى العام ، واضطرها إلى إعادة محاكمته . ولكن المسئولين زوروا ضده أوراقا جديدة ، فأدين مرة أخرى . بيد أن رئيس الجمهورية تدخل وأصدر عفوا عنه . وإذ ذاك راح دريفوس يبذل جهودا جبارة لإثبات براءته .

وفى سنة ١٩٠٦ أعيد إلى خدمة الجيش ، كما أعيد الكولونيل بيكار إلى رئاسة المخابرات السرية .. وأسدل الستار على أخطر قضية جاسوسية هزت فرنسا بأسرها مرات عديدة !

---



# الفصل الخامس

## « المرقص رقم ١٣ بالأوبرا ! »

كان الكولونيل « ألفريد ريدل » من الشخصيات المبرزة فى إدارة مقاومة الجاسوسية فى النمسا ، وقد أوتى ذكاء فائقا ونشاطا عارما .. ولكنه كان فى الوقت ذاته خائنا ، يتجسس لحساب الروس ، وقد وقع فى فخ الإدارة التى أنشأها بنفسه !

فقد عين الكولونيل رئيسا لأركان الحرب فى براج — وكانت إذ ذاك تابعة لامبراطورية النمسا والمجر — فتولى معاونه الكابتن "رونج" رئاسة قسم مقاومة الجاسوسية، خلفا له .. وكان له من الكفاءة ما مكنه من أن يعزز النظم الدقيقة التى وضعها ريدل . ثم أضاف إليها — عندما تحرجت الأحوال فى أوربا — نظما جديدة ، كانت هى الأخرى من ابتكار ريدل ، إذ كان قد رسم مشروعاتها ثم أرجأ تنفيذها . وكان من بين هذه النظم فرض رقابة على البريد . وقد أحيطت هذه الرقابة بتكتم شديد ، وقيل لمن تولوها ان الغرض منها هو مراقبة التهريب، ومن ثم كان عليهم أن يوجهوا اهتماما خاصا إلى الرسائل الواردة من مناطق الحدود بالذات .. ولكن أحدا لم يكن يدرى الغرض الحقيقى من هذه الرقابة سوى ثلاثة أشخاص فقط !

وفى شهر مارس سنة ١٩١٣ ، عثرت الرقابة على خطابين يحملان طابع بريد ( أبو تكونين ) — فى بروسيا الشرقية — على مقربة من الحدود الروسية . وكان العنوان المكتوب عليهما

غريبا : « المرقص ١٣ بالأوبرا — شباك إدارة البريد العامة — فيينا » .. ولم يكن فى المظروفين أية رسالة ، وإنما احتوى أحدهما على أوراق مالية قيمتها ثمانية آلاف كرونر ، والآخر على أوراق مثلها قيمتها ستة آلاف . وأعدت إدارة مكافحة الجاسوسية الشرك المعهود ، إذ عمدت إلى مد سلك كهربائى من مكتب الموظف المسئول عن « شباك البريد » ، ينتهى بجرس فى قسم للبوليس مجاور لإدارة البريد . وعين رجلان من البوليس السرى لمراقبة الجرس ليل نهار ، حتى يقبل الشخص المقصود بعبارة « المرقص ١٣ بالأوبرا » ، فيتعمد الموظف تعطيله ريثما يضغط زر الجرس ، فيندفع المخبران إلى إدارة البريد ويعتقلانه » !

وتوالت الأيام دون أن يظهر الرجل ففتر تحمس رجلى البوليس . وفى ٢٤ مايو ، دوى رنين الجرس . وكان أحد الرجلين فى دورة المياه ، والآخر منهمكا فى غسل يديه . فلما بلغا دار البريد كانا قد ضيعا دقيقتين ثمينتين .. ولم يكن فى وسع الموظف المسئول عن « شباك البريد » أن يعرقل الرجل لفترة أطول من ذلك !

واندفع المخبران إلى الباب ، فلمحا سيارة من سيارات الأجرة منطلقة عند ركن من الشارع ، وتلفتا يبحثان عن سيارة يستقلانها ، فلم يجدا . وانقضت عشرون دقيقة وهما فى حيرة ، يفكران فيما سيتعرضان له من نقمة رؤسائهما . وفجأة ، لمحا السيارة التى رأياها من قبل ، وحدسا أن المجهول استقلها ، فسألا السائق عن المكان الذى ذهب إليه .. وكان جوابه انه نقل الرجل إلى مقهى صغير يدعى « كايزرهوف » ، فطلبا



إليه أن يحملهما إلى هناك . وعنيا — أثناء الطريق — بتفتيش السيارة ، فعثرا على قراب من الجلد الرمادى ، من النوع الذى يستخدم لصيانة سكين الجيب — المطواة — وكان من المحتمل أن راكبا آخر ، غير ذلك الرجل « المجهول » ، هو الذى أسقط القراب . ولكنهما احتفظا به لانه كان الأثر الوحيد الذى يعلقان عليه أى أمل !

وكان المقهى خاليا عندما بلغاه .. ولم يتذكر صاحبه شيئا عن الشخص الذى كانا ينشدانه . ولكنهما رأيا موقفا قريبا لسيارات الأجرة ، علما منه أن الرجل الذى كانا يسألان عنه ، قد استقل سيارة إلى فندق « كلومسر » . ومن ثم فانهما سعيا إلى هناك ، وسألا موظف الاستعلامات عن الأشخاص الذين وفدوا على الفندق خلال نصف الساعة الأخير ، فذكر أنهم أربعة . وهنا طلب إليه أكبر المخبرين رتبة أن يسأل عمن فقد منهم قرابا لمطواة .. وفيما هم كذلك ، هبط رجل له قوام عسكرى ، برغم ثيابه المدنية ، فدفع إلى موظف الفندق بمفتاح غرفته .. وإذ ذاك ، قدم إليه الموظف قراب المطواة ، وسأله : « معذرة يا سيدى .. هل سقط هذا منك ؟ » .. فتناول الرجل القراب قائلا : « أجل ، انه لى .. شكرا ! » ، ثم خرج !

تم ذلك فى ثوان معدودات ، ولكنها كانت كافية لأن يعرف المخبران الرجل ، إذ كان رئيسا لهما يوما ما ! ومن ثم أسرع أحدهما إلى التليفون ، فأبلغ رؤساءه أن «المرقص ١٣ بالأوبرا» لم يكن سوى .. الكولونيل ألفريد ريدل ، الرئيس السابق لقسم مقاومة الجاسوسية بالنمسا !

## الموت .. ثمن الخيانة !

وكان للنبأ وقع اذهل الرؤساء .. بل ان فى وسع القارىء ان يتصور انزعاج الكابتن رونج ـ رئيس قسم مقاومة الجاسوسية ـ عندما علم أن رئيسه السابق خائن !.. ومن ثم فقد ذهب بنفسه إلى إدارة البريد ، وبحث عن « الاستمارة » التى كتبها الشخص مقابل تسلم الرسالتين ، ثم قارن الخط الذى كتبت به بالخط الذى وجده فى مذكرة مؤلفة من اربعين صفحة ، كان رئيسه السابق قد كتبها عن مقاومة التجسس . وشد ما كانت دهشته حين تبين ان الخطين كتبتهما يد واحدة !

وفى تلك الأثناء ، كان المخبران يعملان على تعويض ما فاتهما ، فاقتفيا اثر ريدل بعد مبارحته الفندق .. ولكنه ـ وهو الخبير بتعقب الجواسيس ـ لم يغفل أمرهما ، فحاول أن يغرر بهما . غير ان محاولاته اخفقت . ولا بد انه ادرك أن خيانته قد افتضحت ، فأراد ان يشغل المخبرين عنه ليتمكن من الهرب . ومن ثم أخرج من جيبه ورقة مزقها إربا ، والقى بها فى الطريق . ولكن المخبرين كانا من الذكاء بحيث أن أحدهما عاد ليجمع القصاصات ، بينما واصل الآخر تعقبه للجاسوس الكبير !

وضم الكابتن رونج القصاصات التى وافاه بها المخبر ، فوجد انها قطع من ثلاثة ايصالات لرسائل مسجلة وجهت إلى بروكسل ووارسو ولوزان .. وكان رونج يعرف هذه العناوين ، إذ كان قد اكتشف منذ أمد طويل انها مراكز للجاسوسية



الفرنسية والروسية والإيطالية !.. ومن العجب أن الذى اثبتها فى القائمة السوداء ، هو الكولونيل ريدل نفسه ، حين كان رئيسا لقسم مقاومة الجاسوسية !

وحمل الكابتن رونج إلى رئيسه ـ ثم إلى القائد العام ـ هذه التطورات ، وهو مثقل القلب . وفى تلك الأثناء ، كان ريدل قد عاد إلى فندقه ، حيث وجد فى انتظاره صديقا يدعى الدكتور « بولاك » .. وكان محاميا مبرزا ، كثيرا ما تولى الدفاع أمام المحاكم فى قضايا الجاسوسية .

وتناول الصديقان عشاءهما فى الفندق ، فقام بخدمتهما « جرسون » من رجال البوليس السرى . ولم يغب عن «بولاك» ما كان يبدو على صديقه من كرب ، فما زال به حتى زعم ريدل أنه مهموم لأنه كان مصابا بالشذوذ الجنسى ، وهى ظاهرة تسبب تشتت البال ، كما تكبد صاحبها نفقات مالية باهظة !.. على أنه لم يذكر شيئا عن خيانته . وأراد بولاك أن يسرى عنه، فعلل له ما يشعر به بأنه نتيجة الارهاق فى العمل ، واقترح عليه أن يعجل بالعودة إلى ( براج ).. غير أن القائد العام للجيش كان فى تلك الأثناء قد عهد إلى ثلاثة من الضباط بأن يرافقوا رونج إلى الفندق ، وقال لهم إنه يريد أن يعرف «مدى» خيانة ريدل ، وأنه لا بد لهذا الضابط من أن يموت ، دون أن يعرف أحد سر موته !

وعندما صعد الكولونيل ريدل إلى غرفته فى الساعة الثانية عشرة مساء ، عكف على الكتابة، وإذا الضباط الاربعة يقتحمون

الغرفة ، فبادرهم قائلا : « اننى أعرف سبب مجيئكم .. لقد هدمت حياتى بيدى ، وهأنذا أكتب رسائل الوداع ! » . فقال له رونج : « لا بد لنا من معرفة مدى نشاطك ، والفترة التى قضيتها فى خيانة بلادك » .. وكان جوابه : « لسوف تجدون كل شىء فى بيتى ، فى براج . أما الآن ، فأرجو أن يعيرنى أحدكم مسدسه ! » . وإذ ذاك قدم إليه أحدهم مسدسا صامتا، ثم خلفوه وحيدا ، وإن أحكموا الرقابة حتى لا يفر !

وفى الساعة الخامسة صباحا ، أوفدوا احد المخبرين إلى غرفته ، فألفاه ميتا .. وكانت آخر عبارة كتبها ، عبارة مؤثرة أليمة : « لقد قضى على التبذير والشهوة ! صلوا من اجلى ، فانى أدفع حياتى ثمنا لزلاتى » !.. ولم يكن قد مضى على تسلمه الخطابين اكثر من ثلاث عسرة ساعة ، حين كفر عن خيانته وكتب : « هأنذا أموت ! » .

وكانت المصلحة العامة تتطلب إحاطة الحادث كله بكتمان شديد .. ولكن الظروف عملت على عكس ما أرادت السلطات، إذ صاح تابع ريدل ، عندما قيل إن الرجل انتحر : « ولكن هذا ليس مسدس سيدى » .. على انه أمر بالصمت. وصدر بلاغ رسمى جاء فيه أن الكولونيل ريدل أصيب بضيق واكتئاب عصبيين نتيجة الارهاق فى العمل والأرق ، مما دفعه إلى الانتحار !

## الجاسوس المنتحر .. كان يرقص فى كل حانة !

كانت أول صدمة للسلطات ، هى ان ريدل ظل يتجسس لحساب روسيا أكثر من عشر سنوات ، وقد افشى لهم — إلى



جانب ذلك — أسرار النمسويين الذين كانت بلاده تبعث بهم للتجسس على روسيا ، كما وشى بالروس الذين حاولوا ان يبيعوا للحكومة النمسوية أسرارا عسكرية روسية ! .. وقد دلت أوراقه على ان إجرامه وعبثه فاقا كل حد ، مما أزعج القيادة النمسوية العليا ، وحفزها على مواصلة السعى لمعرفة مدى ما بلغته خيانة ريدل . وشد ما كان ذهول المسئولين حين تبينوا ان الرجل باع لعدوهم المنتظر — روسيا — خطة حربية سرية ، كانت تعرف بالخطة « رقم ٣ » .. وكانت من اهم خطط القيادة النمسوية . فقد كانت السلطات الأوربية العليا توجس خيفة من وقوع الحرب ، قبل سنة ١٩١٤ بزمن طويل، وكان من المرتقب أن يقع حادث ما بين النمسا ودولة الصرب الصغيرة ، فتضرب النمسا ضربتها فى البلقان ، وإذ ذاك تتدخل روسيا لحماية الصرب بوصفها دولة سلافية ، فتبادر المانيا إلى مناصرة النمسا .. وكانت النمسا تحسب لكل هذا حسابا ، فأعدت « الخطة رقم ٣ » وضمنتها تفصيلات كاملة عن تجميع القوات ، ووسائل النقل ، ومناطق القتال ، واهداف الهجوم .. وكان كل هذا مرفقا بخرائط وجداول إحصائية دقيقة .

اكتشف الضباط المحققون أن ريدل قد باع لروسيا كل هذا ، وأن الصرب قد أصبحت على دراية بالخطة — عن طريق حليفتها — ومن ثم ادخل القادة النمسويون تعديلات كثيرة عليها ، ولكن المجال كان محدودا ، وكانت هيئة اركان الحرب قد حشدت فى الخطة الأولى أجود أفكارها .

وهكذا غيرت خيانة ريدل سير الحرب كلها .. فان الخطة النمسوية نميت إلى بلغراد — عاصمة الصرب — بالفعل ، فتلقفها المارشال بوتنيك — القائد العام الصربى — وكان محاربا عبقريا ، فدرس الخطة دراسة دقيقة حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب .. وكان عالما نفسيا كذلك ، فقرأ بين السطور والأرقام والخرائط ما كان يدور فى رؤوس قادة العدو من افكار ، واستطاع ان يحدس التعديلات التى يحتمل أن يدخلوها على الخطة .

فعل بوتنيك كل هذا بدقة تدعو إلى العجب ، وأعد قواته اتم إعداد .. وبهت العالم حين راى دولة الصرب الصغيرة تصد هجوم جيوش امبراطورية النمسا والمجر — عندما نشب القتال — وكأنها كانت على دراية بكل حركة عسكرية اعتزمها العدو . وبدلا من أن تبيد النمسا الضخمة دويلة الصرب الصغيرة فى أيام ، أو فى أسابيع قلائل ، امتدت الحملة ثلاثة عشر شهرا .. بل إن الحرب فى هذه الجبهة لم تنته إلا بعد أن وفقت النمسا وحلفاؤها إلى إغراء بلغاريا على دخول الحرب ضد الصرب ، مقابل منحها مساحة كبيرة من الأراضى البلقانية .. وعندما ازداد الموقف حرجا ، طلبت النمسا معونة المانيا ، برغم أن هذا الاستنجاد كان بمثابة ضربة اليمة لكبرياء النمسا ولروحها المعنوية !

وكانت هذه الخيبة حلقة اولى فى سلسلة نتائج وخيمة .. فان العجز المخزى الذى اظهرته النمسا — فى قتالها مع الصرب — كان مثيرا لأعصاب المسئولين إلى حد لايمكن تجاهله ،



مما جعلهم ينقلون قوات من الجبهة المواجهة لروسيا إلى جبهة الصرب ، فقلب ذلك خطتهم الأصلية رأسا على عقب .. ذلك لأن إضعاف القوات النمسوية فى الجبهة الروسية مهد للروس سبيل شن سلسلة من الهجمات العنيفة على ( غاليسيا )، فأوقعوا بالنمسا خسائر فادحة .. ولولا غباء هيئة أركان الحرب الروسية القيصرية ، لكانت المعركة حاسمة فى مصير الحرب !

وكانت هذه هى النتيجة الأولى لخيانة ريدل . اما النتيجة الثانية فكانت اقل شأنا من الأولى ، وإن كبدت النمسا خسارة كبيرة ايضا .. إذ ان روسيا كانت قد بدأت — قبل انتحار ريدل — تعزز قواتها سرا تأهبا للحرب . ولو أن ريدل أبلغ السلطات النمسوية هذه الحقيقة، لتراجع دعاة الحرب فى النمسا عن تحمسهم .. ولكن إخفاءه الأمر جعل اولئك الداعين للحرب يتمادون فى إثارة الرأى العام ، وجعل النمسويين يقدرون استعداد الروس بأقل من حقيقته ، مما انتهى إلى أن دفع عدد كبير من الضباط والجنود النمسويين حياتهم !.. وقد ذكر أحد الثقات أن جاسوسية ريدل كلفت النمسا نصف مليون قتيل وجريح !

وقد امتدت آثار خيانة ريدل إلى الميادين الأخرى طيلة الحرب .. بل إن هذه الخيانة كانت من الاسباب التى أدت إلى انقلاب هذه الحرب إلى حرب عالمية !

# الفصل السادس

## جاسوس ألمانى .. يباشر عمله علنا !

كان ذلك فى أوائل القرن العشرين ، وقد اقتصرت مكافحة الجاسوسية فى بريطانيا على فرع خاص فى « اسكتلنديارد » . كان يفرض رقابة متواصلة على كل من يشتبه فى انه جاسوس ، ويتولى حراسة الشخصيات الكبيرة فى بريطانيا ، والشخصيات الكبيرة التى تزورها من الخارج . على أن هذا الفرع لم ينشأ فى البداية لمقاومة الجاسوسية ، وإنما كانت مهمته مراقبة الأجانب الذين يفدون على إنجلترا كلاجئين ، إذ كانت بينهم نسبة كبيرة من المجرمين السياسيين والفوضويين .

ولقد استنزفت جنازة الملك ادوارد السابع ، فى عام ١٩١٠ ، موارد هذا « القلم الخاص » — كما كان يسمى — إذ اشترك فى تشييعها عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات والشخصيات الكبيرة الموفدة من الدول .. فتولى رجال «القلم الخاص» حراستهم منذ هبوطهم ارض إنجلترا . وقبيل بدء الجنازة، شرع احد المفتشين فى توزيع الحراس، ولكنه استبقى اثنين من المخبرين المشهورين — هما «دروری» و «سیل» — إلى النهاية، فقال لهما ان غليوم — امبراطور ألمانيا — اصطحب فى قدومه عددا من ضباطه ، بينهم ضابط من الأسطول يدعى البارون روستوك ، كان ملحقا بحريا فى إحدى دول أمريكا الجنوبية يوما ما ، وكانت له اصبع فى قضية للجاسوسية . ولهذا فلابد من مراقبته بعناية ودقة .



وانصرف دروری وسيل إلى مراقبة البارون روستوك عن كثب — أثناء الجنازة — فرأياه يعود بعد انتهائها إلى الفندق ، فيرتدى ثيابا مدنية ، ثم يخرج فيستقل سيارة أجرة . واقتفى المخبران أثره فى سيارة اخرى . واجتازت السيارة الأولى شارع ( تشارنج كروس ) ، ثم عرجت إلى شارع ( توتنهام كورت ) ، فالى ( يوستون ) ، ووقفت أخيرا فى شارع ( كالدونيان ) . واستولى على المخبرين فضول عجيب وهما يريان البارون يدخل حانوتين من حوانيت الدرجة الثالثة ، حمل أحدهما لافتة كتب عليها : « ك.ح. ارنست — حلاق » .. وكان أشد ما أدهش المخبرين ، أن ذلك الحلاق لم يكن من مستوى يليق ببارون من حاشية امبراطور ألمانيا !

ورجع دروری وراء البارون إلى الفندق ، بينما انهمك سيل فى القيام ببعض التحريات فى منطقة الحانوت ، فعلم ان أرنست — الحلاق — كان ألمانى الأصل، ولكنه اكتسب الجنسية الإنجليزية . وكان يتجر فى أدوات الحلاقين إلى جانب عمله فى حانوته .. ومن ثم انتقلت المراقبة إلى أرنست ، بعد عودة البارون إلى ألمانيا . وإن هى إلا أيام ، حتى وصل إلى ارنست طرد من شركة ألمانية كانت بين محتوياته نشرات تبين كيفية استخدام أدوات الحلاقة ، وقد دست بينها توجيهات لتجسس أنباء الأسطول البريطانى .

وظهر أن الأمر اخطر مما كان « القلم الخاص » يتصوره ، ومن ثم أحيل الأمر إلى قسم مقاومة الجاسوسية فى مخابرات الجيش ، فتولى القسم مراقبة ارنست ، وسرعان ما تجلى أن

حانوت الحلاق لم يكن سوى « صندوق بريد » ! .. إذ كان رئيس الجاسوسية الألمانية يرسل إليه نسخا من التعليمات — وقد لف فيها صابون الحلاقة والأمواس وما إليها — فيتولى تسليمها إلى الجواسيس المحليين بطريقة مأمونة .. إذ كان يرسلها بالبريد العادى كأية رسالة !

واستطاع المراقبون أن يروا ارنست — فى اليوم التالى لوصول الطرد — وهو يلقى باثنتين وعشرين رسالة فى صناديق البريد ، فعمدوا إلى استخراجها منها ، وبذلك توفر لديهم الدليل القانونى على التجسس .. ولكن إدارة المخابرات السرية لم تحاول اعتقال الجواسيس . فقد حدس المسئولون ان ألمانيا تتاهب لحرب بعد ثلاث أو اربع سنوات — وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ — ومن ثم توقعت إدارة المخابرات ان اعتقال الجواسيس لن يؤدى إلا إلى إنشاء شبكة اخرى للجاسوسية قد لا يكشف سرها قط ! .. ولهذا رؤى مراقبة أولئك الجواسيس وعدم مصادرة رسائلهم ، لتجنب إثارة ارتيابهم أو ارتياب السلطات الألمانية ، حتى إذا حانت الساعة ، اعتقلوا فى الحال ، فتدخل ألمانيا الحرب بغير جواسيس كما يسير الأعمى فى الطريق !

ولقد قال رئيس المخابرات البريطانية — فى ذلك الحين — إنه كان سعيد الحظ .. فقد كان عدد رجاله لا يتجاوز ١٤ فقط ، منهم ٧ ضباط و ٧ من الكتبة .. ولكن الدهاء عوضه عن عدد الرجال ، إذ مكنه من الإفادة من اخطاء كثيرة ارتكبها



الجواسيس الألمان .. منها أن رجلا يدعى « جوستاف شتاينهاور » زار الجواسيس الألمان فى إنجلترا — قبل نشوب الحرب — وكان كثيرا ما يتباهى بأنه كبير جواسيس الامبراطور غليوم ، وإن ظهر بعد الحرب أنه كان مجرد موظف صغير فى إدارة الجاسوسية الألمانية ! وقد ذهب علانية إلى شمال اسكتلندا ليرى بنفسه « إمكانيات » قاعدة الأسطول البريطانى فى ( سكابافلو ) .. واخذ يقيس الأعماق بخيط ، ليتبين مدى استطاعة البوارج الألمانية دخول تلك القاعدة واستخدامها ، مع أنه كان خليقا بأن يحصل على هذه المعلومات لو انه اشترى دليلا على الموانىء والأسطول ، كان يباع بشلنين ! .. والواقع أن شتاينهاور فشل فى كل عمل أتاه كجاسوس ، ولكنه نجح فى شىء واحد ، هو انه لاحظ مراقبة المخابرات البريطانية له!

وفجاة، أسرع شتاينهاور بمغادرة بريطانيا، وتبعه جاسوس آخر . وادركت المخابرات أن الحرب وشيكة الوقوع ، فبادرت باعتقال شبكة الجاسوسية الألمانية باسرها .. وكان الفضل فى تنبيه المخابرات لتلك الزيارة التى قام بها « البارون » لحانوت حلاق !

## الألمان يحطمون جهاز الجاسوسية الفرنسى

وعندما بدات الحرب ، لم يجد الحلفاء صعوبة فى إنشاء هيئة فعالة للجاسوسية خلف خطوط الألمان ، لاسيما بعد أن احتل هؤلاء شمال فرنسا .. ولكن الإهمال [illegible] فى هذا الجهاز ، لأن الجواسيس كانوا من الفرنسيين [illegible] يعملون

فى الأراضى الفرنسية المحتلة ، بين أصدقاء وإخوان .. ولعل العيب كان فى كثرة هؤلاء الجواسيس عما كان ينبغى .

وقد حدث أن ارتابت الإدارة الألمانية المختصة بمقاومة الجاسوسية فى أمر اثنين من هؤلاء الجواسيس ، ولكنها اتبعت عين الأسلوب الذى اتبعته انجلترا إزاء جواسيسها ، فلم تعتقل الجاسوسين ، وإنما اقتصرت على مراقبتهما ومراقبة كل من كانا يتصلان بهم . وبذلك كشف الألمان أسرار جاسوسية الحلفاء — دون أن تفطن قيادتها — وعرفوا أن الحلفاء كانوا يعدون العدة لهجوم كبير قد يحدث خلال عام ١٩١٦ . ومن ثم اتجهت نية القيادة إلى إضعاف الجيش الفرنسى بسلسلة من عمليات الزحف التى تؤيدها قوات كبيرة من المدفعية .

وكانت الدلائل توحى بأن ( فردان ) و ( بلفور ) هما هدف الهجوم ، فأخذ الألمان يتقدمون تارة ويتقهقرون أخرى لتضليل المخابرات الفرنسية . حتى إذا حانت اللحظة التى تأهب فيها الحلفاء للقيام بعملياتهم الحاسمة فى هذا الهجوم . اعتقل الألمان ٦٦ جاسوسا فرنسيا دون أى إنذار سابق ! .. وبهذا تحطم جهاز الجاسوسية الفرنسى .. ولم يفطن القادة الفرنسيون إلى ما كان الألمان يبيتونه ، فانهمكوا فى وضع خطة لهجوم فرنسى ، وشغلوا بذلك حتى فاجأهم الألمان بهجومهم !

ولكن هذه لم تكن خاتمة مأساة التجسس فى معركة ( فردان ) .. إذ أن من المرجح أن الألمان أهملوا هم الآخرون فى تدبيراتهم ، عندما اعتمدوا فى هجومهم على حشد عدد كبير



من المدافع ، وإطلاق كميات هائلة من الذخيرة .. وكان أكبر مستودع لهم على مقربة من ( هرسون ) . وقد لاحظ فلاح فرنسى — يوما — أن الألمان انهمكوا فى إعداد قنابل المدافع وشحنها ، فأبلغ الأمر للقيادة الفرنسية ، التى بادرت بالعمل على تفجير مئات الألوف من هذه القنابل قبل اللحظة الحاسمة بوقت قصير .. وبذلك أفسدت على الألمان هجومهم !

وهكذا نرى أن مجرى المعركة ومصيرها يتوقفان على أمور تافهة — كدقة ملاحظة ذلك الفلاح الفرنسى — ولكن الأنظار غالبا ما تغفل المسئولين الحقيقيين عنها ، فيظلون دائما .. جنودا مجهولين !

# الفصل السابع

## نســاء .. فى الجاسوســية !

إذا قلت إن النســاء ــ بوجه عــام ــ من أقل العنــاصر توفيقا فى ميدان الجاسوسية ، فاننى لا أرمى بهذا إلى الحط من شجاعتهن وذكائهن ، إذ انهن أوتين من هاتين الميزتين ما يكفى لأن يحــذقن التجسس .. فان التجســس فى واقــع الأمر تدريب ومران . وأما الذى أهــدف إليه ، فهو أن الجاسوسة الناجحة ليست كما تصورها القصص والسينما : غانية فاتنة تسبى العقول ، وتستهوى القــادة . وقد كانت الجاسوسات اللواتى استخدمهن الروس فى الحرب العالمية الأولى ــ وحذا حذوهم الألمان فى الحرب العــالمية الثانية ــ أبعد النســاء عن الفتنة والسحر .. كن نسوة فى أوسط العمر ، يجدن رتق جوارب الجنود فى المعسكرات !

ويكفينا فى هذا المجال مثال واحد : امراة كانت تعيش فى ( لشبونة ) فى سنة ١٩٤٠ ، وكانت تزعم أنها إنجليــزية .. وكان لها أبناء يعملون فى البحر ، ففتحت أبواب دارها الصغيرة ــ القريبة من المينــاء ــ لملاحى السفن البريطانيــة ، الذين ارتاحوا إلى كرمها ، وألفوها ، وأصبحوا يسمونها « العمة » ! .. وكان كل ملاح يقصد دارها يثق مقدما أنه سيلقى عنــدها قدحا من الشاى ، وعناية بغسل ثيابه ورتق جواربه !

وفى ذات يوم ، اندفع إلى الدار ملاح ، بادرها متســائلا : « هل غسلت ثيابى يا عمتى ؟ » .. فأجابته فى دهشة : « لا ..



ألم تقل انك ستتركها إلى يوم الأربعاء ؟ » . ولكن البحار قال : « بلى ، ولكنا تلقينا أوامر مفاجئة بالرحيل عندما يحين المد فى هذا المساء ، كى نلحق بقافلة للسفن عند مصب النهر » .. فقالت العمة بأسف : « آه يا عزيزى .. ان ثيابك فى حالة يرثى لها ! ولكن ، إلى اين تذهبون ، حتى أرسل إليك الثياب بعد إعدادها ؟ » .

ــ سنذهب إلى جبل طارق أولا ، وهناك تحدد لنا وجهاتنا .

ــ إذن فسأرسل لك الثياب بعنوان « بيت الملاحين » بجبل طارق .

وبرت « العمة » بوعــدها ، فتلقى الملاح ثيــابه حين بلغ ( جبل طارق ) ســالما .. فقد كان حسن الحظ ، ونجــا من الأحداث التى أصابت القافلة فى الطريق ، بعد إذ علم الألمان بنبئها !.. وأحسبكَ أدركت أن « العمة » الإنجليزية لم تكن سوى جاسوسة ألمانية !

هذا المثال يبين لك حقيقة الجاسوسات الحديثات . ولكن معظم الروائيين والكتاب يفضلون أن يصوروا الجاسوسات فى صور الغوانى الفاتنات . والكاتب الروائى يسعى إلى إثارة قارئه ، وإلى منافســة غيره من الكتاب بالاسراف فى ابتداء المغامرات المثيرة .. وقد اشتدت هــذه المنافسة فى أعقــاب الحرب العالمية الأولى ، حتى ساد الظن بأن القسط الأوفر من القتال ، إنما دار فى الخفاء ، وبين شبكات الجاسوسية ، لا بين أسلحة الجيوش !.. والواقع أن كل هذه المغامرات كانت من



الجاسوسة العالمية .. كانت ترقص عارية ..





وحى الخيال ، إذ انك لا تجد من يروى مغامرات — من الجواسيس الحقيقيين — إلا قلة ضئيلة .. وحتى فى هذه الحال ، تجد أن هؤلاء الجواسيس ليسوا من ذوى الأدوار الرئيسية ، لأن كل جاسوس يعمد — اثناء الحرب — إلى الاستعانة بكثير من الأعوان المحليين ، الذين يكونون غالبا من الهواة ، ولا تقيدهم القوانين العسكرية التى تحرم على الجاسوس المحترف أن يسرف فى الكلام .. وغالبا ما يجد الناشر أن من مصلحته التجارية أن يضيف إلى ما يكتبه هؤلاء الهواة قسطا من المبالغة والإغراق فى الخيال .. بل والكذب !

ومن هنا نستطيع ان ندرك سر رواج القصص التى اذيعت عن جاسوسة كان اسمها يوما على كل لسان .. وهى « ماتا هارى » !

## الجاسوسة العالمية .. كانت ترقص عارية !

كان اسمها الأصلى « مرجريت تسيليه » ، وكانت هولندية قدر لها أن تتزوج من ضابط هولندى — يدعى « مكلويد » — من ضباط المستعمرات ، كان ينحدر من أصل اسكتلندى ، وكان وحشا ضاريا فى معاملته لها ، مما اضطرها إلى الفرار منه .. وكانت قد قضت الشطر الأكبر من الفترة التى قضتها مع زوجها ، فى ( جاوة ) ، حيث حذقت الرقص الوطنى . ومن ثم فانها — عندما اضطرت إلى كسب عيشها ، وهى تقترب من سن الأربعين — لم تجد خيرا من أن تحترف

الرقص ، وأن تبتكر لنفسها رقصات مقتبسة عن رقصات بنات ( جاوة ) ، كما اتخذت اسما من أسماء بنات ( الملايو ) ، هو « ماتا هارى » ، أى « عين الصباح » !

وسرعان ما نجحت ماتا هارى ، لا لأن جمالها كان خلابا ، ولكن لأن جسمها كان مثيرا لغرائز الرجال ، وكانت تفتن فى إظهار مفاتنه ، حتى أنها كانت ترقص أحيانا شبه عارية .. بل وعارية ! .. وزادها شهرة أنها لم تكن تصد أحدا من المعجبين، طالما كانوا أغنياء . ومن ثم فانها سرعان ما أصبحت شعلة الإثارة فى عواصم أوربا الغربية ، وكان يتبعها أينما ذهبت موكب من العشاق والمعجبين يشمل رجالا من أرقى الأوساط والمناصب ، بينهم نفر من كبار ضباط الجيش الألمانى .. وهو ما اتخذ دليلا ضدها فيما بعد .

ومن الصحيح أن اسم ماتا هارى وضع فى القوائم السوداء! كجاسوسة ألمانية ، ولكنها فى الواقع لم تكسب ــ باسم الجاسوسية ــ سوى النذر اليسير من الأموال الطائلة التى تدفقت عليها .. إذ أن الأموال التى سجلها الضباط الألمان على أنها مكافآت لها عن خدمات جاسوسية ، لم تكن فى الغالب سوى مكافآت عن الأوقات الممتعة التى قضوها فى أحضانها !

ولو أن ماتا هارى كانت جاسوسة حاذقة مدربة ، لوجدت أمامها فرصا لا حد لها ، إذ كانت تعرف كثيرا من المسئولين الذين لا يملكون كبح ألسنتهم فى رفقتها .. ولكن كانت قليلة الخبرة ، محدودة الذكاء ، لم تستطع الإفادة من المعلومات التى كانت تصل إليها .. ولم تنجح فى شىء قدر ما نجحت فى إثارة



الشبهات حولها ، وهى ما تزال فى مرحلة مبكرة من « عملياتها » فى فرنسا . ولم ينقذها من الاعتقال سوى حماية أصدقائها من ذوى المراكز العليا . ولكن السلطات الفرنسية لم تلبث أن قررت الخلاص منها، بإقصائها عن فرنسا. فما كان من الغانية إلا أن عرضت على السلطات الفرنسية أن تتجسس لها على الألمان .. وقالت إن الجنرال « فون بيسينج » ــ حاكم بلجيكا البغيض ــ كان من عشاقها ، ومن ثم ففى وسعها أن تظفر منه بمعلومات .. كما ذكرت أسماء رجال أعلى منه مقاما !

وأوقعها الحظ بين يدى ضابط فرنسى أكثر منها دهاء ، فتظاهر بقبول عرضها ، وأوفدها إلى بلجيكا بعد أن زودها بأسماء ستة من الجواسيس كى تفضى إليهم بما تحصل عليه من معلومات . وكان الستة الذين اختارهم ، من الشخصيات التى كانت السلطات الفرنسية توقن من أنهم يعملون لحساب ألمانيا ! .. ووقعت ماتا هارى فى الفخ ، إذ أنها لم تكد تصل إلى منطقة الاحتلال الألمانية ، حتى أفضت للألمان بأسماء الجواسيس الستة .. وإذا خمسة منهم جواسيس لألمانيا ، فى حين أن السادس كان جاسوسا لبريطانيا !

وكانت هذه هى الخطوة ــ أو العملية ــ الإيجابية الوحيدة التى قامت بها ماتا هارى .. ولقد سافرت إلى إنجلترا بعد ذلك ، فاعتقلت هناك ، وإذا بها تعترف بأنها جاسوسة فعلا، ولكن .. لحساب فرنسا ! .. وكان تجسس دول الحلفاء ــ بعضها على بعض ــ أمرا مسلما به ، كما كانت هذه الدول مضطرة إلى تبادل المجاملات ، ومن ثم أطلقت السلطات

البريطانية سراح الغانية ، لتعود إلى فرنسا عن طريق أسبانيا، وفى هذه الدولة، دفع لها الملحقان البحرى والعسكرى الألمانيان مبلغا كبيرا من المال ، « لقاء خدمات أدتها » ، ولكن شيئا عن ماهية هذه الخدمات لم يذكر . وما أن وصلت إلى فرنسا ، حتى كان الفرنسيون قد جمعوا أدلة كافية على اتصالها بالألمان ، فحوكمت وأعدمت ، برغم دفاعها عن نفسها، وتأكيدها أن الأموال التى تقاضتها من الضباط الألمان ، كانت فى مقابل ما باعتهم إياه من حب !

ولقد أثارت قضيتها ضجة كبيرة ، وأزمات سياسية ، لاسيما حين قالت فى اعترافاتها إن وزيرا فرنسيا يدعى « م » كان من المعجبين بها ، فاستغل الجيش هذا الاعتراف لإقصاء وزير يدعى « مالفى » عن الحكم .. ثم ظهر — بعد الحرب العالمية الأولى — أنها كانت تقصد الجنرال « ميسيمى » ، الذى كان وزيرا للحربية الفرنسية فى سنة ١٩١٤ !.. ومع أن الحكومة الفرنسية ردت إلى « مالفى » اعتباره ، إلا أن الوصمة ظلت عالقة به طيلة حياته !

على أن أعجب ما أثير حول هذا الفصل من فصول الجاسوسية ، تمثل فى الشائعات التى روجت بعد إعدام ماتا هارى .. ومنها أن أحد عشاقها قدم رشوة للجنود الذين كلفوا بإعدامها، فحشوا بنادقهم بالخرطوش الفارغ بدلا من الرصاص، وبذلك نجت من الموت !.. ولكنها فى الواقع ماتت بالفعل !

والرأى المجمع عليه ، هو أن ماتا هارى كانت شخصية غير



عادية ، ولكنها لم تكن ذات كفاءة جاسوسية .. إذن ، ففيم كانت الضجة التى أثيرت حولها ؟.. الواقع أن هذه الضجة كانت وليدة الدعاية وخيال الروائيين .. ليس إلا !

وإذا أخذنا ماتا هارى دليلا على ما قلته من أن النساء من أقل العناصر توفيقا فى ميدان الجاسوسية ، فان الانصاف يحملنى على أن أذكر امرأة كانت جاسوسة من الدرجة الأولى، برغم أنها كانت هاوية !

## بائعة « الدانتيلا » .. وآكلة السجق !

ففى الأسابيع الأولى من الحرب العالمية الأولى ، تدفق على إنجلترا آلاف من اللاجئين البلجيكيين والفرنسيين .. وكانت بينهم شابة فرنسية تشتغل بالتدريس فى مدينة ( ليل ). وقد استرعت انتباه ضباط المخابرات البريطانية ، إذ كانت المعلومات التى قدمتها — عندما سئلت فور وصولها — واضحة، وكان ذكاؤها ملحوظا ، كما كانت تتكلم الألمانية بطلاقة .. ومن ثم أومض فى بال أحدهم خاطر مثير ، فعرض عليها أن تعود إلى فرنسا .. كجاسوسة بريطانية !

وما لبثت « لويز دى بتينيى » — المعلمة — أن تلاشت من الدنيا ، لتظهر بدلا منها ، فى فرنسا ، سيدة شابة تبيع « الدانتيلا » والخردوات ، وتدعى «اليسو ديبوا» !.. وكانت فرنسا تحت الاحتلال الألمانى إذ ذاك ، فسرعان ما أخذت الجاسوسة الشابة تنتقى أعوانا لها فى دقة وحرص : فاختارت كيميائيا قام بمهمة الخبير فى ابتكار المداد الخفى وتزوير الوثائق

للشبكة .. واختارت فنيا من رجال الطباعة ابتكر لها اسلوبا للاختزال والشفرة ، حتى أنه كتب تقريرا من ١٦٠٠ كلمة فى ظهر طابع بريد ، مستعينا بعدسة مكبرة !.. على أن انشط أعوانها كانت فتاة تدعى الآنسة « مارى ليونى — فانلوت » ، وتتسمى باسم « شارلوت » .. وظلت الاثنتان خمســـة عشر شهرا تستغفلان الألمان ، وترسلان ما يوافيهما به الأعوان من معلومات إلى هولندا ، حيث كان جواسيس بريطانيا يتلقونها. وكانتا تبتكران وسائل لنقل تقاريرهما تنم عن ذكاء خارق : فكانتا ترسلانها أحيانا مع صبية صغار ، أو تدسانها فى ساق خشبية لشيخ أعرج .. بل ان « شارلوت » دست تقريرا فى قطعة من « السجق » — ذات مرة — فلما استوقفها جندى ألمانى ليفتشها ، عرضت عليه قطعة الســجق ليأخـذ منها « قضمة » !

.. كانت هذه جاسوسية من نوع بسيط متواضع ، ولكنه كان عظيم القيمة . وقد فعلت يقظة الفتاتين وذكاؤهما ، فى يوم واحـد ، ما لم تفعله ماتا هارى فى حياتها كلها ! .. وقد قدر للفتاتين أن تقعا فى أيدى الســلطات الألمانية ، ولـكنها لم تعدمهما ، لأن إقدامها على إعدام المرضـــة « اديث كافيـــل » قبلهما ، أثار عليهـــا ثائرة الرأى العـــام .. ومن ثم اكتفت بسجنهما ، فعاشت « شارلوت » إلى نهاية الحـــرب ، حين استردت حريتها ، وحظيت بأوسمة كثيرة ! أما « لويز » فقد ماتت فى سجنها قبيل الهدنة . فلما وضعت الحرب أوزارها ، شيع جثمانها مرة أخرى ، فى احتفال رسمى ، ونقل إلى موطنها



الأصلى بمدينة ( ليل ) ، وخلد اسمها بين الجواسيس القلائل الذين سجل التاريخ سيرهم !

**« السيدة الطبيبة » .. التى كانت تعلم فن الجاسوسية !**

وإذا اعتبرنا « شارلوت » و « لويز » مثالين للجاسوسات الناجحات ، فان كل الناجحات — مثلهما — لم يكن من الشابات ، بل إن من المســـنات من وفقن إلى تخليـــد ذكرهن فى تاريخ الجاسوسية .. وهذه واحدة تعتبر مثالا لهؤلاء المسنات .

ففى الأيام الأخيرة من الحـــرب العالمية الأولى ، ذاع صيت جاسوسة أطلق عليها لقب « السيدة الطبيبة » ، حتى طغت شهرتها على شهرة ماتا هارى فى ميدان التجسس النسوى .. على أن المقارنة بين المرأتين لا تنطوى على شىء من الانصاف ، فقد كانت « السيدة الطبيبة » بارعة ، حاذقة فى أداء مهمتها ، بقدر ما كانت ماتا هارى عاجـــزة !.. إلا أن الروايات التى تناقلها الناس عنها كانت خيالية ، تنأى عن الحقيقة .. بل إنها كانت تنطـــوى على كثير من التناقض ، لا ســـيما فيما يتعلق بنهايتها : فقد قال أحد المؤرخين إن الروس شنقوها فى بروسيا الشرقية .. وقال آخر إن الألمان اعدموها فى بروسيا الغربية .. وقال ثالث انها ماتت كسيرة القلب فى ساعة من ساعات اليأس .. وزعم رابع أنها ما تزال على قيد الحياة ، وأنهـــا تعيش فى سويسرا ، وقد انصرفت إلى تعاطى المواد المخدرة .. وكل هذه — فى الواقع — روايات مختلفة !

كذلك اختلف الرواة فى وصفها ، فقال بعضهم إنها أوتيت عينين متقدتين رهيبتين ، تنفذان إلى أعماق النفوس ، وكان

أعجب ما فى قصتها ، أن أكثر من اثنتى عشرة سيدة تنافسن فى انتحال شخصيتها بعد الحرب !.. وربما كانت بينهن جاسوسات بالفعل ، ولكن أيا منهن لم تكن « السيدة الطبيبة » !

ويقول المؤرخون إن اسمها الحقيقى هو « إن مارى ليسر »، وأن حبيبها مات فى مغامرة من مغامرات الجاسوسية ، فخلفته فى مهمته .. ثم ظهر أن هذا القول ينطبق على تلميذة من تلميذات « السيدة الطبيبة » .. أما هذه ، فكانت فى الواقع سيدة من أب ألمانى وأم هولندية ، وكانت تدعى « سكراجميلر » .. وقد تعلمت — فى صغرها — فى مدرسة داخلية بالقرب من ( ارنهيم ) ، ثم انتقل أبوها إلى ( مينستر ) فالتحقت بجامعتها، حيث أبدت تفوقا فى الدراسة ، لا سيما فى إجادة اللغات ، مما رشحها — عندما نشبت الحرب العالمية الأولى — لأن تعين فى الرقابة الألمانية .. وكانت إذ ذاك — كما يؤكد الرواة — فى الخمسين من عمرها .. أى انها لم تكن شابة حسناء ذات عينين ثاقبتين جذابتين !

ولم تلبث « سكراجميلر » أن نقلت من الرقابة إلى التجسس .. لا كجاسوسة، وإنما كمعلمة للجواسيس فى مدرسة أنشأتها فى ( انفرس ) ببلجيكا ! وقد اثنى عليها الكولونيل نيقولاى — رئيس المخابرات السرية الألمانية — فى ذلك الحين ، ثناء طيبا . وكان طلابها يتكتمون أسماءهم ، فلا يعرف أحد منهم إلا برقم معين يطلق عليه ، كذلك لم يكن اى منهم يعرف رفاقه ، حتى لا يفشى سرهم يوما ! .. وكان التدريب فى تلك المدرسة



دقيقا إلى أقصى درجة .. وكان من التعليمات التى تلقنها « السيدة الطبيبة » للطلبة : أن يخفوا درايتهم باللغات حتى يطمئن الناس إلى الحديث أمامهم دون تحفظ ، وأن يتجنبوا الحديث والكتابة باللغة الألمانية إذا ما كانوا فى مهمة بالخارج .. وكانت تحذر الطلبة كذلك من تسجيل شىء على الورق ، لأن إحراق الورق لا يخفى ما به ، بل إن الفحص الميكروسكوبى يكشف احيانا عن الكتابة التى قد توجد بالورق المحروق !.. كما أن تمزيق الورق وإلقاءه فى أماكن متباعدة لا يقضى على ما فيه من معلومات .. ولهذا فان الاعتماد على الذاكرة هو خير الطرق !

على أن مدرسة « السيدة الطبيبة » لم تلق النجاح الذى كان من الميسور أن تبلغه . وكان ذلك راجعا إلى أن القواعد التى وضعتها السيدة كانت جافة ، غير مرنة .. كانت نظرية أكثر منها عملية . وكانت السيدة لا تعامل كل طالب على حدة ، وفقا لاستعداده ومواهبه وميوله .. وهو اسلوب فى التعليم لا يؤدى — إذا طبق فى الجاسوسية — إلا إلى الدمار !

### لغة طوابع البريد .. فى الجاسوسية !

وقد حدث — عندما بلغت الحرب الأولى ذروتها ، فى سنة ١٩١٥ — ان هبط فى ميناء ( تلبورى ) بهولندا ، مسافر يدعى « جوزيف ماركس » .. وعثر رجال الجمارك فى أمتعته على مجموعة من طوابع البريد ، فاذا بالرجل يبادر قائلا إنه يريد أن يسلم نفسه ، وهو مغتبط لنجاته من « تلك المرأة الرهيبة» !

إذن ، فقد كان الرجل جاسوسا ! وبدا لأول وهلة ان

الخطة التى رسمت له للاتصال بغيره من الجواسيس ، تنم عن مهارة فائقة ، إذ كان عليه أن يرسل إلى «صديق» فى (روتردام) عددا من الطوابع تمثل ما يبغى تبليغه من بيانات .. فاذا أراد ان يذكر عدد ما لدى بريطانيا من « بوارج » ، أرسل طوابع « أوربية » بهذا العدد .. وتمثل الطوابع « الإفريقية » طرادات القتال ، اما طوابع « امريكا الجنوبية » فتمثل الطرادات الثقيلة ، فى حين أن الطوابع « الأسترالية » ترمز إلى الطرادات الخفيفة ، وطوابع « أمريكا الشمالية » ترمز إلى المدمرات ، وطوابع آسيا ترمز إلى السفن الحربية الصغيرة .. فاذا تلقى جاسوس فى ( روتردام ) مثلا ، طابعين فرنسيين وأربعة أسترالية وسبعة كندية وعشرة هندية فى مظروف يحمل خاتم ميناء ( بلايموث ) ، كان معنى ذلك أن فى هـذه الميناء ، فى التاريخ الذى يسجله خاتم البريد ، بارجتين ، وأربع طـرادات خفيفة ، وسبع مدمرات ، وعشر سفن حربية صغيرة !

وشاء نحس ماركس أن تكون هذه الطريقة معروفة ، إذ سبق أن اتبعت من قبل . وكان من الغريب حقا أن تغفل « السيدة الطبيبة » درسا سبق للتـاريخ أن القاه على القائمين بأعمال الجاسوسية والمخابرات . وكانت هذه هى الغلطة الأولى . أما الغلطة الثانية ، فلم يكن للسيدة ذنب فيها ، وإنما كانت تبعتها واقعة على السلطات الألمانية ذاتها .. إذ أن ألمانيا كانت تحتل بلجيكا فى تلك الآونة ، فكان من الحماقة أن تؤسس مدرسة فى بلد أصبح الحلفاء يعتبرونه « أرضا معادية » ، يرتابون فى كل من يفد منها !



وفضلا عن ذلك ، فان البلجيكيين الكارهين لوجود الألمان فى بلادهم ، كانوا قد ارتابوا فى تلك الدار المحوطة بالغموض .. دار مدرسة الجاسوسية التى أقيمت فى ( انفرس ) ، ولذلك أخذت منظمات الهواة ــ التى كانت منتشرة فى البلاد لمقاومة الاحتلال والخونة ــ فى مراقبتها ليل نهار ، وفى ملاحظة أوصاف كل من يدخلها أو يغادرها ، بل وفى تصوير المترددين عليها ما أمكن ذلك . وكانت هذه البيانات تصل إلى اقلام مخابرات الحلفاء ، خلال شبكات الجاسوسية ، فأصبحت سلطات الأمن فى فرنسا وبريطانيا ترتقب باستمرار ، وفى يقظة تامة ، أن يتسلل خريجو تلك المدرسة إلى بلادها !

## يظن صديقته غبية .. وهى تتجسس عليه !

بقى أن نضرب مثالا للجاسوسية « الجميلة » بكل ما فى هاتين الكلمتين من معان . وخير مثال لها هى « مارث ريشار » .. وكانت فرنسية ، قتل زوجهـا أثناء الحـرب ــ فى سنة ١٩١٤ ــ فاذا حبها المشبوب له ، يولد فى نفسها حب الثأر ، ويذكى لديهـا الدهاء والجـراة . ومن ثم تطوعت للعمل فى المخابرات السرية ، فأوفدت إلى اسـبانيا ، حيث استطاعت بحسنها الخلاب أن تسلب الملحق البحرى الألمانى لبه !

وظفرت « مارث » بنجاح كبير . وكانت تزعم أنها من اهل اللورين ، ومن أصل ألمانى تعتز به . وساعدها فى ذلك أنها كانت تتحدث الألمانية بطـلاقة تامة . وإذ أصبحت خليلة للملحق البحرى الألمانى ، باتت أسراره وأسرار دولته فى متناول يدها .. لا سـيما حين خيل للرجـل أن بوسعه أن يستغلها فى التجسس لمصلحة ألمانيا ، فقبلت متحمسة ، رغبة منها فى أن

تزداد تعمقا فى الأسرار الألمانية . وقد أبلغت ذلك إلى مركز مقاومة الجاسوسية — التابع لقيادة الحلفاء — فى باريس ، وسألت المشرفين عليه أن يمدوها بمعلومات تطمئن الملحق البحرى الألمانى إلى إخلاصها له . ومن ثم فانهم أخذوا يمدونها — بين حين وآخر — بوثائق لا تؤدى إذاعتها إلى الاضرار بمصلحتهم العليا .. ومكنها ذلك من أن تستخلص من عشيقها الألمانى أسرارا خطيرة أدت إلى إغراق أكثر من غواصه ألمانية !

وهكذا كانت « مارث » تتجسس لمصلحة الحلفاء ، وتتقاضى أجرها من الملحق البحرى الألمانى !.. ولا يدرى أحد ما جرى لهذه المرأة البارعة — بعد الحرب — ولكن المهم فى أمرها أنها ساعدت على تحطيم الأسطول الألمانى ، وعلى هزيمة ألمانيا ، فانتقمت لزوجها !

على أن الجنس اللطيف لا يفيد فى الجاسوسية بقدر ما يفيد فى مقاومتها ، وكشف الستار عن جواسيس الأعداء . ومن الأمثلة التى تذكر فى هذا الصدد ، حادث وقع فى سنة ١٩٣٨ وأثار انتباه العالم ، إذ وقع ثلاثة من عمال المصانع الحربية فى ( وولويتش ) — بانجلترا — تحت إغـراء جواسيس دولة أجنبية ، وكانت لأحدهم صديقة تبدو — برغم جمالها — غبية ، حتى أنه لم يكن يرى حرجا فى أن يلتقط صور ما كان يحمله إلى داره من رسوم وخطط ، فى حضورها .. وشد ما كانت دهشته عندما قدم إلى المحاكمة — بعد اعتقاله — فاذا به يتبين أن الحسناء كانت من جاسـوسـات الهيئـة الموكلة بمقـاومة الجاسوسية الأجنبية .. وأنها لم تكن غبية كما خالها !

---



# الفصل الثامن

## « رقيب » .. يغير مجرى التاريخ !

من الطبيعى أن يظفر الجواسيس بقسط من الشهرة فوق ما يحصل عليه العاملون فى مقاومة الجاسوسية . ذلك لأن هذه المقاومة تعتمد على التنظيم أكثر مما تعتمد على الفرد ذاته ، وإن كانت نتائجها لا تقل قيمة وخطورة عن نتائج أعمال الجواسيس. وليس أدل على ذلك من أن رقيبا فى البحـرية البريطانية ، استطاع يوما أن يغير مجرى التاريخ ! .. فما أن قامت الحرب العالمية الأولى ، حتى أنشأت وزارة البحرية البريطانية إدارة للرقابة ، كانت دقيقة النظم ، فعالة فى نشـاطها ، موفقة فى عملها !

وحدث فى الأسابيع الأولى من الحرب ، أن أغرق الطراد الألمانى « مجدبورج » فى مياه بحر البلطيق ، وألقت الأمواج جثث بحارته على الساحل الروسى ، فاذا بينها جثة ضـابط — من ضباط الصف — تيبست ذراعاه على كتاب ذى غلاف حديدى ، يتضمن « الشفرة » التى كان الطراد يستخدمها فى رسائله .. وقد وضع فى ذلك الغلاف ليغوص فى قاع البحر عند الخطر . وكان من الجلى أن الضابط كان يهم بإلقائه فى البحر عندما وافته المنية .

وأبلغ الروس بريطانيا بالأمـر ، إذ كانت فى تلك الفترة صديقة لهم . وسرعان ما أوفد تشرشل طرادا إلى (اركانجل) ليحضر ذلك الكتاب .. فقد كان جديرا بكل عناية ، نظرا لما

كان يتضمنه من أضواء تكشف غوامض الشفرة السرية للأسطول الألمانى .. ومع أن الشفرة قد تتغير من حين لآخر ، إلا أن أية صيغة لها خليقة بأن تساعد الباحث على الوصول إلى أسرارها .. ولم تقنع البحرية البريطانية بذلك ، بل إنها كلفت غواصا يدعى « ميلر » بالهبوط إلى قاع البحر ليفحص حطام غواصة ألمانية كانت غارقة قرب ساحل (كنت) بانجلترا ، سعيا وراء مزيد من أسرار البحرية الألمانية . وكانت الأسماك الكبيرة تحاصر موقع الغواصة لتنهش جثث الغرقى ، ولكن « ميلر » استطاع ـ بعد لأى ـ أن يشق لنفسه طريقا إلى غرفة القائد، حيث عثر على صندوق معدنى بدا أن القائد لم يجد فرصة لإفراغ محتوياته بعيدا عن المقر الأخير لغواصته !

وعند فتح الصندوق ، ظهر أنه يضم خططا ومشروعات هامة عن حقول الألغام ، فأرسلت هذه الوثائق إلى وزارة البحرية فى الحال ، وهناك أقبل عليها الرقباء البحريون ، واستخلصوا منها أسرارا خطيرة . وكان من جراء ذلك ، أن اتخذ « ميلر » نواة لمنظمة أحيطت بسرية تامة ، ومنحت سلطات عليا .. وكانت هذه المنظمة تندفع إلى مواقع غرق الغواصات الألمانية ـ بمجرد غرقها ـ لتفحصها ، فخرجت من ذلك بكثير من مفاتيح الشفرة، ومواطن الألغام والمشروعات . وبهذه الطريقة ، كان الرقباء البحريون الإنجليز ، على دراية مستمرة بكل التغييرات التى كانت تدخل على الشفرات الألمانية !



## خطر الجاسوسية .. فى الحرب البحرية !

ولقد تحدثت عن أثر الخيال فى تصوير أعمال ماتا هارى .. وهناك مثال آخر ، فقد كثرت القصص الخيالية عن «الحجرة رقم ٤٠ ـ أو ٠ بى ٠ » ، وزعم مؤلف أنها فى « اسكتلنديارد » ، بينما ادعى آخر أنها فى وزارة الحربية البريطانية ، وقال آخرون إنها فى المركز الرئيسى للجاسوسية، بل إن بعضهم ذهب إلى أنها فى مقر رئاسة الوزارة ، فى رقم ١٠ « دونينج ستريت » ..

والواقع أن « الحجرة رقم ٤٠» كانت فى المبنى القديم لوزارة البحرية البريطانية ، وكانت مقر « الرقباء البحريين » ! .. وتدين هذه المنظمة بوجودها إلى مدير المخابرات السرية البحرية فى انجلترا ، فى بداية الحرب العالمية الأولى ، وكان إذ ذاك الكابتن « رجنالد هول » .. وقد أصبح أميرالا فيما بعد. وقد عجم « هول » عيدان رفاقه وأعوانه ، بحثا عن أصلح رجل لتولى هذه الإدارة الجديدة .. وفى لمحة من لمحات الإلهام ، تذكر « هول » رجلا يدعى « الفريد أبوينج » كان يتولى إدارة التعليم البحرى إذ ذاك .. وكان عالما أوتى عبقرية فذة فى معالجة كل ما يتعلق بالشفرات السرية ، واتخذ من دراستها هواية له منذ أمد بعيد . ومن ثم أقبل على عمله الجديد بأقصى ما كان لديه من نشاط ، متعاونا مع الأساتذة الذين عينوا لمساعدته .. وكان لبعضهم « أنف » عجيب يحذق تشمم أسرار شفرات الألمان وحلفائهم !.. وكان الأساس الذى اتخذه هؤلاء الخبراء لعملهم،

يتمثل فى تلك الكتب التى عثر عليها ميلر وزملاؤه ، ولذلك لم تعد تستعصى عليهم شفرة ألمانية !

ولم تكن فى أية وزارة بحرية أخرى إدارة مطلعة اطلاع رجال « الحجرة رقم ٤٠ » ، فكانوا يلتقطون كل رسالة لاسلكية تذيعها البحرية الألمانية ويفكون رموزها ، مما أدى إلى تغييب عدد كبير من الغواصات الألمانية فى قيعان البحار والمحيطـــات ، وإلى اعتقال عدد كبير أيضا من الجواسيس الألمان . وكانت هذه الحجرة هى التى حذرت الحلفاء قبل الهجوم الألمـــانى على ( فردان ) بثلاثة أسابيع .. كما أنها هى التى اكتشفت خطة إنزال السير « روجر كيسمنت » إلى ايرلندا لإشعال ثورة قومية هناك أثناء الحرب(١) .. وكانت أغرب مغامراتها نجاحها فى أن تدس جاسوسا لها فى وزارة البحرية الألمانية ، بعد أن زودته بنسخة من الشفرة السرية الألمانية ، ليستخدمها فى تضليل سفن وغواصات أسطول غليوم الثانى !

ولقد انتهت أول معركة بحرية فى الحـــرب ، بين انجلترا وألمانيا ، بهزيمة للأولى ، إذ التقى الأميرال « فون شبى » بقطع من الأسطول البريطانى على مقربة من ( كورونيل ) فدمرها . وفى الحال قررت البحرية البريطانية أن توجه إلى الأسطول الألمانى ردا قاسيا ، فاصدرت أمرا إلى أسطول قوى ، يضم بين قطعه طرادتين للقتال ، بالإبحار من البحر الأبيض المتوسط إلى

(١) نشرت تفصيلات هذه الخطة فى العدد ٥٨ من « كتابى » ، عن جماعة « السين — فين » الايرلندية التحريرية .



جنوب المحيط الأطلسى ، ووضعت فى مكان الطرادتين نموذجين زائفين لتضليل الجواسيس الألمـــان الذين كانوا يراقبـــون الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ..

وإذ ذاك نشط الجاسوس البريطانى المندس فى البحرية الألمانية ، فأرسل إلى الأميرال فون شبى أوامر زائفة بالشفرة، كى يتجه إلى جزر ( فولكلاند ) بالمحيط الأطلسى الجنوبى .. واستجاب الأميرال للتعليمات ، ظنا منه أنها صحيحة ، فأبحر إلى الجنوب حيث كان الأسطول البريطانى يتربص له .. ووقع فى الكمين فأبيدت سفنه ! .. وقد ظهر — بعد الحرب — أن الامبراطور غليوم كتب على هامش تقرير البحـــرية عن المعركة : « انه لشىء غامض غير مفهوم .. لماذا ذهب فون شبى إلى جزر فولكلاند ؟ » .. وقد بقى الجواب سرا مكتوما ، حتى انتهت الحرب وتكشفت الأسرار !

وفى معركة ( جوتلند ) البحرية ، كان من المحتمل أن تحرز المخابرات السرية البحرية — التابعة لبريطانيا — نصرا عظيما .. وكان الاشتباك الأول غير حاسم ، ولكن الأميرال الألمانى رأى أنه يعرض أسطوله لكارثة محققة لو استمر فى القتال ، فقرر أن يتجه بأسطوله إلى اقرب ميناء ألمانية .. وكانت هناك ثلاثة ممرات سرية مأمونة فى منطقة الألغام التى كانت تحيط بالأسطول ، فتربص الأسطول البريطانى أمام ممر منهـــا ، حدس أن القائد الألمانى سيتخذه ، ولكن حدسه طاش . وكانت البحرية البريطانية تلتقط الإشارات اللاسلكية الألمانية ، وتفك رموزها ، ثم تبعث بها إلى أســـطولها فى المعركة . ولكنها

— لسبب غير معروف — لم تصل إليه فى الوقت المناسب ، فتمكن الأسطول الألمانى من الافلات ، ومن الوصول بسلام إلى ميناء مأمونة !

## دخول أمريكا حرب ١٩١٤ من عمل الجاسوسية البريطانية !!

وهكذا كانت الظروف تعترض جهود « الحجرة رقم ٤٠ » أحيانا ، فتفسد نتائجها . على أن أكبر نصر أحرزته الحجرة ، كان انتصارا سياسيا .. فقد طلع عام ١٩١٧ على الحلفاء وهم فى حال سيئة ، إذ كانت فرنسا قد أوشكت على الانهيار ، وكانت روسيا قد دخلت مرحلة الانهيار وأصبح كل مطلع يتوقع انفجار الثورة فيها ، ولم تكن ثمة قوة تعوض الحلفاء عن روسيا سوى الولايات المتحدة الأمريكية . غير أن البوادر المبشرة باستعداد هذه الدولة لدخول الحرب ، كانت قليلة ، إذ كانت الآراء المنادية بالعزلة لا تزال قوية النفوذ فى أمريكا ، برغم المساعدات والمواد التى كانت الصناعة الأمريكية تمد بها الحلفاء .. فان الحياد كان فى مصلحة أمريكا ، وكان أكثر نفعا لها ، كما كان الرئيس « ولسون » يبغض الحرب . ومن ثم أيقن الحلفاء فى النهاية أنه لن يعدل عن موقفه ، إلا إذا أغرقت الغواصات الألمانية بعض سفن أمريكا .. ومع ذلك ، فان هذا لم يثر فى البداية سوى غضب لم يتجاوز حدود الاحتجاج !

وكان مسلك ألمانيا فى المسائل الخارجية — فى تلك الفترة — يتسم بالتقلب ، لا سيما حين تفافلت بحريتها عن عواقب



مهاجمة سفن أمريكا ، وقررت أن توغل فى حرب العصابات البحرية ، غير متقيدة بأى اعتبار !

وأرسل الهر زيمرمان — وزير الخارجية الألمانية — بتعليمات خاصة بهذا الصدد ، إلى سفيره فى واشنطن ، فالتقطت البحرية البريطانية هذه الرسالة ، وعهدت بها إلى « الحجرة رقم ٤٠ » . وكانت الرسالة مكتوبة بشفرة جديدة استعصت فى البداية على خبراء الحجرة ، ولكنهم استطاعوا فى النهاية فك طلاسمها ، فاذا الرسالة خطيرة الشأن ، تحتاج إلى دقة ودهاء لعلاج الموقف !.. ومن ثم بادرت الحكومة البريطانية إلى إبلاغ السفير الأمريكى تلك الرسالة ، وسمحت لأحد رجاله بولوج « الحجرة رقم ٤٠ » حيث اطلع على الطريقة التى اتبعت فى حل الشفرة . وكانت الرسالة تتضمن إخطارا للسفير الألمانى فى واشنطن بأن بلاده قررت أن تستأنف فى أول فبراير سنة ١٩١٧ حرب الغواصات المطلقة ، غير مقيدة بأى اعتبار ، ومن ثم فعليه أن يقنع الولايات المتحدة بأن « تبعد سفنها عن أوربا » — إن شاءت أن تتمسك بحيادها — وبأن يسعى لعقد محالفة بين ألمانيا والمكسيك إذا فشل فى ذلك ، مقابل وعدها بأن تمنحها ألمانيا ولايات تكساس ونيومكسيكو واريزونا الأمريكية ، إذا ما انتهت الحرب بهزيمة الولايات المتحدة والحلفاء .

وكانت بعض الصحف الأمريكية تشن — فى تلك الفترة — حملة شعواء على بريطانيا ، متهمة إياها بأنها تعمل على جر الولايات المتحدة إلى الحرب .. ولكن نشر الرسالة الألمانية

ــ التى حلت « الحجرة رقم ٤٠ » رموزها ــ قلب الرأى العام الأمريكى بين يوم وليلة ، وكان من اكبر العوامل التى دفعت بالولايات المتحدة إلى الاشتراك فى الحرب العالمية الأولى ..

بل ان هـذه الرسالة غيرت مجرى الحرب بأسرها . فان وصول القوات الأمريكية إلى صفوف الحلفاء قلب ميزان القوى لصالح هؤلاء . ولو أن المانيا انتصرت فى سنة ١٩١٧ أو سنة ١٩١٨ ، لتمكنت بعد ذلك من التغلب على روسيا ، ولسيطرت على أوربا بأسرها ، وجزء من آسيا .. ثم لاشتبكت مع الولايات المتحدة فى سبيل السيادة على العالم !.. وكان الفضل فى كل هذا التحول راجعا إلى براعة خبراء « الحجرة رقم ٤٠ » فى حل الشفرة السرية .. وإلى « ميلر » الذى أرسى أساس هذا النجاح بعثوره على مفتاح الشفرة البحرية الألمانية !



# الفصل التاسع

## جواسيس .. فى الرقابة

من عادة الدول جميعها أن تلجأ إلى الاستعانة بالرقابة فى أوقات الحروب . وعلى الرغم من أن الرقابة بغيضة إلى القلوب ، إلا انها سلاح لا غنى عنه فى مقـاومة تجسس الأعداء . ومع دقة النظم التى تسير عليها الرقابة ، إلا ان تاريخها لا يخلو من لحظات وجيزة ، خاطفة ، تترك آثارا فى التاريخ .. ومن ذلك ما حدث فى سنة ١٩١٥ ، إذ كان على جاسوس المانى ، يدعى « روزنتال » ، أن يتسلل إلى بريطانيا عن طريق الدانيمرك . فما ان وصل إلى ( كوبنهاجن ) ، حتى نسى الحذر الذى تتطلبه مهنته ، فكتب إلى صديق له فى المانيا ينبئه بأنه فى طريقه إلى انجلترا ليتجسس انباءها ، منتحلا شخصية بائع « ولاعات » سجاير !

والقى الخطاب فى صندوق البريد .. فوقع فى يد عامل من عمال الفرز ــ فى إدارة البريد ــ كان يعمل بسرعة ، وتحت ضغط سيل دافق من الرسائل ، فكان يطوح بالرسائل إلى الأكياس الخاصة بالبلدان الموجهة إليها ، اقتصادا للوقت والحركة .. فلما قرأ العنوان الذى كان على رسالة «روزنتال» ، طوح بها نحو كيس المانيا ، فاذا به يخطىء الرماية ، فوقعت الرسالة فى كيس انجلترا .. وبهـذا تسنى لرقيب بريطانى أن يقرأ الرسالة وهو مفعم بالدهشـة ! .. ومن الطبيعى أن

« روزنتال » لم يجد فرصة لأداء مهمته .. فكان أجدر الجواسيس بلقب « الجاسوس سىء الحظ » !

كذلك تتخلل حياة الرقابة أحداث مضحكة ، كالحادث الذى سأسوقه فيما يلى ، والذى بدأ — فى سنة ١٩١٥ — فى إدارة الرقابة البريطانية .. ذلك لأن من أهم وسائل إدارة مقاومة التجسس ، إعداد « قائمة سوداء » تضم العناوين التى يشتبه فى أن لها علاقات بالتجسس — سواء داخل البلاد أو خارجها — وعناوين رعايا الأعداء المقيمين فى دول محايدة ، ممن يكونون على اتصال بأفراد فى داخل البلاد .

فقد حدث ذات يوم ، أن كان رقيب انجليزى يفحص محتويات البريد الصادر ، وإذا به يعثر على صحيفة مرسلة إلى شخص فى هولندا ، كان ممن ذكروا فى « القائمة السوداء » .. وبدت الصحيفة عادية فى مظهرها ، وخالية من اية رسالة ، ومع ذلك فقد رؤى فحصها كيميائيا للتثبت من عدم وجود كتابة ما بمداد سرى .. وإذا الفحص يسفر عن وجود عبارات فى أحد الهوامش ، جاء فيها أن : « ك . سافر إلى الشمال » ، وأنه « سيكتب من ٢٠١ » . وكان غلاف الصحيفة يحمل خاتم بريد ( ديبتفورد ) .. ومن هذا المفتاح الضئيل ، أمكن الوصول إلى واحد من أمهر جواسيس المانيا الذين كانوا يعملون فى انجلترا ، وإلى جاسوس بحرى بارع كاد يفلت من السلطات البريطانية !



## الرقيب يكشف سر « البواخر الزائفة » !

وقد يبدو أن العنوان الذى اخترته لهذا الفصل مضلل ، لأن الأمثلة التى سقتها حتى الآن تتعلق بمقاومة التجسس ، وليس بالتجسس ذاته . على أن تاريخ الرقابة تضمن سيرة « رقيب جاسوس » ، كان من أحذق الجواسيس .. ففى سنة ١٩١٤ ، لم تكن جوازات السفر ضرورية — فى الغالب — إلا لمن يسعون إلى دخول روسيا وتركيا . لهذا كان من الميسور لألمانى يدعى « شيلبر » ، عاش ردحا من الزمان خارج المانيا وحذق اللغة الانجليزية بطلاقة ، أن يكسب عطف السلطات البريطانية ، لا سيما وأنه ساعد الجيش البريطانى يوما فى جنوب افريقيا . وكان « شيلبر » يعيش فى الولايات المتحدة فى أوائل الحرب ، فانتقل إلى كندا ، حيث عرض على الملحق العسكرى الألمانى اقتراحا قبل فى الحال ، برغم أنه لم يكن جاسوسا مدربا .

وكانت الخطة التى رسمها تنم عن دهاء ، إذ انه بادر إلى التطوع للعمل كرقيب للبريد فى كندا ، واظهر من الكفاءة ما أكسبه ثناء رؤسائه . وكان عمله يتيح له فرصا وافرة ، لا تقتصر على التقاط المعلومات من بعض الرسائل ، وإنما تشمل أيضا تمكنه من إرسال تقاريره إلى أعوان فى بلاد محايدة ، بعد أن يختمها بخاتم الرقابة !.. وكان من الشخصيات التى اعتاد أن يوجه رسائله إليها ، شخصية خيالية .. أسير — لا وجود له فى الواقع — فى المانيا .. وكانت الرسائل التى تصل إلى المانيا بهذا العنوان تحول إلى إدارة المخابرات السرية الألمانية فورا !

وكان « شيلبر » حريصا فى تدبيراته ، فلم يكن يكتب رسائله فى مكتبه ، ولا فى مسكنه .. فقد استأجر غرفة بعيدة ، كان يتسلل إليها فى المساء حيث يكتب تقاريره ، وينقل او يصور أجزاء من الخطابات التى تقع بين يديه أثناء عمله فى الرقابة !.. وكانت المتاعب الرئيسية التى اعترضته ، هى الحصول على المواد اللازمة لعمله ، لا سيما الأفلام التى يستخدمها فى تصوير فقرات الرسائل . وكانت الأفلام بالذات هى منفذ الخطر الذى حاق به ، إذ ان الرجل الذى كان يبيعه الأفلام لم يلبث أن ارتاب فى أمره لكثرة ما كان يشتريه ، فابلغ البوليس هواجسه . ولكن القدر كان يحالف « شيلبر » ، إذ ان البوليس استهجن شكوك البائع وزجره !

واستطاع شيلبر بأسلوبه الفذ ان ينقل إلى المانيا كثيرا من الأنباء المتابعة . ولكنه بلغ اوج نجاحه فى سنة ١٩١٥ ، حين وقعت فى يده رسالة من فتاة إلى صديق لها ، ذكرت فيها ابتهاجها لأن اخاها — الذى كان يعمل فى البحرية — قد حظى بوسام لشهامته ، ونقل إلى ميناء قريبة ، حيث عهد إليه بمهمة محوطة بالغموض ، تتعلق بإصلاح السفن التجارية القديمة !

ولما كان من واجب الجاسوس الناجح أن يتنسم الأخبار كما يفعل الصحفى ، ولما كان شيلبر قد حدس ان وراء هذه الرسالة امرا ، فانه سافر — فى أقرب فرصة سنحت له — إلى البلدة التى كانت كاتبة الرسالة تقيم فيها ، وتقدم إلى الفتاة بوصفه رقيبا ، فالقى عليها محاضرة عن خطر الثرثرة فى رسائلها ! .. وشكرت الفتاة للرقيب كرمه ، واطمأنت إليه ،



فراحت تتكلم — دون ما حذر — منساقة إلى الاتجاهات التى كان يستدرجها إليها .. وإذا بحديثها يقود « شيلبر » إلى سر من أعظم أسرار الحرب .. سر « البواخر الزائفة » !

كانت الخطة تعتمد على اختيار بواخر تجارية وتسليحها بمدافع مستترة بوسائل التعمية ( الكاموفلاج ) ، بحيث تبدو كبواخر تجارية تمخر البحار ، حاملة اعلام دول محايدة . فاذا تعرضت إحدى الغواصات الألمانية لباخرة منها ، أبدى بحارتها هلعا ، واسرعوا إلى مغادرتها فى قوارب الانقاذ . وإذ ذاك تطمئن الغواصة إلى أن فريستها غير مسلحة ، فتظهر على سطح الماء ، وبدلا من أن تنسف الباخرة بطوربيد — وكانت الطوربيدات قليلة وغالية — تشرع فى رميها بالقنابل .. وقبل أن تتمكن من ذلك ، تفاجأ الغواصة بقذائف المدافع المستترة تنهمر عليها كالمطر ! .. وقد اغرقت إحدى عشرة غواصة بهذه الخطة ، كما اصيب عدد كبير بأضرار من جرائها . وكانت كفيلة بأن تمضى فى مهمتها المدمرة لو لم يتلق الألمان ما انذرهم .. وكان الانذار مرسلا من شيلبر !

ومع أن شيلبر كان يتبع أسلوبا بسيطا ، ومسلكا نظيفا — فما عرف عنه يوما انه استخدم مسدسا او اقدم على عمل إجرامى — إلا ان مغامراته ترفعه إلى أرقى مصاف الجواسيس فى الحرب ! كانت الجاسوسية لديه صراعا فكريا ، أوتى استعدادا فذا لخوض غماره ! .. وقد أدى لبلاده — المانيا — أجل الخدمات ، ومع ذلك فانه لم ينل من الحمد والثناء إلا النذر اليسير !

# الفصل العاشر

## رسول الخراب !

فى سنة ١٩٤٠ ، اعتقل الكابتن فرانز فون رينتلن — زعيم فن التخريب الذى كان يلقب بالفـازى الأسود ! — فى جزيرة ( مان ) . وقد طلب منى أن اشفع له لدى السلطات ، ولكننى رفضت ، لأنه برغم عدائه لهتلر ، ما كان ليحجم عن الانضمام إلى القادة الألمان لو أنهم تخلصوا من الفوهرر ! .. وكان قد لجأ إلى بريطانيا عند قيام النازية ، التى لم تكن تقدر أمجاد الأبطال إلا إذا ابدوا استعدادا لقبول « المذهب النازى ! .. على أن فون رينتلن وجد ترحيبا من بريطانيا ، إذ كان كتابه عن أعماله فى الحرب العالمية الأولى قد أكسبه صيتا ذائعا هناك ، كما أنه وجد موردا للعيش فيما كان يلقيه من محاضرات عامة .

وكان فون رينتلن من أبرع من حذقوا فن « التخريب » ، الذى يعتبر طابعا هاما فى كل الحروب الحديثة . وقد أوفدته البحرية الألمانية — فى مارس سنة ١٩١٥ — إلى الولايات المتحدة على أنه من رعايا سويسرا ، ومع أن أمريكا كانت فى تلك الفترة تتشبث بالحياد التام ، إلا أنهـا كانت عاكفة على إعداد نفسها للدور الذى كان مقدرا لها .. أى أن تصبح مستودع الأسلحة والذخائر للحلفاء . بل ان الحياد لم يمنعها إذ ذاك من أن تمد الحلفاء — لا سيما روسيا — بالذخائر .. فكان من الأهداف الرئيسية لألمانيا أن توقف هذه الامدادات !



ولم تكن الخطوات الاعدادية فى مهمة فون رينتلن فى صعوبة الخطوات التمهيدية فى عمليات الجاسوسية ، إذ كان فى الولايات المتحـدة مئات من البحارة الألمان الذين بقوا فيها عند قيام الحرب ، وانتشروا فى ارجائها ، بعد أن حال الحصار البريطانى دون عودة سفنهم إلى ألمانيا . وقد كان عدد كبير منهم ، من مجندى احتياطى الأسطول الألمانى ، وعلى استعداد لأن يعملوا من اجل وطنهم ، كما كان من السهل على فون رينتلن أن يعثر على متطوعين من الايرلنديين الذين كانوا يعملون فى الموانىء الأمريكية ، والذين كانوا يكرهون انجلترا ولا يتورعون عن كل ما يوقع بها أبلغ الأضرار !

على أن اهم رجل انضم إلى الحركة التى نظمها فون رينتلن ، هو الدكتور « شيل » . وكان عالما ماهرا ، اخترع سلاحا أحدث دويا فى ذلك الحين ، هو « السيجار المحرق » ، أو « القنبلة السيجار » ، التى كانت ذات اثر مدمر عظيم . وكانت هذه القنبلة عبارة عن أنبوبة جوفاء من القصدير ، تفوق حجم السيجار قليلا ، وينقسم جوفها — بحاجز نحاسى رفيع — إلى قسمين ، يحتوى أحدهما على حامض البكريك ، والآخر على حامض الكبريتيك ، فاذا امتزج الحامضان أحدثا لهبا قويا عنيفا ، يستمر فترة طويلة نسبيا ويتصل بأى جسم قابل للالتهاب ولو كان على بضع ياردات منه !

وكان من الصعب كبح استخدام هذا « السيجار المحرق » ، لأن صغر حجمه كان يمكن أى شخص من إلقائه بين الفحم عند شحن الوقود اللازم للسفن ، فاذا سرت إليه حرارة المواقد

تفجر وأحدث حريقا دون أن يعثر له أحد على أثر . وقد اختيرت سفينة أمريكية شحنت بالذخائر إلى روسيا لإجراء أولى تجارب هذا « السيجار المحرق » .. وما لبثت التجارب المتوالية أن أثبتت نجاحه !.. كما اخترع الدكتور « شيل » قنابل على شكل كتل الفحم ، تدس بين وقود السفن ، ولا تنفجر إلا بعد وضعها فى الأفران فتتلف آلات السفينة !

واخترع رجل آخر من معاونى فون رينتلن — ويدعى « فاى » — جهازا يلصق سرا بدفة السفينة ، فاذا انفجر ، مالت السفينة على أحد جانبيها ، وربما غرقت !

ولقد اشتهر فون رينتلن بأنه كان « نظيفا » فى عملياته ، فكان يحرص على الا تؤدى إلى سفك الدماء .. ومع ذلك فقد نجح أيما نجاح فى مهمته كمخرب . وكانت وسائله تنم عن مهارة وتنظيم دقيق .. ولكن اختلاط عدة جنسيات فى جماعته أدى إلى صعوبة السيطرة عليها ، كما أن الدكتور « شيل » لم يلبث أن سبب له ازعاجا ، إذ انقلب فجاة إلى إنسان نهم لا يكف عن طلب مبالغ ضخمة من المال . وقد تحايل فون رينتلن على علاج مشكلته ، بعد أن عرف أن نقطة الضعف لديه هى شغفه بالنساء !

### فون بابن .. الغبى !

ولقد سبق فون رينتلن كثيرا من الساسة إلى إدراك أن تحطيم الروح المعنوية لا يقل شأنا عن التخريب المادى . ووجد فى هذا الميدان كثيرا من المتطوعين . فقد كان فى أمريكا اثنا



عشر مليونا من الرعايا المنحدرين من أصل المانى ، والذين مالت قلوبهم إلى مناصرة وطنهم الأصلى ، فأخذوا ينظمون الاضرابات فى مصانع الذخيرة ، كما ألف العمال الألمان والايرلنديون اتحادا لنقابات عمال الموانىء ، كان ينظم الاضرابات كلما دخلت سفن الحلفاء الموانىء الأمريكية لتتزود بالأسلحة والذخائر . ولكن هذه الخطط لم تلبث أن اكتشفت، فعمد الجواسيس الإنجليز إلى تشجيع اتحادات النقابات الأصلية حتى تغلبت على الاتحاد الألمانى الايرلندى .

على أن أبرع حيل فون رينتلن تجلت فى استغلاله ميل الأمريكيين للعزلة وعدم إقحام بلادهم فى مشكلات أوربا .. فقد نظم اجتماعات للاحتجاج على إرسال اسلحة وذخائر إلى الحلفاء ، بحجة أن ذلك يضر بحياد أمريكا . وتوصل إلى الاستعانة بشخصيات بارزة وأعضاء فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، كانوا يخطبون فى هذه الاجتماعات ، دون أن يفطنوا إلى أنهم كانوا الاعيب فى يد جاسوس المانى ! .. وبينما كان مثيرو الخواطر ومهيجو الرأى العام — من الايرلنديين والأمريكيين السذج — منهمكين فى هذه الحرب السياسية التى كان فون رينتلن يقودها وحده ، إذا به يستدعى إلى المانيا للتشاور .

وكان قد بذل كل جهد ممكن ليتجنب اية شبهات طوال بقائه فى أمريكا . ولكن القدر كان يريد له أن يقع ، بغباء سواه !.. فعندما عاد إلى أمريكا — وهو ما يزال منتحلا الشخصية السويسرية — كان يحمل نسخة من شفرة بحرية

جديدة ، للملحق البحرى الألمانى فى واشنطن .. وكان هذا الملحق هو الذى أفسد على فون رينتلن نشاطه ، إذ كان الإنجليز قد دسوا على الملحق امرأة عملت كسكرتيرة له حتى حصلت على مفتاح الشفرة . وحدث أن أبرق الملحق برسالة لاسلكية ، كتبها بغباء ، عن تفصيلات خطة وضعها فون رينتلن للعودة إلى ألمانيا للتشاور فى مشروعات جديدة . وإذا البحرية البريطانية تلتقط الرسالة وتحل رموزها .. وعندما سافر فون رينتلن ، اعترضت سفينة حربية بريطانية طريق السفينة التى كان يستقلها واعتقلته !

وعندما دخلت أمريكا الحرب ، طالبت انجلترا بتسليمها فون رينتلن .. لا كأسير حرب ، وإنما كمجرم عادى . ووافق الإنجليز على هذا الطلب الغريب ، فحوكم « المخرب » البارع فى أمريكا ، وقضى عليه بالسجن أربع سنوات ! .. وكنت إذا رغبت فى إغاظته — بعد ذلك — ذكرت أمامه اسم الملحق البحرى الألمانى الذى تسبب غباؤه فى الزج به فى السجن .. ومن عجب أن الشهرة كانت ترتقب هذا الملحق ، فانه لم يكن سوى .. فون بابن !

وخليق بمن يدرس تاريخ الجاسوسية أن يدرس حياة فون بابن نفسه ، كنموذج من نماذج الجواسيس .. فقد كانت أول مهمة كلف بها هى تنظيم الوف من جنود الاحتياطى الألمان — الذين كانوا فى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الأولى — للقيام بأعمال التخريب ، ولكنه منى فى هذه المهمة بفشل شنيع ، وكاد أمره يفتضح .



ثم ارتكب خطأ أسوأ وأخطر .. فقد حدث أن كان عائدا من ألمانيا إلى مقر عمله فى أمريكا ، فى سنة ١٩١٧ ، مطمئنا إلى أن جواز سفره الدبلوماسى خير وقاء له ، إذا مرت باخرته بالموانىء البريطانية .. والواقع أن الإنجليز لم يمسوه بسوء ، بالفعل ، ولكنهم أصروا على تفتيش حقائبه عندما أنزلت إلى البر فى ميناء ( فالماوث ) .. فان الحصانة الدبلوماسية لم تكن تمتد إلى حقائبه ، إذ ذاك . وشد ما كانت دهشة القائمين بمقاومة التجسس فى انجلترا ، حين عثروا فى تلك الحقائب على مفتاح للشفرة الألمانية ، وعلى مئات الملفات الخاصة بالجاسوسية الألمانية فى أمريكا .. واستطاع الأمريكيون — بمعونة الإنجليز — أن يوقعوا بالعدو الكامن بينهم ضربة قاصمة !

ولعل خير تعليق على فون بابن ، هو ذاك الذى قيل بعد ذلك بعام ، وكان قد عين ملحقا ألمانيا مرافقا للجيوش العثمانية فى فلسطين . فقد قدر له أن ينجو من الأسر ، عندما تقدمت قوات الإنجليز بقيادة « اللنبى » ، ولكن أوراقه وقعت فى أيدى الأعداء ، فكانت عظيمة النفع لهم ، إذ كان قد سجل كل حركة وكل خطة فى مذكراته .. وعندما نمى هذا الأمر إلى السلطات البريطانية فى لندن ، أرسلت وزارة الحربية برقية قالت فيها : « إذا أسرتم فون بابن فلا ترسلوه إلى معتقل ، وإنما أرسلوه إلى مستشفى للأمراض العقلية ! »

# الفصل الحادى عشر

## الشرق الأوسط .. مستودع الجواسيس !

لطالما اعتبر الشرق الأوسط منطقة فريدة فى نوعها تجمع منها الدول الجواسيس المرتزقة والمأجورين ، بحيث كانت بلاد هذه المنطقة تمثل على الدوام تمثيلا عادلا فى « عصابات » الجاسوسية الدولية ، التى تفوق فى الحقيقة أغرب ما تفتق عنه خيال الروائيين . وقد اشتهر اليونانيون والأرمن منذ زمن طويل بالتفوق فى هذا المضمار الدولى ، وبقدرتهم على التنقل بحرية تامة فى مجتمعات مختلف الدول !

فمن بين جواسيس ألمانيا الذين سببوا الكثير من المتاعب لقسم مكافحة الجاسوسية فى فرنسا ، جاسوس يدعى « قسطنطين كودويانيس » ، كان كثير التنقل ، وكانت له صلة بتلك المرأة ذات الشخصية الشبيهة بشخصيات الأساطير ، وهى التى كانت تعرف باسم « السيدة الطبيبة » ! .. وكان « كودويانيس » يونانيا بحكم مولده ، عالما باللغات من الطراز الأول ، وكان إلى جانب ذلك مجردا من الضمير ! وقد عمل يوما كضابط فى جيش بلاده ، ثم استغنت اليونان عن خدماته ، وكان هذا الاستغناء قرارا وطنيا حكيما ! .. وعندئذ دبر له سادته الجدد — أى الألمان — أن يتستر وراء حرفته المدنية الأخيرة ، وهى الاتجار فى المخدرات . وكان من الطبيعى أن يعرضه ذلك لخطر السجن ، لو ضبط ، لكن



عقوبات المخدرات كانت فى ذلك الحين أخف بكثير من عقوبات الجاسوسية !

على انه اضطر مع ذلك لتغيير هذا « الستار » مرتين ، وفى فرصتين متقاربتين : فاتخذ فى المرة الأولى شخصية تاجر فاكهة ، حتى تذكر سادته ان الحصول على الفاكهة وتصديرها فى زمن الحرب أمر عسير ، فقرروا أن يجعلوه صحفيا ، سيما وقد كانت له مواهب طبيعية تؤهله لهذه المهنة . وعلى هامش الرسائل التى كان « كودويانيس » يتلقاها من رؤسائه الألمان كانوا يكتبون له التعليمات بحبر سرى ، فكان إذا تسلمها وضع عليها سائلا خاصا ثم قربها من لهب النار ، وعندئذ كانت سطورها تبدو له بوضوح !

وبرغم نجاحه الباهر فى الجاسوسية ، فقد كانت له نقطة ضعف شديدة ، هى حدة عواطفه — شأن سائر اليونانيين — وتعلقه الزائد بإرضاء شهواته . وكانت تعليمات رؤسائه إليه فى هذا الشأن تطالبه بأن يقتصر فى علاقاته الجنسية على دور الدعارة الرسمية ، خارج مناطق الحرب ، وبرغم أن ( باريس ) كانت تتيح له هذه الفرصة ، فانه كان ينفر بطبعه من نساء الهوى المحترفات .. فلم يلبث أن وجد نفسه مسوقا إلى أن يتخذ لنفسه خليلة !

وكانت الفتاة جذابة للغاية ، تبدى له الحب والوله . وبحكم احترافها التمثيل أجادت تمثيل دورها إلى حد أبعد عنها الشبهات ، فلم يجل بخاطره لحظة أنها تنتمى إلى فرقة مقاومة الجاسوسية التابعة لقوات الحلفاء !. على أن براعته وذكاءه

فوتا على الجاسوسة الحسناء كل فرصة لاقتناص اية معلومات منه ، فعاشت معه عدة اشهر دون أن تتوصل إلى أى دليل ضده !

## السقطة التى اكتشفتها خليلته .. فأودت به !

وفى الوقت الذى كاد الحلفاء يفصلون فيه الفتاة من عملها فى خدمتهم ، لفشلها ، لاحظت أمرا تافها لفت نظرها : فقد عادت إلى مسكنهما ذات يوم مبكرة عن موعدها ، فوجدته يغسل جواربه بنفسه — ولم يكن منطقيا أن يفعل رجل ذلك وفى البيت امرأة ! — كما لاحظت أن الجوارب ليست قذرة ، وأنه يغسلها برفق ، دون أن يضغط عليها كثيرا ، فأدركت أن وراء ذلك لغزا خفيا .. وكانت تعلم أن الجواسيس إذا ارادوا الاحتفاظ بكمية من الحبر السرى فى حوزتهم ، فانهم لا يحملونه فى زجاجة ، وإنما يغمسون فيه جوربا أو منديلا ثم يتركونه يجف ، حتى إذا احتاجوا إلى استعماله يوما غسلوا الجورب بماء ساخن يذيب الحبر اللاصق به ، فيمكن استعماله فى الكتابة !.. وكان ذلك الحادث العرضى هو المفتاح الذى أدى إلى ضياع « كودويانيس » ، فقد عمدت مخابرات الحلفاء على اثر ذلك إلى تكليف الفتاة باستنزاف ماله عن طريق الاكثار من النفقات ، حتى إذا تورط فى الديون خرج عن تحفظه واكثر من الاضطلاع بمهام التجسس ، فيكشف أمره !

وقد كان . استطاعت خليلته أن تقرأ رسالة وردت إليه كلف فيها بالاشتراك — كصحفى — فى تشييع جنازة أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، كى يسلم أثناء ذلك ورقة إلى رجل



عادت إلى مسكنهما ذات يوم مبكرة عن موعدها ، فوجدته يغسل جواربه بنفسه .

يضع على رأسه قبعة عالية . فلما أبلغت الفتاة هذا النبأ إلى رؤسائها وجد الرجل حوله فى الجنازة ثلاثة رجال يضع كل منهم على رأسه قبعة عالية ! فأدرك أن أمره قد اكتشف ، وانتابه اليأس . وإذ ذاك حاول التخلص من الورقة التى تحمل دليل التجسس ، بإلقائها فى القبر المفتوح ، لكن أحد المخبرين التقطها .. فاعتقل « كودويانيس » ، وحكم عليه بالإعدام !

على أن قلم المخابرات الفرنسى كان يبغى الحصول على أسماء شركائه ، فلجأ إلى أساليب وحشية تتنافى مع القناع الذى كانت فرنسا تظهر به أمام العالم . وجاءوه بطعام مملح يثير العطش ، ثم أتوا بماء ونبيذ ، وقبل أن يطفىء ظمأه أخذوهما من على مائدته وهو يتلمظ بشفتيه شوقا إلى الماء !.. وبعد أن احتمل الرجل هذا الظمأ القاتل يومين ، خارت قواه فتكلم. ولكن عقله كان قد شرد واضطرب إلى حد أفقد اعترافاته قيمتها .. وعبثا حاولوا إنعاش ذاكرته وذهنه بالكوكايين ، فان الأوان كان قد فات .. وهكذا أعدم الرجل ، ودفن معه سر شركائه ، إلى الأبد !

**مغامرات « لورنس بلاد العرب » ، وغريمه الألمانى !**

وإلى جانب الجاسوسية الدولية المنظمة ، شهد الشرق الأوسط بعض المغامرات الأوربية « الفردية » ، التى كان أبرز أمثلتها الجاسوس البريطانى « لورنس » ، صاحب المغامرات المشهورة فى البلاد العربية .. فقد أدرك أنه لا بد



للحملة العسكرية المقبلة — وقتئذ — من أعمال المخابرات الدقيقة ، فدخل البلاد التى كان الأتراك يحتلونها وقدر الحالة « التكتيكية » العامة بنفسه ، فكان يزور القلاع التركية ويفحصها بحجة أنه عالم فى الآثار !

أما غريمه — فى المعسكر الألمانى — فكانت حياته أعجب ، وأقرب إلى « المسرحيات » من حياة لورنس . ولم يكن هذا الغريم غير الكابتن « واسموس » . والفرق بين الاثنين أن لورنس كان مأجورا مزودا بمعونة القوات البريطانية ، أما « واسموس » فكان يعمل بمفرده ، بدافع الغيرة على وطنه ، وقد أثر تأثيرا كبيرا فى الرأى العام الايرانى خلال الحرب العالمية الأولى ، إذ حد من نشاط الحلفاء هناك إلى درجة كبيرة .. وإليك قصته : عندما نشبت الحرب عام ١٩١٤ ، كان « واسموس » يعمل قنصلا لألمانيا فى ( بوشير ) بايران . وكان يتكلم اللغة الايرانية ، بلهجاتها المختلفة ، فى طلاقة وإجادة ، كما كانت له صلة بكثير من القبائل .. فلما نزل الجنود البريطانيون هناك ، متعللين بالدعوى الاستعمارية المألوفة ، وهى « حماية منابع الزيت » ، أعلن الرجل عليهم حربا شعواء ، وإن كانت « فردية » . لم يكن فى استطاعته أن يحاربهم علانية ، فصار يجمع رجال القبائل لمناوشتهم .. ثم تمكن من الفرار من المدينة وفى جعبته سلاح قوى هو المال ، ( وقدره ١٤٠ ألف مارك من الذهب ! ) .

واستغل ذهبه فى تأليب رجال القبائل ضد الإنجليز ، وتنظيم شبكة للتجسس عليهم ، ثم تزوج من ابنة زعيم فارسى

كبير ، وأولم وليمة فاخرة دعا إليها مئات من ذوى النفوذ ، علاوة على كثيرين من الرعاة والفلاحين ، وعمال الزيت والموانىء .. والقى فيهم خطبة عن القضية الألمانية ، وعن دسائس الإنجليز وجشعهم الاستعمارى ، فلم تنته الوليمة حتى كان قد استمال إليه نصف الحاضرين .

وأفادت خطته ، فتدفقت عليه الأنباء من كل مكان ، ولكنه كان يضطر إلى مراجعة كل نبأ يأتونه به ، لأن الكثيرين كانوا مصابين بخصوبة الخيال ، طمعا فى المال ، فكانوا يختلقون بعض الأنباء اختلاقا ! .. وكانت تدابير الإنجليز الحربية هناك بدائية فجة ، فاستطاع واسموس ان يحصل من عمال الموانىء والصيادين على تفصيلات كاملة عن تحركات القوات البريطانية، فكان يرسلها أولا بأول إلى الجيش العثمانى — حليف المانيا عندئذ — فى مقر قيادته بشمال العراق . وقد اعترف القائد الألمانى للمنطقة بان أنباء « واسموس » اثرت فى سير تلك الحملة الطويلة ، ولا سيما فى المعارك التى أدت إلى سقوط ( كوت ) — أو « قوت العمارة » — وكان سقوطها من اكبر الكوارث التى أصابت بريطانيا فى الشرق الأوسط !

## حيل الجواسيس حين تنضب أموالهم !

على أن الحظ لم يكن يواتيه دائما ، فقد حاول ان يعمل على غزو « أفغانستان » ، ولكن أمواله كانت قد بدأت تنضب .. وبلغ من تفننه فى تهريب الأسلحة إلى القبائل فى زوراق الصيد أن اضطر الإنجليز إلى تخصيص داورية دائمة من اربع



سفن حربية لضبط تلك الزوارق ، ولكن دون جدوى ! .. وفى النهاية أعلنوا عن مكافأة ضخمة قدرها ١٤ الف جنيه لمن يأتيهم بالرجل ، حيا أو ميتا !

وعندما تحول تيار الحرب ضد الألمان أهاج هذا الفشل ثائرة « واسموس » ، فبذل جهدا جبارا للمحافظة على ثقة الايرانيين فى انتصار المانيا . وكان أجرأ ما فعله أن أصدر بلاغا زعم فيه أن الألمان غزوا انجلترا ، وان إمبراطورهم « غليوم » سار بعربته ظافرا فى شوارع لندن .. وأن ملك الإنجليز « جورج الخامس » أعدم علانية !

وبرغم الصعوبات التى كان يتعرض لها ، والتى كانت تزداد كلما نقصت موارده المالية ، فانه لم يفقد اعصابه قط ! .. ومن اطرف أمثلة سعة حيلته ما فعله حين أحاطت به جمهرة من الدائنين ذات يوم ، فادعى أنه أقام محطة لاسلكية للاتصال بحكومته كى ترسل إليه المال اللازم ، وكان كل ما فعله لإيهامهم بذلك انه اقام عمودا وضع فيه بعض الأسلاك وجزءا من جهاز ( جراموفون ) قديم ، ثم زعم لهم أنه بعث برسالة إلى الخليفة العثمانى فى ( أستانبول ) ، شاكيا إليه مسلك رعاياه المؤمنين الفارسيين نحوه ، وأضاف ان الخليفة أجاب بأنه يحثهم على أن يحسنوا معاملة الضيف الألمانى ! .. وقد فعل « لورنس » شيئا من هذا القبيل يوما ، فقد نفد ماله فملأ

صندوقا بالأحجار وادعى للدائنين انه مملوء ذهبا ، ولكى يجيد « سبك » الحيلة جعل الجنود يحملون الصندوق تحت حراسة مشددة ! ومن فرط ثقل الصندوق جازت الحيلة على أصحاب الديون فصبروا على لورنس حتى جاءه الذهب الحقيقى ! ) .

وبرغم ما فعله « واسموس » بالحلفاء فان خصـومه كانوا يقدرونه . وكان الكتاب والمؤرخون يسـمونه « لورنس الألمـانى » . لكنه فى الواقع كان يفوق غريمه الإنجليزى فى التخريب والتجسس ، حتى لقد سيطر بمفرده على منطقة واسعة زمنا طويلا . وكانت خرائط المخابرات البريطـانية تشير إلى ( إيران ) بعلامة حمراء كتب عليها اسم خصمهم اللدود « واسموس » !



# الفصل الثانى عشر

## غباء جاسوس بريطانى ، يكلف بلاده غاليا !

اشتهر الفرنسيون والإنجليز فى حروبهم بارتكاب اخطـاء مروعة ادت إلى سفك دماء كثيرة بغير ضرورة ، وإن كان بعض هذه الأخطاء مضحكا يبعث على السخرية .. من ذلك على سبيل المثال ان ضابط مخابرات بريطانيا بعث بتقرير هام إلى حكومته سنة ١٨٩٠ يقول فيه إنه سمع بعض كبار الضباط الفرنسيين يتحدثون عن نوع جديد من الرصاص مغطى بالجلد! .. وكان النبأ غريبا ، فبذلت وزارة الحربية البريطانية جهدا كبيرا ، وانفقت اموالا طائلة ، لاكتشاف حقيقة هذا الاختراع الغريب . واخيرا تبين أن الضابط الإنجليزى ارتكب خطأ سببه قلة درايته باللغة الفرنسية : فقد قال الفرنسيون ان الرصاصة ستكون مغطاة بقشرة من النحـاس ( CUIVRE ) ، فظنهم يقولون انها مغطاة بالجلد ( CUIR ) ، والفرق فى النطق بين الكلمتين بسيط !

اما اداة الحرب الفرنسية ، فلها اخطاء كثيرة مضحكة — إلى درجة « محزنة » ! فقد حدث قبل ان تنشب الحرب العالمية الأولى أن وقفت المخابرات الفرنسية على ما كان يسمى « خطة شليفن » ، وهى خطة وضعها القواد الألمان لمهاجمة فرنسا واكتساحها .. ولكن غباء القيادة الفرنسية وغرورها ومغالاتها فى الاعتمـاد على ما كانوا يدعون أنه « تفوق أسلحة الجيش

الفرنسي وروحه الهجومية » ، كل هذا جعل القيادة الفرنسية تتواكل فلا تضع خطة مضادة للخطة الألمانية التى اكتشفها جواسيسهم ! .. وقد أصيب الفرنسيون من جراء ذلك بهزائم وخسائر فادحة فى القتلى والجرحى ، لم يفيقوا منها طول مدة الحرب !

ولم يكن سجل البريطانيين فى مكافحة الجاسوسية أفضل من سجل الفرنسيين ! .. فقد حدث فى فبراير ١٩١٥ أن بدأ الأسطول البريطانى الفرنسى فى ضرب القلاع التى تحمى مضيق الدردنيل . وكان الضرب شديدا إلى درجة قطع معها القائد المحلى كل أمل فى الدفاع عن المضايق ، وساد الدولة العثمانية فى استانبول شىء من الفزع .. واستعدت حكومة الباشوات للفرار السريع ، فقد كان منتظرا أن يصل أسطول الحلفاء إلى المدينة بعد أيام ، ومعنى هذا إجبار تركيا على الانسحاب من الحرب والتخلى عن حليفتها ألمانيا !.. ولكن ، لشد ما كانت دهشة القائد التركى حين رأى أسطول الحلفاء يبدأ فى الانسحاب ! .. وقد تبين بعد ذلك أن قائد ذلك الأسطول كان فى فزع وحالة عصبية سيئة ، إذ كان يخشى أن يفقد سفنه بتأثير الألغام العائمة .. فى حين أنه لو كان شجاعا وغامر قليلا لأخرج تركيا من الحرب ! ولو كانت للحلفاء مخابرات صالحة، وكان لهم جاسوس واحد فى الدردنيل ، لأبلغهم بحالة الفزع التى كانت تسود السلطات ، وبما أصاب الحصون التركية من تحطيم .. ولانقذ بذلك أرواح مليون نفس من الموت فى السنوات التى تلت تلك المعركة ! .. بل كان محتملا أن يحدث ما هو



أكثر من ذلك ، فلو خرجت تركيا من الحرب لوفر الحلفاء على أنفسهم مشقة ونفقات حملات فلسطين وشمال العراق ، ولوفروا حياة الذين قتلوا فى هذه الحملات .. أو لاستخدموهم على الأقل فى مهاجمة ألمانيا وحلفائها من الأراضى التركية ، أى من الباب الخلفى .. ولانتهت الحرب قبل نهايتها الفعلية بسنة كاملة . ومع كل ذلك فقد ضاعت هذه الفرصة لأن القيادة لم تعرف كيف تضع جاسوسا واحدا هناك !

## جاسوس واحد كان كفيلا بانقاذ مليون نسمة !

واستمر فشل الحلفاء بعد ذلك ! .. حدث بعد أشهر أن نزل جيش بريطانى كبير فى شبه جزيرة ( غاليبولى ) ، وهى موقع « استراتيجى » فى جنوب تركيا الأوربية يستطيع من يسيطر عليه أن يسد المضايق ! ولم تكن القيادة البريطانية التى أنزلت هذا الجيش تعرف أن الأتراك عززوا استحكاماتهم هناك ، فدفعوا ثمن جهلهم هذا غاليا — لا لشىء إلا لعجز قلم مخابراتهم ! — وإن كان الضرر الذى أصاب بريطانيا من جراء ذلك جاء أقل بكثير من الضرر الذى أصاب حلفاءها ، ولا سيما روسيا القيصرية .. ذلك أن الهدف الرئيسى من الهجوم الجرىء على الدردنيل ، وما حدث بعد ذلك من نزول فى ( غاليبولى ) ، إنما كان فتح المضايق فى وجه روسيا . ولو واصل ذلك الأسطول مهمته لتلقت روسيا الامدادات التى كانت فى حاجة شديدة إليها ، فان ذخيرتها كانت قد قلت إلى درجة حولت كل معركة إلى « مجزرة » تزهق فيها أرواح الروس بغير حساب !

بسبب قلة ذخيرتهم . وتقدر الأرواح التى أزهقت نتيجة لذلك بمليون نسمة ، إن لم يكن اكثر ! .. بل يمكن القول ان تلك الكارثة كانت من العوامل الرئيسية التى عجلت بنشوب الثورة الشيوعية ، فان الروس لم يثوروا على القيصر فى اول الأمر بسبب استيائهم من الحالة الاجتماعية ، بل بسبب نفور الرأى العام منه لما اظهرته الأسرة وقوادها من عجز نتجت عنه تلك الخسائر الفادحة . وقد ادى ذلك كله إلى سأم الشعب من الحرب ، فتحول السأم إلى ثورة !

## لغز اغتيال ولى عهد النمسا !

كذلك يمكن القول ، من جهة اخرى ، ان إهمال قلم المخابرات النمسوية فى الوقوف على مؤامرة اغتيال ولى عهد الامبراطورية فى ( سراجيفو ) ، قبل وقوع الجريمة ، كان هو السبب المباشر فى نشوب الحرب العالمية الأولى .. فلقد وقع حكام امبراطورية النمسا والمجر تحت تأثير رجال حاشيتهم ، الذين زينوا لهم ان الحرب واقعة لا محالة ، فعجزوا عن ضبط اعصابهم حين وقع ذلك الاغتيال ، وعجلوا بنشوب الحرب — برغم انه كانت فى النمسا يومئذ عناصر مسالمة تنفر من فكرة الحرب ، كما كانت فى كل من المانيا وروسيا عناصر مماثلة تتمسك بالسلام ..

ولنستعرض الآن المقدمات الخفية التى أدت إلى وقوع ذلك الحادث : كانت النمسا قد استولت على منطقة ( البوسنة ) ، كنصيبها من الامبراطورية العثمانية التى أخذت تنهار وتتفكك .



لكن سكان هذه الولاية كانوا من اصل صربى ( اى سلافى ) ، فكانوا يطمحون إلى الاتحاد مع واحدة من الدويلات الصغيرة الأخرى المنحدرة من الجنس السلافى ، وهى الصرب المجاورة لها ، فأحنقهم ان يتخلصوا من نير الامبراطورية العثمانية ليقعوا تحت نير الامبراطورية النمسوية !.. وكانت الجمعيات السرية شيئا مألوفا فى البلقان فى ذلك الوقت ، إذ كانت بمثابة « التركة » التى خلفها الخضوع طوال مئات من السنين لحكم عثمانى فاسد ، وكانت من هذه الجمعيات جمعية « نارودنا أودبرانا » ، التى عرفت فى الخارج باسم اليد السوداء ( راجع العدد رقم (٥٦) من « كتابى » ) . وهكذا بينما كان السياسيون منصرفين إلى إلقاء الخطب الحماسية ، كان عزم هذه الجمعية منصرفا إلى العمل!.. فلما جرت مناورات الجيش النمسوى فى ( البوسنة ) خلال شهر يونيو عام ١٩١٤ ، شهدها الأرشيدوق النمسوى — ولى العهد — فبدا لتلك الجمعية أن الفرصة سانحة للانتقام ، وللرد على هذه المناورات . وقد ساعد غباء النمسويين فى ذلك الحين على تنفيذ المؤامرة ، فقتل الأرشيدوق .. بينما كان من السهل على جواسيس النمسويين أن يحبطوا المؤامرة ، لو تسللوا إلى صفوف تلك الجمعية السرية التى كانت معروفة وملحوظة النشاط يومئذ ، سيما وأنهم كانوا يتوقعون نشوب الحرب بينهم وبين الصرب قبل ذلك بزمن طويل ، بل وكانت لهم منظمة كبيرة للتجسس فى هذه الدولة .. واكثر من ذلك ، أن تلك المؤامرة التى ذهب ولى عهد النمسا ضحيتها — وغيرها من المؤامرات الأخرى — كانت موضع ثرثرة الناس فى المقاهى العامة !

على أن هناك فريقا من الناس يعتقدون أن الجواسيس أبلغوا النمسا فعلا بهذه المؤامرة ، وأن الأرشيدوق لم يكن محبوبا بسبب آرائه المتحررة ، كما أنه كان على خلاف مع عمه الامبراطور بسبب زواجه .. فسمح له الحكام الذين يعرفون المؤامرة بزيارة ( سيراجيفو ) فى يوم حداد الصرب على بقاء ولاية منها تحت حكم النمسا .. وفى الوقت نفسه لم يزودوه بحراسة قوية من رجال البوليس ! وإذا صح هذا الظن فان ثمن جنونهم كان أضخم من أن يحسب له حساب ، فقد أدت هذه الجريمة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى ، التى مات وجرح فيها الملايين ، بل ونجم عنها انهيار الامبراطورية النمسوية ذاتها ، وفصل المجر عنها ، وضم أجزاء أخرى منها إلى كل من الصرب والسلوفاك ، لتكوين دولتى يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا .. إلى آخر سلسلة التطورات التى جعلت من النمسا دولة صغيرة منذ ذلك التاريخ .. إلى اليوم !

## ضربة معلم .. افنت نصف مليون إيطالى !

ومما يؤيد شبهة البعض فى أن يكون قلم المخابرات النمسوى قد وقف على تفصيلات تلك المؤامرة قبل وقوعها ، أن ذلك الجهاز من أجهزة الجاسوسية كان متصفا بالكفاية الفعالة، إلى حد أنه حقق فى أثناء الحرب ما يعتبر بمثابة « ضربة معلم » فى تاريخ الجاسوسية الحديثة .. وإليك تفصيل ذلك :

دخل الإيطاليون الحرب عام ١٩١٥ ، وقاموا بسلسلة من الهجمات دلت على بسالة عظيمة ، إذ برغم أن قيادتهم كانت



ضعيفة فانهم قتلوا مئات الألوف من النمسويين عبر منطقة الألب !.. والإيطالى محارب جيد ، ولكن لفترة قصيرة فقط . ولهذا ما كاد خريف ١٩١٧ يحل حتى تلاشى الحماس للقتال من نفوس الجنود الإيطاليين .. وبرغم أن النمسويين كانوا يشاركونهم هذا « الانهيار المعنوى » ، فقد رأى القواد الألمان — المشرفون على الجيوش النمسوية — أن الفرصة باتت سانحة للهجوم على إيطاليا ، وضرب عصفورين بحجر : تحطيم الجبهة الإيطالية من ناحية ، ورفع الروح المعنوية عند النمسويين من الناحية الأخرى !

فى ذلك الوقت كانت إدارة المخابرات السرية النمسوية تحت إدارة الجنرال « رونج » — الذى تحدثنا عنه من قبل فى قضية ريدل — وكان حينذاك برتبة « كابتن » فقط . وكان رجال المخابرات النمسويون قد وضعوا تقريرا دقيقا جدا دللوا فيه على ضعف القوة المعنوية لدى الإيطاليين ، وحددوا أكثر الوحدات والمناطق ضعفا، وذكروا أن حوادث إضراب وشغب قد وقعت فى المدن الصناعية مثل ( تورينو ) و ( ميلانو ) . وكانت التقارير دقيقة فشملت أسماء وعناوين الذين قتلوا فى الاضطرابات !

استغل « رونج » هذه المعلومات بمهارة فائقة ، فزور آلاف النسخ من الصحف الإيطالية المعروفة ، ذاكرا فيها التفاصيل الواقعية عن الموقف ، وأضاف إليها مقالات يستنكر فيها الأعمال الخبيثة الدموية التى تقوم بها السلطات .. بحيث بات يفهم من هذه المقالات أن إيطاليا تعيش فى فوضى .. ثم

هربت هذه الصحف إلى الوحدات الإيطالية المعسكرة فى المنطقة التى اختارها النمسويون للهجوم .. فقرأ الجنود الإيطاليون هناك أن عائلاتهم تموت جوعا ! وأن رجال البوليس المسلح لا ينقطعون عن مهاجمتها .. الخ .. وقبل أن تثبت هيئة أركان الحرب الإيطالية للجنود أن تلك الصحف مزورة ، كانت الضربة النمسوية قد وقعت !

والعجيب أنه مقابل هذه البراعة من قلم الجاسوسية النمسوى ، أبدى قلم الجاسوسية الإيطالى منتهى الإهمال والغفلة ، ولو أنه من الصعب تصور أن هذا الأخير لم يعلم بأمر الهجوم الألمانى النمسوى قبل وقوعه ، فقد كانت التحركات العسكرية التى سبقته ضخمة وواسعة النطاق بحيث لا يعقل أنها خفيت عن علم القواد الإيطاليين . والتفسير المقبول هو أن هؤلاء كانوا من الصلف والغرور بحيث لم يقدروا الخطر المنتظر حق قدره !.. تؤيد هذه النظرية عدة قرائن ترجح سبق علمهم بذلك الهجوم مقدما : من هذه القرائن أن بعض جواسيس الأمريكيين فى سويسرا أنذروا إيطاليا بنبأ الهجوم المرتقب .. كما أيد النبأ جنود من أصل تشيكى أو كرواتى فروا من الخدمة العسكرية فى قوات النمسا .. ومن ناحية ثالثة التقطت داورية فى إقليم ( الفلاندر ) الفرنسى بطاقة بريد مرسلة من جندى ألمانى ، وعليها منظر من إحدى مدن الألب النمسوية المجاورة لحدود إيطاليا، وكان ذلك دليلا على احتشاد القوات الألمانية فى جنوب النمسا ، استعدادا للهجوم على إيطاليا !



ومع كل هذه القرائن ، فقد أصم قواد إيطاليا آذانهم عن كل تحذير ، وشغلوا أنفسهم بإعداد خطة هجوم من جانبهم هم.. فلما هبت العاصفة الساحقة على جنودهم الذين كانت روحهم المعنوية قد ضعفت — كما سبق البيان — انهارت جبهتهم بسرعة مذهلة ، فخسروا فى أسبوع واحد أكثر من ستمائة ألف جندى !

واضطر الحلفاء إلى إرسال ما لديهم من احتياطى إلى إيطاليا، لنجدة القوات المنهزمة .. فى الوقت الذى كان الألمان فيه ينقلون عشرات الفرق من جبهة روسيا إلى الميدان الغربى — الذى ضعفت فيه جبهة الحلفاء — فلم يحل يوم ٢١ مارس ( عام ١٩١٨ ) حتى شنوا عليهم هجومهم الكبير ، الذى أصاب الحلفاء بكارثة أخرى فادحة !

---

# الفصل الثالث عشر

## جواسيس لليابان ، من حاشية قيصر روسيا !

على أن الجائزة الأولى فى عجز رجال المخابرات وعدم كفايتهم يجب أن تمنح لروسيا القيصرية ، لا لإيطاليا . وقد يكون تفسير ذلك أن التجسس الداخلى كان يشغل النصيب الأكبر من نشاط قلم مخابراتهم ، حتى أنهم غالبا ما كانوا يفشلون أو يضعفون عندما يعملون خارج الحدود ! بل إن جواسيس بوليسهم كانوا يفشلون فى الداخل أيضا .. وقد حدث فى الحرب الروسية اليابانية أن كان اليابانيون يستأجرون خونة من الروس كانوا تابعين لقيادة القيصر نفسه !.. ومن هذا نستطيع أن نفهم أسباب انتصار اليابانيين فى تلك الحرب بسهولة !

وقد أظهر الروس أكثر من مرة ضعفا فى هذا الميدان أصابهم بأضرار جسيمة ، فكانوا إذا أرادوا معلومات عن بلد أجنبى لجأوا إلى أصدقائهم الرسميين فى تلك الدولة . فكان هؤلاء يبلغون روسيا ما تحب أن تسمعه ، وليس ما يجب أن تعرفه !

حدث فى عام ١٩٣٩ أن أقنع زعماء الحزب الشيوعى الفنلندى روسيا أن الشعب سيرحب بقواتها مفتوح الذراعين ، وأنه سيطيح بالحكومة الفاشية المتولية زمام الأمور فورا بمجرد دخول القوات الروسية !.. وعلى هذا الأساس تقدمت حامية



( ليننجراد ) نحو حدود فنلندا وكأنها ذاهبة إلى نزهة . وكم كانت المفاجأة بل الصدمة حين استقبلها الفنلنديون بأشنع هزيمة حربية ! ولم تستطع روسيا سحق الفنلنديين إلا بعد أن أعدت لهذا الغرض حملة عسكرية كاملة !

## لغز معاهدة عدم الاعتداء بين ستالين وهتلر !

وفى السنوات التى مضت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت سحابة من الريب والشكوك تحيط بالعلاقات بين روسيا والديموقراطيات الغربية . لذلك لم يدهش الذين يعرفون سياسة الحكومة السوفييتية فى ذلك الحين حين سمعوا أن روسيا والمانيا النازية قد وقعتا ميثاق عدم اعتداء فى أغسطس ١٩٣٩ .. ولو أن فريقا آخر اعتبر الأمر لغزا عسير التفسير ، فلقد كان واضحا أنه إذا هزمت المانيا النازية جميع الدول الغربية فانها ستتحول بعد ذلك إلى روسيا . ومع ذلك فان الحكومة السوفيتية ظلت تعلن « زمالتها الروحية » للرايخ النازى !.. وكانت تبعث إلى هتلر بتهنئات دورية وهو يتغلب على مقاومة دولة صغيرة بعد أخرى !.. بل حدث ما هو أعجب من ذلك ، فان روسيا تمسكت بإخلاص بالجانب الاقتصادى من اتفاقيتها مع الألمان ، وظلت ترسل كميات كبيرة من المواد الحربية إلى المانيا ، إلى أن نشبت الحرب بينهما !.. بل لقد كانت الدولتان تشتركان معا فى احضار أثقال من المطاط من الشرق الأقصى ، بقطارات سريعة خاصة !

على أنه كان واضحا مع ذلك ، قبل الهجوم الألمانى بعدة شهور ، أنه واقع لا محالة . وقد أمر هتلر بذلك الهجوم فى

ديسمبر ١٩٤٠ ، عندما طلب مولوتوف عقد اتفاق جديد يعطى روسيا نصيبا اكبر مما يجب من « غنائم الحرب » ، اى من الدول الصغيرة التى كانت الدولتان الكبيرتان تقتسمانها !.. والواقع أن رحلة « هيس » إلى بريطانيا كانت دليلا ماديا على قرب وقوع ذلك الهجوم : فقد حاول إقناع بريطانيا — او تخويفها — كى تعقد الصلح مع المانيا وتخرج من الحرب . وكان واضحا أنه أراد ذلك ليحمى مؤخرة المانيا ، حتى تتفرغ لمهاجمة روسيا !

بل لقد حدث قبل ذلك ان عرفت مخابرات الغرب ان القوات الألمانية ترسل فى حشود كبيرة صوب الحدود الشرقية . وكان واضحا ايضا أن الغرض من حملات الألمان العسكرية فى البلقان هو حماية جناحهم . وظهرت علامات أخرى تنبىء بقرب غزو روسيا : منها سحب الوحدات الألمانية المدرعة من الميادين الاخرى ، وإنشاء مطارات جديدة فى بولندا ، وغير ذلك .. وقد أخطر الغرب روسيا بذلك اكثر من مرة . ولكن الروس كانوا يتجاهلون هذه التحذيرات ، ويعتبرونها مجرد حيل من دول الغرب للقضاء على روح الاتفاق الروسى الألمانى ! وكانت معلومات الأمريكيين عن ذلك الاستعداد الألمانى للهجوم أجدر بالاهتمام من سواها ، فقد كانوا محايدين إلى ذلك الحين . وكانوا أحرارا — إلى حد ما — فى التحرك والانتقال كما يريدون فى انحاء أوربا .. فلما قدم الأمريكيون هذه التحذيرات إلى روسيا ، قال عنهم السوفييت انهم دعاة حرب .



## تشرشل يعلم بالهجوم الألمانى على روسيا قبل وقوعه بأيام !

وفى أوائل شهر يونيو من ذلك العام ، كان الموقف قد أصبح واضحا جدا ، فان حشد ٣٥٠ فرقة على حدود دولة لا يمكن ان يظل سرا خافيا عن هذه الدولة ! ومع ذلك ظلت روسيا تقول انها صديقة برلين ، برغم ان الألمان كانوا قد طردوا ، ابتداء من شهر مارس ، ممثلى روسيا من المنطقة التى ستصبح ميدانا للحرب .. ولكن حتى هذه العلامة المشئومة تجاهلها الروس بدورها !.. وهكذا بات الموقف غريبا جدا ، فان الاتحاد السوفييتى تخلى عن كل شىء ليرضى شريكته المانيا .. حتى لقد اعترفت روسيا فجأة بحكومة « رشيد عالى الكيلانى » فى العراق ، وبفتوحات المانيا فى بلجيكا والنرويج واليونان ويوغوسلافيا .

وقد دفعت روسيا ثمن هذا الخطأ المريع ، وكان ثمنا هائلا! .. فعندما ضرب الالمان ضربتهم فى ٢٢ يونيو ١٩٤١ ، اخذت الجيوش الروسية على غرة .. فدمرت الطائرات الألمانية مئات من الطائرات السوفييتية وهى لا تزال على ارض المطارات . واحاط الألمان بجيوش روسية كاملة ، قبل ان تعرف انها فى حالة حرب ! وإلى اللحظة الأخيرة السابقة على الهجوم كانت روسيا تحمل على بريطانيا وامريكا .. وبعد ساعات قليلة كانت تطلب منهما العون والنجدة !

ومما هو جدير بالذكر ان تشرشل كان مطلعا على دقائق الموقف ، قبل الهجوم الألمانى بأيام ، حتى انه اعد — مقدما — خطابا هاما عن الموقف الجديد الناشىء عن هذا الهجوم !

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن فى هذا المقام هو : هل عجز الجواسيس ورجال المخابرات الروس عن ملاحظة مثل هذا الاستعداد الألمانى الواسع النطاق ؟

إننا نعرف الآن أن المخابرات الروسية لم تفشل او تعجز عن أداء مهمتها ، فقد لاحظت الحشود الألمانية فى الوقت المناسب ، وابلغت أمرها إلى ( الكريملين ) .. ولكن الزعماء السوفييت تلقوا رسائل سرية من بعض الشيوعيين الألمان تقول إنه إذا حدث هجوم على أرض روسيا المقدسة فان الشعب الألمانى سيرفض الزحف !.. وقد فضل الروس الإيمان بهذه التقارير « العاطفية » على الاستماع إلى تحذيرات مخابراتهم العسكرية ، ومخابرات البلاد الأخرى المعادية لألمانيا النازية !

وكانت غلطة من الغلطات البارزة فى تاريخ السوفييت .

---



# الفصل الرابع عشر

## جاسوس مجرى يهودى ، ينتخب عضوا بمجلس العموم البريطانى

إن بطل هذه الحوادث الخارقة التالية رجل يدعى « تربتش لنكولن » ، تعد سيرته اغرب من الخيال الذى نطالعه فى القصص .. فلئن استطاع بعض جواسيس الدول أن يتسللوا إلى جيوش أعدائهم ، فان « لنكولن » استطاع أن يصبح فى يوم من الأيام عضوا فى مجلس العموم البريطانى !

ولد « تربتش » يهوديا مجريا . وزار لندن فى شبابه .. ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح واعظا فى كنيسة مذهب ( الميثودست ) فى كندا . ثم عاد إلى إنجلترا ليترك هذا المذهب إلى مذهب آخر هو التابع لكنيسة ( الانجليكان ) ، فعين واعظا وراعيا لأبرشية ( ابلدور ) ، بمقاطعة كنت ، وكان فى هذا الوقت قد اكتسب الرعوية البريطانية !!

واقترن بيهودية من المجر .. فلما مات أبوها ، تاركا لها ثروة كبيرة ، ترك الزوج الوصولى الكنيسة ودخل ميدان السياسة !.. ولم يكن ذلك عسيرا حينذاك على رجل بارع الحيلة ، له وسائله المالية الخاصة ، وصلاته بالكثيرين من ذوى الشخصيات « النافعة » .. سيما وقد كان الساسة الذين أوتوا عقولا متحررة يميلون إلى محاباة رجل له مثل هذه الأرومة !

وهكذا استطاع « لنكولن » قبل عام ١٩١٠ ان يدخل الانتخابات ، ويصبح عضوا فى البرلمان البريطانى عن دائرة ( دارلنجتون ) — وإن كان لم يتفوق على منافسه إلا بتسعة وعشرين صوتا فقط — فلما نشبت الحرب العالمية الأولى عرض «خدماته» على تشرشل ، وغيره من المسئولين عن إدارة الحرب .. ولكنهم رفضوا هذه الخدمات ، وإن كانوا قد استخدموه فى مكتب الرقابة وقتا قصيرا .. وكان فى ذلك الوقت قد ترك مجلس العموم ، وتورط فى إحدى أزماته المالية فى عملية تزوير شيك ، لكن أصدقاءه عاونوه على طى صفحة هذه الجريمة !

غير أن الرقابة كانت عملا « هادئا » بالنسبة له ، فاتصل بالاميرالية وعرض عليها مشروعا غريبا لمخادعة جزء من الأسطول الألمانى وإخراجه إلى بحر الشمال للايقاع به ! ولكن البحث فى هذا المشروع كان سيؤدى إلى اطلاع « لنكولن » على مواقع أسطول الحلفاء ، ولهذا رفضوا اقتراحه .

عندئذ ذهب لنكولن إلى روتردام ، بهولندا — وكانت محايدة — ليثبت انه جدير بالعمل فى مخابرات الحلفاء . وهناك اتصل بجاسوس ألمانى ، واستغل هذه الصلة عند عودته إلى بريطانيا زاعما أنه حصل عن طريقها على الشفرة السرية للجاسوسية الألمانية . وقدم للسلطات الشفرة التى كان فى الواقع قد اخترعها !.. ولكن المخابرات البريطانية لم تكن ساذجة كما تصور ، فعمدت قبل الاطمئنان إلى صحة الشفرة المذكورة إلى



تجربتها ، بإرسال عدة رسائل بوساطتها إلى القيادة الألمانية .. وإذ ذاك ثبت لهم أنها زائفة !.. فدعاه مدير المخابرات البحرية إلى زيارته ، ثم تحدث إليه بطريقة عابرة عن تزويره الشفرة .. فذهل لنكولن لكشف حيلته !.. ثم أشار المدير إلى أن جواز سفره سينتهى بعد أيام ، فأدرك أنهم يزمعون إبعاده إن لم يسافر من تلقاء نفسه !.. فركب سفينة ذهبت به إلى الولايات المتحدة ، التى كانت يومئذ ما تزال ملتزمة الحياد .

وهناك استطاع الرجل بدهائه أن يتصل بجواسيس ألمانيا . فزعم لهم انه كان فى إنجلترا للتجسس عليها ، وانه لا يضمر لها إلا البغض . وانه اشتغل فيها بالسياسة ليتعرف إلى الشخصيات الكبيرة ، ويستمع إلى ما تلوكه الألسنة من أحاديث .. وانه اندفع بعد ذلك إلى التجسس بكل ما فيه من قوة !

على أن خصومه الإنجليز كانوا أخبث منه ، فأثاروا من جديد قضية الشيك الذى كان قد زوره . وطلبوا من الولايات المتحدة ان تسلمه ، باعتباره مجرما عاديا متهما بالتزوير ، فاعتقلوه ! .. على أن رجل البوليس الأمريكى الذى اعتقله لم يكن حذرا ، فقد طلب لنكولن إليه ان يمكنه من دخول مرحاض ، فسمح له بذلك .. لكنه انتهز الفرصة وقفز من النافذة !.. وقد زعم بعد ذلك انه منذ ذلك اليوم صار يتخفى فى زى قس مرة ، وفى زى بحار سكير مرة ثانية ، وفى زى مزارع من المقاطعات الأمريكية الغربية الوسطى مرة ثالثة .. الخ .. وانه كان يأكل فى نفس المطعم الذى كان يرتاده رجال البوليس

الأمريكى الذين يبحثون عنه !.. ولكن اكثر هذه الحوادث كان من نتاج خياله الخصيب ..

ويبدو أنه غالى فى الثقة بمهارته ، فقد اعتقلوه آخر الأمر ، و « شحنوه » إلى الخارج .. ثم حاكموه فى إحدى دول الحلفاء وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات ، كمزور وليس كجاسوس !

ومن الأقاويل التى لاكتها السن الكثيرين فى ذلك الحين تساؤلهم : لماذا حاكموه كمزور مع أن عقوبة التزوير أخف من عقوبة التجسس ؟.. هل لأنه كان له أصدقاء من ذوى المناصب المالية ؟ أم لأن تهمة التجسس تمس كرامة البرلمان البريطانى الذى كان عضوا فيه ؟

### الخيانة والغدر .. فى دمه !

وبعد السجن ، طرد « لنكولن » من بريطانيا ، عام ١٩١٩ .. فهرع كعادته إلى ألمانيا وهو يدعى الخصومة لبريطانيا ! وبدأ يدعو إلى تحالف ألمانيا وروسيا والصين ، لسحق بريطانيا! .. وكان أول ما فعله فى هذا السبيل أن اتصل بالكولونيل «باور» الذى كان يضع خطة ثورية لقلب حكومة ألمانيا حينذاك، ولكن روح الخيانة والغدر عاودت « لنكولن » ، فحاول أن يبيع أسرار هذه الخطة للامبراطور غليوم الثانى، الذى كان منفيا فى هولندا . ولكن الامبراطور كان أعظم منه دهاء وأشد مكرا ، فأبى الإصغاء إليه ..



ومضى « باور » فى مؤامرته ، فحاول قلب الحكومة فعلا ولكنه فشل . وكانت محاولة رجعيـة لقلب الحكومة الديمقراطية الشابة التى كانت تبذل كل جهد لقيادة سفينة ألمانيا إلى مصيرها ، وسط مسالك حرجة ، بعد أن خرجت مهزومة من الحرب العالمية الأولى ، وكان عليها أن تبنى كل شىء من جديد .

أما لنكولن ففر إلى بودابست عاصمة المجر .. ولم يلبث « باور » أن دبر ثورة أخرى ، وعندما أوشكت مشروعاته أن تتم ، باع لنكولن أسرار المؤامرة للغرب ، ثم أبحر إلى الصين ليكون بعيدا عن متناول « باور » وانتقامه !.. ومع أنه لم يكن يعرف شيئا عن الصين ولغتها ، فقد توصل إلى أن يتولى منصب المستشار لأقوى قائد صينى .. وساهم فى خلق مرحلة جديدة من مراحل الحرب الأهلية التى كانت تجتاح الصين وتشيع فيها التخريب والدمار . ولقى رئيسه نجاحا فى خططه ، حتى غالى فى طموحه فهاجم ( شنغهاى ) ، وبذلك أثار اهتمام الدول الأجنبية التى كانت تملك مؤسسات تجارية كبيرة هناك . فردت عليه ردا قاسيا ، حطم أحلامه كلها .. وإذ ذاك اضطر لنكولن إلى التعجيل بالخروج من الصين !

وعرج فى رحلته على ( كولمبو ) عاصمة سيلان ، فأثر فى نفسه شيئان : أولهما الديانة البوذية التى اجتذبته . أما الأمر الثانى فهو أنه عرف بطريق المصادفة أنهم حكموا بالإعدام على ابنه الوحيد فى إنجلترا ، بتهمة القتل !

## يثير الرعب .. أينما حل !

وحاول الوصول إلى لندن ، ولكن دون جدوى ، فعاودته كراهيته لبريطانيا ، ورجع أدراجه إلى الصين ، حيث أصبح راهبا بوذيا باسم « شاوكونج » ، ولبس زي الكهنة التقليدى. ولكن المخابرات الأوربية لم يخدعها تصوفه ، فاضطر إلى الخروج ، وحاول مرة أخرى أن يصل إلى إنجلترا فى رحلة « روحية » ، للدعاية للديانة البوذية ، ولكنهم عرفوا حقيقة شخصيته عندما مرت سفينته بميناء سنغافورة .. ومع ذلك استطاع أن ينجو بنفسه وأن يسافر إلى برلين .. ففزعت السلطات الألمانية من وصول الرجل الذى كان يبذر بذور الفتن والثورات والحروب الأهلية حيثما حل ! .. فاقتادوه فى هدوء إلى حدود بلجيكا . ولكن البلجيكيين رفضوا قبوله ، قائلين إنه لا شك سيكون أسعد حالا لو عاد إلى الصين !

واستطاع الرجل أن يعود إلى الصين !!.. لكنه لم يعد كراهب بوذى ، وإنما كرئيس لدير من أديرة هذا الدين ! .. ومع هذا لم يرضه الهدوء والاستقرار ، فسمحت له السلطات الكندية بأن يسافر إلى كندا ليلقى فيها سلسلة من المحاضرات. ومن هناك نجح فى الحصول على إذن بدخول إنجلترا ، لكنهم عادوا إلى طرده من جديد .. فرجع للمرة الأخيرة إلى الصين، لينتظر حتى « تدمر مدنية الغرب المتعفنة مجتمع الصين » .. وعندئذ ينفذ مشروعاته لخلق مجتمع جديد !

لكن الموت لا يبقى على خطط الإنسان ولا يذر !.. وبرغم أن قصة « لنكولن » هذا ليست بالشىء الجديد على مؤرخى



الحروب ، فانى أستطيع أن أقول مرة أخرى انه أصاب العالم بضرر بالغ .. فقد شجع الثورات فى كل مكان حل به ، فدفع ألوف الأرواح إلى الموت !

## « هتلر » يخرج من الظلال إلى الضوء !

ونعود إلى انقلاب « باور » الذى فشل فى ١٩٢٠ . فقد كانت جماعته فى برلين تنتظر قبيل ذلك الفشل وصول بعض الأعوان من ( بافاريا ) .. فلما فشل الانقلاب أسرع لنكولن إلى المطار ليحذر المتآمرين القادمين !

وفى تلك الأثناء وصلت طائرة ، وخرج منها رجل .. لكن لنكولن دفعه إلى مكانه من الطائرة مرة أخرى ، وطلب إليه أن يعود إلى ( بافاريا ) ، وإلا فانه سيعتقل !.. فامتثل الرجل وعاد ، فنجا بذلك من السجن .. لكن هذا كلفه انتظار عشر سنوات أخرى ليعد انقلابه ..

وكان هذا الرجل هو « أدولف هتلر » !

ولو افترض المؤرخ أن فيما زعم لنكولن عن مغامراته شيئا من المغالاة ، فان هناك أدلة كثيرة تبين أن حياته كانت فريدة فى تاريخ الدسائس الدولية !.. ومهما يكن من شىء ، فقد يكون ثمة نصيب من الصحة فى ادعائه بأنه لم يفعل ما يشين وطنيته — بصفته من رعايا المجر ، حليفة ألمانيا — أثناء تجسسه ضد بريطانيا ، عدوة بلاده .. أو فى قوله بأنه ما دام الإنجليز « مغفلين » إلى حد مكنه من التغلغل فى أوساطهم الحكومية ، فلماذا لا يستفيد من حماقتهم هذه ؟!

# الفصل الخامس عشر

## الجاسوس « الرومانتيكى »

## الذى حصل على خطة غزو هتلر لبولندا !

والمغامرات « الرومانتيكية » فى حياة الجاسوس قليلة ، ومع ذلك ففى تاريخ الجاسوسية رجل انصرف إلى هذا الميدان فدفعه إلى الكارثة .. وإلى الموت !

كان الكابتن « سيرج سوسنوفسكى » ضابطا بولنديا من أسرة عريقة . وكان شابا جميلا حسن الرواء ، له طريقة ساحرة فى الحديث والتصرف ، وشخصية تجتذب النساء !.. وبحكم حبه للمغامرة ، وطلاقته فى التكلم باللغة الألمانية ، رأى أن يتطوع للقيام بأعمال التجسس .. فلما انتهى تدريبه بعث به البولنديون إلى برلين . وكان الستار الذى تستر وراءه عاديا : فقد تخفى فى شكل مندوب تاجر ( قومسيونجى ) . وقد أدى دوره ببراعة ، فتعرف إلى عدد كبير من الناس ، ثم سيطر على بعض الأعوان ونثرهم فى طول المانيا وعرضها !

وبعد أن ظهر هتلر فى المانيا عام ١٩٣٣ ، أدرك البولنديون أن النازيين سيدعونهم يوما ما للزحف إلى جانب المانيا ، ضد روسيا ، أو يضطرون إلى مقاومة هجوم المانى عليهم إن رفضوا الانصياع لأوامر النازيين !.. وقد اختاروا الطريق التى سلكونها من أول الأمر ، وهى عدم التعاون مع المانيا . وتلقى



سوسنوفسكى تعليمات جديدة بهذا الشأن ، وأموالا .. وبقى عليه أن يحصل على خطة الهجوم الألمانية المحتملة على بولندا !

وبدا مهمته بمطالبة اعوانه بالاصغاء إلى حديث المقاهى . وكان هو بدوره يصغى إلى ثرثرة الدوائر العليا التى يتردد عليها فى المجتمع . وبدأ يبنى من هذه الأقاويل المتناثرة صورا للموقف ــ فان كسر خزائن وزارة الحربية وسرقة الخطط العسكرية منها لهو شىء لا يحدث إلا فى القصص الخيالية !

وكانت له سيدة يحبها ، هى البارونة « فون برج » . وكانت البارونة قد تركت زوجها لكى تهب نفسها للشاب البولندى الحلو القسمات ، ثم انتقلت إلى شقته واقامت معه . وصارت تعاونه كثيرا فى أعماله التجارية ، إذ كانت خبيرة بالناس . ولكنها لم ترتب يوما فى مهنته الحقيقية ، ولم يكن هو ينوى أن يكاشفها بحقيقة أمره !

على أن الحب يحول الرجال إلى طريق الإهمال واجتناب سبيل الحيطة ! كان « سوسنوفسكى » قد عاش سنوات بين الألمان دون أن يزل لسانه أو يخطىء ادنى خطأ . ولكنه عاد ذات ليلة مع البارونة من حفلة باهرة للطبقة الراقية ، وكان فى روح طيبة عالية ، بعد أن سمع حديثا هاما عن طائرات القتال الألمانية الجديدة من طراز « مسرشميدت » . وكان لا بد له من ذاكرة قوية لتدوين ما سمع ، فانه لم يكن طيارا ، فكتب معلوماته على ورقة دسها فى جيبه .. ثم لبى نداء البارونة التى كانت فى حالة نشوة وشوق شديد إلى مبادلته الحب . وعلى

أثر ذلك أخلد إلى نوم عميق لم توقظه منه صاحبته فى صباح اليوم التالى ، إذ انشغلت باعادة سترته الخاصة بالسهرة إلى صوان الملابس . وعندئذ عثرت بتلك الورقة فى جيبه فأدركت انه جاسوس !

وعندما استيقظ فى الصباح وروت له القصة ، قال همسا : « وماذا أنت فاعلة الآن ؟ » .. ولكن ، ماذا كانت لتفعل بالرجل الذى تحب ؟.. إن من السهل على امراة مثلها أن تجد له عذرا فى تلك الظروف . وقالت لنفسها تبرر عمله : انه يعمل ضد النازية وليس ضد المانيا على اى حال !.. ثم استدارت إليه : « ولكن هذا شىء خطر للغاية . تصور ما كان يحدث لو كانت الخادمة قد عثرت بهذه الورقة ؟! »

— إنى أعرف .. كان تصرفى جنونيا يدل على الحمق ! لكنى كنت على وشك إخفاء الورقة فى الليلة الماضية عندما حانت منى نظرة إلى وجهك ، انستنى ذلك .. بسبب حبك ! .. ولكن »

.. وضمها بين ذراعيه ، فقالت هامسة : « إلى متى تستمر هذه الحال ؟ »

— إلى أن أتم مهمتى ، فأحصل على خطة الألمان لمهاجمة بولندا! .. يجب ان أحصل على التفصيلات !

— وهل تستطيع بعد ذلك ان تعود إلى بولندا ؟

— نعم .

— إذن سأعاونك !



انشغلت بإعادة سترته الخاصة بالسهرة إلى صوان الملابس .. وعندئذ عثرت بتلك الورقة فى جيبه فأدركت أنه جاسوس !

## الفراشة الجميلة التى سقطت فى الفخ !

وبهذا بدأت قضية من أعجب القضايا الخاصة بالتجسس فى التاريخ !.. قضية تتابعت فيها لحظات من الدراما .. والدسائس .. والمأساة !.. فقد وضعت البارونة « فون برج » الخطط لإنقاذ الشاب الذى تحب من الخطر المحدق به. وادركت انه كلما اسرع فى إنجاز مهمته استطاع ان يعجل بالعودة إلى بولندا ، وإلى الأمان .. فصارت تصطحبه إلى الحفلات التى تضم قوما يستطيع أن يستفيد من حديثه معهم ، فيضيف إلى الصورة التى كونها معالم جديدة كل يوم !

وجاء يوم من أيام سنة ١٩٣٤ .. كانت عشيقته تحتفى فيه بابنة عم لها هى الآنسة « فون ناتسنر » ، التى كانت تعمل كاتبة سرية فى وزارة الحربية الألمانية . وكان من تقاليد ألمانيا الا تعين فى هذا المنصب إلا من تثق بها من بنات الضباط المتقاعدين . وكان والد هذه الفتاة ضابطا برتبة كولونيل، ولكن التضخم المالى الذى حدث فى ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى كان قد أصابه بخراب شامل ، فاضطرت ابنته إلى العمل . ولكنها ما كادت تلاحظ جمال ثوب ابنة عمها البارونة حتى لسعتها عقارب الغيرة ، والرغبة فى الثراء .. فلمح « سوسنوفسكى » فى عينيها بريق هاتين العاطفتين !

واستطاع ان يعالج الخطوات التالية بمهارة ، بمعاونة البارونة ، فاقترح على الفتاة ان يمدها بالمال الذى تريد ، على أن تمده بين الحين والآخر بمعلومات عن العقود التى يعقدها الجيش مع التجار مثلا ، بدعوى أن هذه المعلومات تفيده كثيرا



فى عمله التجارى !.. ولم يكن فى الخطوات الأولى ما يريب . وصار صاحبنا يدفع للفتاة أجورا عالية ، حتى أصبحت تحت رحمته والعوبة فى يده ، بحيث بات فى استطاعته أن يحصل منها على ما يريد ، وهى التى لم تألف من قبل سعة العيش فأدار رأسها أن يكون فى يدها مال كثير !.. واستأجرت مسكنا خاصا بها ، واشترت الثياب التى طالما اشتهت اقتناءها !

وكانت الآنسة فون ناتسنر تعمل فى الإدارة المالية الخاصة بالتموين والمخازن ، وتكتب على الآلة قوائم عن التموين . وكان فى استطاعة اى ضابط أركان حرب يعمل فى المخابرات أن يحصل من هذه القوائم على الخطوط الرئيسية فى اى خطة حربية أو مشروع هام . وبرغم أنه لم يكن فى الإمكان سرقة نسخة من هذه القوائم ، لأنهم كانوا يرقمون كل ورقة بعناية . فإن الشريكين اكتشفا وسيلة اخرى تدل على مهارة ، هى سرقة ورقة كربون من الأوراق التى توضع بين نسخ ما يكتب على الآلة ، وبذلك يمكن لأى إنسان ذكى أن يقرأ فيها ما كتب!

واستمر « سوسنوفسكى » فى دفع مبالغ كبيرة للفتاة ، التى كانت قد بدأت تحصل له على مادة من الطراز الأول — حتى لقد اكد للبارونة أن مهمته ستنتهى فى خلال أشهر قلائل !

## يد القدر تنسج خيوط الافتضاح !

ومرت بالشركاء الثلاثة لحظة كانت تدعو إلى القلق ! كانت أم الفتاة تعيش فى ( بافاريا ) ، فزارتها فجأة على غير انتظار. وإذ ذاك ذهلت لكثرة ثيابها وأناقة أثاثها .. فزعمت لها الفتاة أن « جنرالا » من أصدقاء والدها ( ذكرت اسمه ) كلفها بعمل

يأتيها بأجر كبير . ولكن هذا الحادث العرضى كان كفيلا بهدم كل ما بناه سوسنوفسكى !.. فقد قابلت الأم بعد ذلك بعدة أشهر هذا الجنرال فشكرته لأنه أسدى هذا الصنيع إلى ابنتها، وعندئذ أدرك الرجل أن وراء الأمر شيئا ، لكنه لزم الصمت،فقد كان رجلا صارما فى عمله . ولم يكن إلى ذلك الوقت مرتابا فى نشاط الفتاة ، بل ظن أنها لا بد قد أصبحت خليلة رجل ثرى !.. على أن الاضطراب انتاب عقله منذ تلك الساعة ، فبعث بأحد ياورانه لمراقبتها والتحرى عنها .. فلم يعثر لها على أى عشيق ثرى .. وإزاء هذا تولت إدارة مقاومة الجاسوسية الأمر .. فلم تلبث الفتاة أن ضبطت والكربون فى جيبها !

وأملا منها فى أن تنقذ حياتها من الاعدام ، أفشت سر الكابتن سوسنوفسكى والبارونة فون برج . وكان الأمر خطيرا إلى حد أن « هيدريتش » — أحد كبار زعماء النازية ورئيس الجستابو حينذاك — اعتقلهما بنفسه !

وحكم على البارونة وابنة عمها بالإعدام !.. وتحرك قلب زوج البارونة — البارون — فى اللحظة الأخيرة ، فأراد تطليق زوجته لتتزوج من « سوسنوفسكى » وتصبح رعية بولندية ، فتنجو بذلك من الإعدام ! ولكن خطته منيت بالفشل ..

وقد وصف شاهد عيان مأساة الإعدام — الذى نفذ فى فناء أحد سجون برلين ، وكان شبيها بما كان يحدث فى العصور الوسطى — فقال :

« كان الجلاد يلبس ثوب السهرة ، وكان الجزء الأسفل من وجهه مغطى بقناع أسود . وخانت الآنسة « فون ناتسنر »



أعصابها فى اللحظة الأخيرة ، فحملها ثلاثة رجال . وجعلت تقاوم وتصرخ وهم يدفعونها إلى كتلة الخشب أمام الجلاد . ثم أمسكوا بجسمها بقوة إلى أن أهوى الجلاد على رأسها بفأسه . ولكن الضربة الأولى لم تنجح ، فاضطر إلى معاودة الكرة حتى فصل الراس عن الجسد ! .. أما البارونة « فون برج » فانها تقدمت إلى مصيرها المحتوم فى هدوء . وكانت تحسب أن حبيبها الضابط البولندى على وشك أن يلقى نفس مصيرها ، فكانت تحدث نفسها فى زنزانتها عن لقائهما السعيد بعد الموت ! وقد تبدو لحظاتها الأخيرة أشبه بفصل من مسرحية ، ولكنها كانت مخلصة إلى حد أن بعض الموظفين من ذوى القلوب المتحجرة تأثروا لحالتها . فقد ركعت أمام كتلة الخشب ، ووضعت صورة لسوسنوفسكى على الأرض — كى تنظر إليها إلى أن تموت — ثم أسندت رأسها بلطف على الخشب وازاحت الشعر عن مؤخر عنقها . وتردد الجلاد لحظة — وقد رأيت العرق يتصبب من وجهه ! — وكان هذا بعد الفجر بقليل ، فى صباح يوم بارد من أيام شهر فبراير . وإذ ذاك أمره ضابط بأن يضرب .. فاستجمع ما بقى له من شجاعة وأعصاب ، وهبطت الفأس .. فتدحرج الرأس الجميل على الأرض .. إلى جوار صورة الرجل الذى أحبته صاحبته ! .. واضطروا إلى اقتياد الجلاد بعيدا ، فقد رأيته يترنح عبر فناء السجن . وسمعت أنه استقال من منصبه بعد ذلك . ولست ألومه !

## مصير « سوسنوفسكى »

وظهرت فى برلين لافتات عن إعدام اثنين من الخائنات للرايخ . ولكن ، ماذا حدث لسوسنوفسكى ؟

حكم عليه بالإعدام مثلهما ، ولكن يد القدر تدخلت فى الأمر. فان البولنديين كانوا قد اعتقلوا جاسوسة المانية ذات شأن كانت تسمى نفسها « مدام اوتسوريل » . وقد نفوا — كما جرت العادة — أن « سوسنوفسكى » كان يتجسس لحسابهم . ونفى الألمان أن « مدام أوتسوريل » كانت جاسوسة من طرفهم .. ثم اتفقوا على تبادل السجينين !

وقد كانت لهذه القضية نتائج هامة : فقد عاد « سوسنوفسكى » إلى بولندا رجلا محطما . ولكن السلطات البولندية بدأت ترتاب فى أمره ، وتخشى أن يكون قد تحول إلى جاسوس لألمانيا ، بسبب النداءات الحارة التى كان يوجهها إلى هذه الدولة كى تعفو عن عشيقته ( قبل إعدامها ) .. لذلك خشى المسئولون أن يكون قد وعد بالعمل لصالح المانيا إذا أطلقوا سراحها !

وعلى أى حال فانه اعتقل ، وقدم لمحكمة عسكرية بولندية. وأعلنت الحكومة الشيوعية فى بولندا أنه أعدم رميا بالرصاص قبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ بأيام قلائل ! .. ولكن ضابطا يعرفه جيدا أكد لى أن سوسنوفسكى فر هاربا .. وأنه يعمل الآن مع الروس !

ولا بد لأقلام المخابرات أن تنتظر معلومات أخرى قبل أن تعرف مصيره . فكلا القصتين ليس مستحيلا . والواقع أن الآلام النفسية التى انتابته كانت شديدة إلى حد آذى عقله ولم يكد يتركه سليما !

---



# الفصل السادس عشر

## الجواسيس النازيون

كانت الظاهرة الملموسة عند الجواسيس الألمان — فى الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية — هى أنهم عرفوا بالكثرة فى العدد ، دون الجودة فى العمل ! .. ومع ذلك فقد شهدت هذه الفترة تغيرا هاما واحدا فى أسس الجاسوسية . وتفصيل الأمر أن نظام التجسس الألمانى انهار مع هزيمة المانيا فى سنة ١٩١٨ ، ولكن عددا قليلا من الجواسيس — الذين كانوا قد اندسوا فى بلاد أجنبية قبل الحرب بزمن طويل ، واستقروا فيها دون أن تحوم حولهم اية شكوك — ظلوا متشبثين بعملهم، مؤمنين بأن الجمهورية الألمانية التى قامت فى أعقاب تلك الحرب لن يقدر لها أن تدوم طويلا ، لأنها مناقضة لجميع المبادىء القومية التى يؤمن بها الألمان ، ومن ثم فلا بد من أن تولد حكومة قومية تعيد لألمانيا مجدها ، فيسترد الجواسيس ما كان لهم فى الماضى من أهمية ..

والواقع أنهم كانوا على صواب فى رأيهم ، إذ ما لبث هتلر أن تولى الحكم ، فكان أول ما فعله أن يبعث نظام الجاسوسية الألمانى من جديد ، ووسع نطاقه إلى حد لم يسبقه مثيل ، ورصد له الاعتمادات المالية الطائلة ، فلم يجر على ما كان متبعا — من قبل — من شح فى مكافأة الجواسيس !

ولم تثر قضايا الجاسوسية الألمانية فى بريطانيا اهتماما كبيرا فى الفترة بين الحربين الأولى والثانية ، ولكن قضية معينة

منها استطاعت أن تثير ضجة هائلة ، وقد أطلقت الصحف على بطلها لقب « الضابط السجين فى البرج » ..

وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٣ ، وقد تقرر أن يقدم الملازم « نورمان بيلى ــ ستيوارت » إلى المحكمة العسكرية .. فانه برغم انحداره من أسرة ذات أمجاد عسكرية عريقة ، وبرغم انتمائه إلى فرقة « سيفورث هايلاندرز » كان سيىء السلوك والسيرة ، لم يستوعب ما تقتضيه الحياة فى وحدات الجيش من إخاء عسكرى ، فكان يحقد على من هم أرقى منه مرتبة ، ولا يكف عن التذمر ، حتى لقد قال أحد زملائه فى وصفه : « لقد بلغ به الغيظ من حظه ان أعلن وحده حربا ضد الإمبراطورية البريطانية كلها ! » .

ففى صيف سنة ١٩٣٢ ، دهش أصدقاء « بيلى ــ ستيوارت » حين علموا أنه قضى إجازته فى ألمانيا ، إذ كانوا يعرفون انه يشكو العوز دائما . ثم اشتدت دهشتهم حين عرفوا أنه رحل فى أغسطس ــ من العام ذاته ــ إلى هولندا ، ليقضى إحدى عطلاته الأسبوعية .. وكرر هذه الزيارة مرة اخرى فى شهر أكتوبر . وكان من شأن هذا الثراء ان يسترعى الأنظار ، ومن ثم فرضت رقابة على الخطابات التى كانت تصل إليه . وما لبث أن جاءه يوما خطاب احتوى على خمسين جنيها أرفقت برسالة من سيدة وقعت باسم « مارى لويز » ، تشكره على أن أقرضها هذا المبلغ من قبل . واسلمته السلطات الرسالة وقد ازدادت شكوكها فيه ، إذ لم يعرف عنه يوما انه امتلك خمسين جنيها تزيد عن حاجته ، بحيث يستطيع أن يقدمها قرضا لأحد ! .. ولهذا زيدت الرقابة عليه ، فظهر أنه تلقى بعد ذلك رسائل



مماثلة ، كلها من « مارى لويز » ، التى كانت تكتب اسمها بأشكال شتى : فهى تضيف إليه بعض حروف تارة ، أو تنتقص من حروفه تارة أخرى ، شأن الكاتبة غير المتثبتة من هجاء اسمها .. اما الضابط ، فكان يوقع ردوده باسم « ألفونس بواريه »!

وعندما سئل « بيلى ــ ستيوارت » عن الرسائل والمبالغ التى كان يتلقاها ، أجاب فى براعة وذكاء ، غير حافل بما فى رده من مجافاة للكرامة العسكرية .. فقد زعم أن المبالغ كانت ثمنا لخدمات جنسية كان يؤديها للمرأة !.. وشد ما ذهل « الكولونيل » الذى كان يستجوبه حين أضاف الضابط قائلا انه لم يكن يصطحب المرأة إلى فندق ما ، وإنما كان يؤدى لها « الخدمات الجنسية » فى حديقة عامة لم يذكر موقعها ، وإن تذكر انها كانت تضم بين جنباتها بحيرة !

ولكن الوقائع أظهرت ان « بيلى ــ ستيوارت » سرق أسرارا عن الدبابات والبنادق الأوتوماتيكية ، وأنه باعها للألمان ، فقضى عليه بالسجن خمس سنوات .. لا لأن الأسرار التى باعها كانت خطيرة او هامة ، ولكن لانه عمل كجاسوس لدولة اجنبية ! .. ومع ان الحظ حالفه ، فأخلى سراحه فى سنة ١٩٣٦ بعد ان قضى ثلثى المدة ، إلا انه خرج من السجن مصرا على أنه كان بريئا ، وذهب فى ادعائه إلى درجة أوحت إلى البعض بأنه كان ضحية مؤامرة او دسيسة ! .. وقد استشارتنى سيدة ــ إذ ذاك ــ فى أن تتبرع له بمبلغ من المال يبدأ به حياته من جديد ، ولكننى نصحتها بأن تتريث .. وما هى إلا أسابيع قلائل، حتى فوجىء كل من عطفوا عليه باعتراف كامل نشره باسمه فى

إحدى الصحف الشعبية ، مسجلا على نفسه انه كان يقدم الخدمات للألمان !

وفى سنة ١٩٤٥ ، وقع «بيلى – ستيوارت» فى أيدى الحلفاء، وقدم للمحاكمة ، فاقترح القاضى إعادته إلى ألمانيا . ولكن الحكومة العسكرية التى أقامها الحلفاء هناك رفضت أن تسمح له بالعودة ، ومن ثم حوكم من جديد فى انجلترا ، حيث قضى عليه بالسجن خمس سنوات ، لخرقه قوانين الدفاع !

ولا تكمن قيمة هذه القضية فى تفصيلاتها ووقائعها ، وإنما تكمن أهميتها فى أن « بيلى – ستيوارت » بدا يتجسس لألمانيا فى سنة ١٩٣٢ ، وقبل أن يتولى « هتلر » الحكم بعدة شهور . . وفى هذا ما ينقض ما اعتاد الناس أن يلقوه على هتلر من لوم ! . . كذلك نخرج من هذه القضية بدرس آخر، هو أنه من العسير على الجاسوس الهاوى غير المدرب ، أن يقاوم الهيئات الفنية التى تحارب الجاسوسية .

## خطة بارعة . . لأستاذ الجاسوسية الألمانية الحديثة !

ولقد كان الكولونيل « كارل بوخس » هو الرأس المدبر لخطط الجاسوسية الألمانية فى أوربا الشرقية قبل سنة ١٩٣٩ . . وكان داهية ، لا ضمير له ، كأى « أستاذ » للجاسوسية. وعلى خلاف أبناء عنصره ، كان « بوخس » يتعلم من أخطائه، ولا يحز فى نفسه شىء قدر ذلك الفشل الذى منيت به المخابرات السرية الألمانية فى انجلترا ، فى سنة ١٩١٤ ، أى عندما قضت السلطات البريطانية على شبكة الجاسوسية الألمانية فى بلادها، فى مطلع الحرب . ولتدارك هذا الفشل ، رأى « بوخس » انه



قد يكون من الأجدى أن ينشىء شبكتين للجاسوسية فى الخارج، بدلا من شبكة واحدة . وكانت الفكرة تنطوى على دهاء عظيم . . إذ تنصرف إحدى الشبكتين إلى العمل ، بينما تجتذب الشبكة الأخرى انتباه المخابرات السرية فى البلد الأجنبى ، وتذهب فى ذلك إلى حد أن يضحى افرادها بأنفسهم كى يشغلوا السلطات عن الشبكة العاملة !

ووفقا لهذه الخطة البارعة ، تدفق الجواسيس الألمان والنمسويون – رجالا ونساء – على بريطانيا ، فى شكل خدم! . . وكان اختيارا موفقا ، لأن بريطانيا كانت إذ ذاك تعانى ازمة فى الخدم . وحصلت بعض الألمانيات على الجنسية الإنجليزية بالزواج ، لا سيما وانهن وزملاءهن كانوا يزعمون انهم لاجئون من الاضطهاد الهتلرى . كذلك توافدت على انجلترا أفواج الشبان الألمان ، باسم السياحة ، فى وقت كانت ألمانيا تشكو فيه نقص مواردها من العملات الأجنبية . . وكان هذا هو ما استرعى انتباه رجال المخابرات البريطانية . وقد عثرنا فى سنة ١٩٤٥ – عند انهزام ألمانيا – على خطط كان الألمان قد وضعوها لغزو انجلترا ، اعتمادا على البيانات « الطبوغرافية » التى جمعها « السياح » عن جنوب انجلترا . . وتبين أن الحصول على الخرائط من إدارة الصيانة بوزارة الخارجية البريطانية كان ميسورا ، كما أن كتب السياحة كانت حافلة بها ! . . ومن ثم فان الحاجة لم تكن تدعو إلى إيفاد كل هذه الأفواج من « السياح » ، كما ان « تغطية » عمليات كل هذا العدد من الجواسيس كانت شبه مستحيلة . . وكانت هذه هى أهم مواطن الضعف فى خطط « بوخس » والواقع أن

ألمانيا النازية كانت مدينة بالقسط الأوفر من معلوماتها عن انجلترا ، لنفر قليلين من الألمان الذين أقاموا فى انجلترا منذ زمن طويل . . وحتى هؤلاء كانت إمكانياتهم محدودة، وفرصهم ضيقة!

وكانت هـــذه هى الخطوة الأولى فى خطط النازيين . . وقد لجأوا فى هذه الخطوة إلى بعض اساليب الجاسوسية الصريحة، واستخدموا فى ذلك عددا من الألزاسيين ، كان بينهم جنديان يعملان داخل « خط ماجينو » ذاته . على ان المؤامرة النازية لم تنكشف إلا بعد نشوب الحرب ، وكان من نتائج انكشافها ان أعدم الفرنسيون الدكتور « كورت روس » — وكان من الزعماء المطـالبين بالاستقلال الذاتى — لأنه افشى أسرارا عسكرية للعدو . وقد عمد الألمان — حين احتلوا الإقليم بعد عام — إلى تمجيد « روس » ورفعه إلى مصاف الأبطال ، ليستميلوا قلوب مواطنيه . ولكن الألزاسيين لم يتذوقوا السعادة المرجوة فى عهد الاحتلال النازى ، وبدأ دعاة الاستقلال الذاتى يشعرون بالقلق ، إذ لم تبد بادرة واحدة تبشر بالحكم الذاتى الموعود . . بل إن القرائن كانت توحى بأن الألمان استخدموهم كمجرد أدوات لتحقيق أهدافهم العسكرية . وقد ازدادت هذه الحقيقة وضوحا مع تقدم الحرب .

ولا شك فى أن الذين تجسسوا لحساب المـانيا ، فاظهروا لها أن استحكامات « خط ماجينو » كانت أضعف فى القســم الشمالى منهـا فى القسم الممتـد فى الألزاس واللورين ، قد ساهموا بنصيب كبير فى الانتصارات التى أحرزها النازيون فى بداية الحرب ، وفى تمكينهم من احتلال فرنسـا .

---



# الفصل السابع عشر

## الحظ يناصب جواسيس هتلر العداء !

يعتبر جواسيس هتلر فى المرتبة الثانية ، إذا هم قورنوا بالجواسيس الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، برغم انهم أفادوا من تقدم العلم ، فكان لهم فى أجهزة الارسال اللاسلكى خير عون كان يفتقده الجواسيس السابقون . . ولقد وقع جواسيس هتلر فيما وقع فيه جواسيس غليوم ، إذ مكن نشاطهم ونظامهم رجال المخابرات السرية البريطانية من ان يكتشفوا أمرهم ، وان يمسكوا عن اعتقـــالهم ويتركوهم يعملون دون ان يفطنوا إلى انهم كانوا مراقبين ، وبذلك كانوا يكشفون عن المزيد من عملياتهم وعملائهم وعمالهم ! . . وما ان نشبت الحرب العالمية الثانية — فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ — حتى بادرت السلطات البريطانية إلى شن غارات بوليسية واســعة على أوكار هؤلاء الجواسيس ، واعتقلت منهم كثيرين . . ومع ذلك فان الأحداث دلت على ان هذه السلطات كانت متساهلة ، وأنها لم تأخذ فى معالجة الجاسوسية الهتلرية بما كان ينبغى من حزم ، إلا بعد انسحاب القوات البريطانية من ( دنكرك ) . . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى ان إدارة المخابرات البريطانية و « القلم الخاص » باسكتلنديارد ، شغلا خلال الشهور الثمانية — التى انقضت بين بدء الحرب وغزو فرنسا وبلجيكا — بالشكاوى التى انهالت عليهم ، عن أولئك الذين كانوا يضيئون الأنوار أثناء الغارات ، أو الذين كانوا يخفــون أجهزة إرســال لاسلكية . . وكان

الاضطراب العصبى يسود البلاد ، فيوحى بالشبهات لأتفه بادرة من البوادر !

والواقع الذى نستخلصه من سجلات الجواسيس الألمان الذين برزوا فى الحرب العالمية الثانية ، أنهم كانوا ضعاف المستوى ، وكان تدريبهم سيئا ، مما أدى إلى وقوعهم فى أخطاء ربما بدت تافهة ولكنها كانت كافية لأن تكشف حقيقتهم .

وكان أول بريطانى شنق فى انجلترا لتجسسه — فى الحرب العالمية الثانية — مجرد محتال أراد الحصول على المال بأيسر الطرق .. وكانت القصص التى سمعها قد أوهمته بأن الجواسيس يكسبون أموالا طائلة . لذلك اقدم عندما عرجت سفينته يوما على ( لشبونة ) — وكان مهندسا بحريا — على الاتصال بالألمان هناك ، عارضا خدماته .. ولكنه قوبل بالرفض ، إذ ارتابوا فى أنه ربما كان جاسوسا انجليزيا يحاول التسلل إلى صفوفهم .. ولكن القنصلية الألمانية فى نيويورك أتاحت له الفرصة .. فرصة السير إلى حتفه بقدميه ، لأنه لم يفطن إلى أن المخابرات البريطانية كانت تبذل نشاطا جبارا فى البلاد المحايدة ، ومن ثم بدأت تتعقبه من ( لشبونة )!

والظاهر أن الحظ نفسه كان يناصب جواسيس هتلر العداء ، فكان هذا العداء ينتهى بهم — سواء كانوا من الألمان أو من الخونة — إلى الإعدام . وسواء كان الإعدام شنقا أو رميا بالرصاص ، فان النتيجة واحدة ! .. وتحضرنى هنا قصة حادث وقع فى أغسطس سنة ١٩٤١ ، وكان الألمان قد قلبوا



خططهم الجاسوسية راسا على عقب ، بعد الفشل الذى أصيبوا به .. فقد عدلوا عن استخدام الألمانيين فى البلاد الأجنبية ، إذ انهم برغم حذقهم للغات، كانوا يفتقدون إجادة النطق الصحيح. ومن ثم أخذت الجاسوسية الألمانية تستعين بهولنديين وبلجيكيين يتسللون إلى أراضى الحلفاء على أنهم لاجئون آثروا أن يهجروا بلادهم بعد الاحتلال النازى! .. وكانت نقطة الضعف فى هذه الطريقة ، أن بعض هؤلاء الجواسيس كانوا من المجرمين المسجونين ، وقد مناهم الألمان بالخلاص من تبعات جرائمهم إذا عملوا فى الجاسوسية ، لذلك كان همهم الأول هو الخروج من السجون .. ولقد كان نصيب انجلترا من هذا الصنف من الجواسيس كبيرا ، ولكن الواحد منهم كان يبادر إلى الاعتراف بكل شىء بمجرد وقوعه فى أيدى السلطات .. وعندما تكشفت هذه الحقيقة ، استعانت المخابرات السرية بضباط هولنديين وبلجيكيين من رجال قوات الحكومات الحرة ، ليتولوا تحرى حقيقة أمثال هؤلاء الجواسيس ، والتحقيق مع من يقع فى أيدى السلطات منهم !



# الفصل الثامن عشر

## سر الجاسوسة الغامضة !

هذه قصة خليقة بأن تثير اهتمام علماء النفس أكثر مما تثير اهتمام الذين يدرسون تاريخ الجاسوسية ، إذ أن الطبيب النفسى يعرف ما فى الحديث من أكاذيب معتمدة ، أو ثرثرة متهوسة . فقد كانت مسز « دوروثى باميلا اوجرادى » — من سكان ( سانداون ) بجزيرة ( وايت ) — المرأة الوحيدة فى بريطانيا التى حكم عليها بالإعدام أثناء الحرب ، بسبب التجسس .. ولم تكن من الحسان ، بل انها كانت فى أواسط العمر ، تضع نظارة على عينيها ، وقد أوتيت قامة قصيرة مكتنزة ! .. وكانت زوجة رجل وقور ، كان من رجال المطافىء يوما ثم تقاعد . ولقد عرفت هذه المرأة بين جيرانها بقلة أصدقائها ، وميلها إلى العزلة ، وشغفها بالتريض سيرا على قدميها .. وكانت هذه الرياضة تقودها إلى السير على مقربة من المنشئات العسكرية ، إذ كانت جزيرة ( وايت ) من أهم مراكز الدفاع الجوى عن ( بورتسماوث ) .

ولم تفطن مسز «أوجرادى» إلى أن هناك عيونا لاحظت أنها كانت تسجل ملاحظات ، وترسم مواقع أثناء سيرها .. فان السلطات فطنت إلى أن نزهاتها لم تكن بريئة ، فبدأت تراقبها لتعرف الذين كانت تتصل بهم المرأة وتسلمهم ملاحظاتها ورسومها .. ولكنها لم تلبث أن أضافت إلى نشاطها محاولة قطع الأسلاك التليفونية التى تربط الجزيرة بانجلترا ، وإذ ذاك اضطرت السلطات إلى التدخل فى حركاتها .. ولكن المحققين



كانوا تواقين إلى أن يعرفوا شركاءها ، فلم يوجهوا إليها تهمة التجسس ، وإنما اكتفوا بأن اتهموها بمخالفة القانون والاقتراب من منطقة محرمة .. ثم اخلوا سبيلها بكفالة . وإذا بها تختفى .. ولكن السلطات استطاعت أن تعثر عليها فى ( يارموث ) ، فقدمت إلى المحاكمة — فى جلسة سرية — بتهمة الخيانة .. وظهر من تفتيش دارها أنها كانت تحتفظ بمذكرات عن تدابير الدفاع فى الجزيرة . وإزاء الأدلة الدامغة التى كشفت عنها المحاكمة ، قضى عليها بالإعدام .

على أن الخبراء فى مطاردة الجواسيس لم يرتاحوا إلى هذه النهاية ، إذ كانوا يدركون أن لا بد من وجود صلة بين المرأة وبين جاسوس ألمانى تنقل إليه معلوماتها ، فكانوا شديدى الرغبة فى معرفة هذا الجاسوس ، بينما كانت المرأة شديدة التشبث بالانكار . لذلك سر الخبراء عندما استأنفت مسز أوجرادى الحكم .. ولكن هذا الاستئناف لم يقرب الخبراء من غايتهم ، إذ حكم القضاء بإلغاء الإعدام ، وابدل به السجن ١٤ عاما .. وظل الهدف الذى كان يسعى إليه الخبراء محوطا بالغموض ، إلى أن قدر لمسز أوجرادى أن تسترد حريتها فى فبراير سنة ١٩٥٠ ، بعد أن قضت ثلثى المدة فى السجن .

وكانت تدخر مفاجأة للمسئولين أذهلتهم .. فقد اعترفت بأنها كانت مريضة بحب الظهور ، وكانت تعانى — منذ صغرها — من عدم اهتمام الناس بها ، مما خلق لها عقدة نفسية .. فكانت فى صباها تستثير مدرساتها ومعارفها بقصص غريبة ، ذهبت فى بعضها إلى أنها قتلت أمها .. ولكنها كانت كلها قصصا مختلقة ! وعندما بدأت الحرب ، استدعى

زوجها للخدمة فى المطافىء ، فتركها وحيدة مع كلبها الحبيب . . وكان هذا الكلب هو سر البلية ، إذ ان المرأة كانت قد عودته على أن يستحم فى البحر يوميا ، فلما أقيمت استحكامات الدفاع على سواحل الجزيرة ، عز على مسز أوجرادى ان يحرم كلبها من حمامه اليومى ، وكانت تضطر فى سبيل ذلك إلى أن تسير مسافات طويلة كى تصل إلى بقعة منعزلة وراء الاستحكامات . . وصادف ذات يوم أن جلست داخل نطاق الأسلاك الشائكة ، وانصرفت إلى القراءة فى كتاب ، بينما كان الكلب يستحم ، فاذا بجنديين يسعيان إليها ويسألانها عما كانت تفعل . . وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لولا أن لاحظ أحد الجنديين علامة الصليب المعقوف مشتبكة بشعرها . فقد كان من المألوف أثناء الحرب ، أن يتتبع الناس سير المعارك على الخرائط مستخدمين دبابيس تحمل اعلام الدول لتعيين مواقع الجيوش . وقد حدث أن اشتبك علم ألمانيا — وعليه الصليب المعقوف — بشعر المرأة دون أن تفطن إليه .

ورأى الجنديان فى علامة الصليب المعقوف دليلا دامغا ، فقادوها إلى قائدهما الذى ابلغ أمرها إلى البوليس . . وادركت أثناء التحقيق أنهم ارتابوا فى أنها جاسوسة ، فبدأت غريزة « حب الظهور » توحى إليها بأن تزيد من تخبطهم ، وراحت تدافع عن هتلر وسياسته ، والمحقق يسجل أقوالها ! . . على أن البوليس لم يلبث أن أطلق سراحها . . وفطنت إلى أنها كانت تحت المراقبة — وإن ظن مراقبوها أنها كانت غافلة — فسولت لها عقدتها النفسية أن تواصل إثارة اهتمام السلطات بشأنها ، ومن ثم أخذت تحوم حول الاستحكامات وتدون



ومن ثمَّ أخذت تحوم حول الاستحكامات وتدون ملاحظاتها ..

ملاحظاتها ، وترسم معالمها .. وكانت بعض الرسوم دقيقة ، وقد سجلت عليها عدد الجنود المرابطين فى المواقع !

وانتهت محاولات السيدة إلى ما كانت ترجوه من إثارة اهتمام السلطات بها .. ولكن تهوسها دفعها إلى المغالاة ، فلما أدركت أن رجال المخابرات كانوا يسعون لمعرفة أى شخص يحتمل أن يكون على اتصال بها لنقل المعلومات إلى الأعداء ، نسجت قصة غريبة ، إذ زعمت أن غواصة ألمانية كانت تسعى لتقترب من الشاطىء ، ثم توفد رسولا فى قارب من المطاط يتلقى تقارير السيدة .. على أنها عندما فطنت إلى أن الأدلة التى اصطنعتها انقلبت إلى قرائن جدية ، جزعت .. ثم زين لها تهوسها أنها ستخلد فى التاريخ ، كما خلدت « ماتا هارى » وبطلات القصص .. لذلك رفضت استئناف قضيتها عندما حكم عليها بالإعدام ، ولكن محاميها لم يلبث أن أقنعها .

وقالت المرأة إنها استاءت عندما استبدل السجن بالإعدام! .. على أنها لم تكد تقضى فى السجن أشهر حتى أفاقت إلى ما ألقاها فيه تهوسها ، فأرسلت إلى زوجها شرحا وافيا للقصة .. وبعثت بشرح مشابه إلى وزارة الداخلية ، ولكن السلطات لم تحفل بها .. وكان من حظها أن زوجها لم يفقد ثقته بهـا ، فدفعه ولاؤه وحبه لها إلى أن يبذل الجهود فى سبيل إخراجها .. كما أنها راحت ترسل الالتماسات تباعا ، إلى أن كان شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، إذ أرسلت نداء يائسا إلى وزير الداخلية، فرأى أنها قد عوقبت بما فيه الكفاية .

وهكذا بدأت القصة بمهزلة وعبث .. ولكنها انقلبت إلى مأساة !



# الفصل التاسع عشر

## جاسوس امريكى كاد يغير مجرى الحرب الأخيرة !

إن تسلل الجاسوس إلى مركز هام فى معسكر العدو عمل جد عسير وخطير ، يستمد الجواسيس القوة على تذليله من موارد عدة ، اهمها : الوطنية ، والجشع المادى أو الرغبة فى الاثراء ، والطموح ، والتعلق بالمبدأ السياسى أو المثل العليا. ونستطيع أن نقول إن النازية إذا كانت قد حمست بعض الألمان على ركوب الصعاب ، إلا أنها قل أن حفزت أى معجب بها من غير الألمان على أن يخون وطنه .. ولعل القضية التالية خير مثال لذلك :

كان بين ديبلوماسيى السفارة الأمريكية فى لندن — فى سنة ١٩٣٩ — شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، يدعى « تيلر كنت » ، توحى كل الشواهد بأنه خليق بمستقبل باهر .. فقد كان ذكيا ، رياضيا ، يجيد اللغات ، وينحدر من أسرة ذات تاريخ سياسى عريق فى الولايات المتحدة .. وقد رشحته كفاءته لتولى منصب خطير ، إذ كان « كاتب الشفرة » فى السفارة . وكان الشاب من اصحاب المثل العليا ، كما كان يكره الحرب كراهية بلغ من قوتها أنها جعلت عقله ممهدا لأن يتقبل أية فلسفة يخيل إليه أنها تناصر شعوره هذا .. ولهذا اقتنع بمنطق هتلر عندما راح يردد أن اليهودية العالمية هى سبب كل نزاع وحرب .

ولمس جاسوس المانى هذا الاستعداد فيه ، فعرفه بسيدة تدعى « أنا فولكوف » ، كانت ابنة أميرال فى أسطول روسيا القيصرية ، ثم استقرت فى انجلترا واكتسبت الجنسية البريطانية بعد انهيار الحكم القيصرى .. ومع أنها كانت فى السابعة والثلاثين من عمرها ، إلا أنها كانت جميلة ، ذكية ، قوية الشخصية . وقد استطاعت أن تستميل الشاب ، بتأييدها لآرائه ، حتى إذا توثقت الصداقة بينهما ، أخذت تبث فيه افكارا أخرى بدهاء ولباقة .. كأن تقول له ان انتهاء الحرب بسرعة يمكن المانيا من الاحتفاظ بشىء من القوة يكفى لأن تواصل سياستها فى محاربة اليهود .. أس البلاء ! ثم تقول ان المعونة الأمريكية للحلفاء تطيل أمد الصراع ، وسيكون النفع فى النهاية لليهود ، الذين يؤازرون «روزفلت اليهودى»!

وهكذا انساق « كنت » إلى المصيدة .. وسألته « أنا » فى البداية أن يساعدها فى ارسال رسائلها إلى أصدقائها فى المانيا ، فاستغل فى ذلك « الحقيبة الدبلوماسية » .. وما لبثت أن استدرجته إلى خطوة ايجابية مباشرة ، فكان يصور الوثائق قبل أن يكتبها بالشفرة ، ويرسل الصور إلى أصدقاء « أنا » فى المانيا .. بالحقيبة الدبلوماسية ! .. وقدر عدد التقارير التى نقل صورها فى شتاء ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ بحوالى ١٥٠٠ ، كان بعضها سريا جدا .. فقد كانت تقارير عن القوات البريطانية وما لديها من معدات ، وعن المدخر فى بريطانيا من أقوات ووقود ، وعما ترسله أمريكا من امدادات ومعونات لبريطانيا .. وهكذا كانت المانيا تعد حملاتها العسكرية



وضرباتها على هدى هذه المعلومات . بل ان الألمان دبروا حملاتهم العسكرية الكبيرة ــ التى شنوها فى ربيع سنة ١٩٤٠ ــ بمعونة تقارير « كنت » ، ولو أن الحلفاء هزموا إذ ذاك ، لكان هو من أوائل أصحاب الفضل فى انتصار الألمان .. على انه لم يقم دليل واحد على انه تقاضى اجرا عن جهوده!

وكان من الممكن أن يواصل « كنت » و « أنا » تجسسهما ، لولا خطأ مألوف كثير الحدوث فى ساعات النجاح ، هو الإهمال. فقد سئما تحميض الأفلام بأيديهما ، فعهدا بها إلى مصور على مقربة من ( فليت ستريت ) ، حى الصحافة بلندن .. وكانت المخابرات البريطانية تهتم بحركات « أنا فولكوف » منذ زمن طويل ، فلاحظوا الصداقة التى توثقت بينها وبين الدبلوماسى الأمريكى الشاب . ثم وافاهم احد رجالهم يوما بأنه لاحظ ظاهرة غريبة : كان الصديقان يتقابلان فى مسكن المرأة ، ثم يرتادان الملاهى ، ويترددان فى طريقهما على محل مصور صغير . فلما كثر ترددهما على المصور ، تقرب إليه احد رجال البوليس السرى ، واستطاع أن يستدرجه إلى الحديث عن « أنا فولكوف » ، فاذا المصور يكشف عن اعتقاده بأنها تعمل فى السفارة الأمريكية ، وأن منصبها اباح لها ان تلجأ إلى مساعدته فى تحميض أفلام الوثائق !

وانكشف السر !.. وأدت القضية إلى عقد عدة مؤتمرات عليا فى لندن ، إذ كانت بريطانيا تخشى أن يثير اتهام الدبلوماسى الأمريكى بالتجسس ثائرة الرأى العام الأمريكى عليها .. ولكن الأدلة أثبتت أن « كنت » لم يكن يفشى الأسرار

التى تمس بريطانيا وحلفاءها فحسب ، وإنما أسرار أمريكا أيضا !.. وكان قد مضى على تشرشل أسبوع واحد فى رئاسة الوزارة ، حين أوفد وزير خارجيته « هاليفاكس » إلى السفير الأمريكى الذى أبى فى البداية أن يصدق الأمر ، ولكنه لم يكد يطلع على الأدلة والقرائن حتى تصرف فى حزم وقوة ، فعزل « كنت » من منصبه فورا ، وبذلك حرمه من الحصانة الديبلوماسية ، وأتاح للسلطات البريطانية أن تعتقل الشاب و « أنا » .. وقضى عليه بالسجن سبع سنوات . أما المرأة فقد عوقبت بالأشغال الشاقة عشر سنوات .

ولا سبيل — حتى الآن — لتقدير مدى النتائج التى ترتبت على خيانة « تيلر كنت » فانه لم يقتصر على إفشاء أسرار الرسائل التى كانت متبادلة بين بريطانيا وأمريكا فى تلك الفترة الدقيقة ، بل افشى أيضا أسرار الشفرة الأمريكية ذات الطابع السرى العالى ، أى التى كانت تستعمل فى الرسائل السرية جدا . وقد تكلم السفير الأمريكى فى لندن — عقب انتهاء الحرب عن القصة .. فقال ان « كنت » كان مكلفا بشفرة لا سبيل لغيره إلى حل رموزها ، فلما أعتقل انقطعت الاتصالات الديبلوماسية بين لندن وبين أمريكا ، ثم بين السفارة الأمريكية فى لندن وبين جميع السفارات الأمريكية فى العالم ، حوالى ستة أسابيع ، ريثما وصل خبراء بشفرات جديدة من واشنطن .. وكان ذلك فى أحرج فترات الحرب .. فترة سقوط فرنسا والانسحاب من دنكرك !



على أن قصة « كنت » لم تنته عند هذا الحد ، فما أن أذيع نبأ اعتقاله ، حتى ثار غضب بعض الدوائر الأمريكية ، لا سيما أنصار العزلة والجماعات التى يؤلفها أمريكيون من أصول معادية لانجلترا — كالايرلنديين — وذهب بعضهم إلى القول بأن القصة كلها دسيسة من تدبير المخابرات البريطانية لجر أمريكا إلى الحرب !

ومن الطريف أن « كنت » لم يكد يسترد حريته فى سنة ١٩٤٥ ، حتى عاد إلى نيويورك ، فاحتفت به الهيئات المعادية لبريطانيا ولليهود كبطل مظلوم ، بينما بادر هو إلى مقاضاة وزارة الخارجية الأمريكية ، متهما إياها بفصله بطريقة غير قانونية ، ولكن القضاء خذله !

# الفصل العشرون

## صيادو الجواسيس !

من المألوف أن تنكر كل دولة أعمال جاسوسيتها فى الخارج ، وأن تعترف بأن لديها إدارة لمقاومة الجاسوسية فى الداخل .. بل ان بعض الدول يرى الإعلان عن هذه الإدارة مستحب ، لأنه يرهب الجواسيس . وقد تحدثت فى فصل سابق عن نشأة إدارة مقاومة الجاسوسية البريطانية و « القلم الخاص » ، وهما جهازان صغيران نسبيا — إذا قيسا بباقى فروع المخابرات السرية — إذ أن عدد رجالهما لا يزيد على ٢٠٠ فى وقت السلم ، ولكن قوات البوليس فى الدولة كلها تحت تصرفهما . وفى أوقات الحرب ، تتضخم إدارة مقاومة الجاسوسية ، لأن رقابة البريد والإذاعة وحدها تحتاج إلى خمسة آلاف شخص من الملمين بمعظم لغات العالم .

وتعتبر « التوافه » من أهم العناصر المساعدة لصيادى الجواسيس ، فكم من جاسوس فضح سره لأن مراقبا سريع البديهة لاحظ عليه شيئا غير مألوف . وقد حدث أن استطاع ألمانى، أثناء الحرب الماضية، أن ينزل على الشاطىء البريطانى ليلا من إحدى الغواصات — وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة ، ويحمل بطاقة شخصية مزورة باتقان ، ودفترا لبطاقات التموين — ثم سار على طول الشاطىء حوالى ميلين ، حتى صادف قرية فسرق منها دراجة استقلها وانطلق فى الطريق المرسومة له .. ولكن البوليس قبض عليه قبل أن يقطع ..؟



باردة ، لا لشىء إلا لأنه نسى أن المرور فى إنجلترا على الجانب الأيسر لا الأيمن !.. وحدث أن نزل جاسوس آخر فى اسكتلندا، فقصد إلى أقرب محطة للسكك الحديدية ، وطلب تذكرة لابردين ، فقال له العامل : « اثنان وعشرة » .. وكان يقصد شلنين وعشرة بنسات ، ولكن الجاسوس قدم له جنيهين وعشرة شلنات .. وكان الفرق أكبر من أن يكون مجرد سهو، مما أثار الشك فى نفس العامل ، فأبلغ الأمر للبوليس !

وحدث فى الحرب العالمية الأولى أن أراد جاسوسان ألمانيان أن يبرقا إلى رئيسهما فى الخارج ببيان عن عدد السفن الراسية فى ميناء ( بورتسماوث ) وأنواعها ، فأرسلا برقية يطلبان فيها كميات من السيجار من شركة فى ( روتردام ) . وكانت الكميات التى طلباها : ٤٠٠٠ سيجار هافانا ، و ٧٠٠٠ سيجار كوبا .. وكانت حيلة بارعة للارشاد إلى وجود ٤ بوارج و ٧ طرادات . ولكن الرقيب فطن إلى هذه الحيلة لأمرين تافهين : أولهما ، أن بحارة بورتسماوث وأهلها لا يدخنون السيجار الغالى الفاخر إلا نادرا .. وثانيهما ، أن الكمية المطلوبة كانت تعادل ما تستهلكه المدينة من السيجار فى مدة عام !

وأرسل الألمان إلى فرنسا — ذات مرة — فتاة سويسرية لتكتب تقريرا عن مواقع الفرق المتحالفة ، فكانت تطرز شكل وردة حول أزرار ثيابها الداخلية ، فترمز بالوردة المؤلفة من ٢١ غرزة — مثلا — إلى الفرقة الواحدة والعشرين .. وكانت ترمز للفرق الاحتياطية بفراشات كل منها مؤلفة من عدد من الغرز يعادل رقم الفرقة . واستطاعت الفتاة أن تنتقل بين فرنسا وسويسرا اثنتى عشرة مرة ، دون أن يرتاب أحد فى

أمرها .. ثم حملها البخل على أن تبتاع أصنافا رخيصة من الثياب الداخلية كان الفرق بينها وبين ما بقى لديها من الملابس الغالية فرقا واضحا ملموسا ، كما أن رخصها لم يكن يؤهلها لهذا التطريز الدقيق .. ومن ثم حامت حولها الشبهات، فتعقبها صيادو الجواسيس حتى تمكنوا من تقديمها للمحاكمة ، فقضى عليها بالاعدام !.. كل هـذا لمجرد أن سيدة من مفتشات الجمارك فطنت إلى هذه الفوارق التى قد لا يتنبه إليها رجل !

وعندما لجأ الزعيم النازى «هيس» إلى إنجلترا — فى الحرب الماضية — لحق به جاسوسان نازيان لاغتياله .. وهبطا فى اسكتلندا ، فذهبا إلى إحدى محطات السكك الحديدية ، واتباع أحدهما تذكرة للندن .. وتقدم الثانى إلى « شباك التذاكر »، فسأله العامل : « أذاهب أنت الآخر إلى لندن ؟ » .. وفى غفلة من الرجل ، قال :« نعم » ، ولكن .. باللغـة الألمانية !.. وكانت زلة لسان ، أوقعته وزميله فى أيدى السلطات !

وتخف أعباء صيادى الجواسيس كثيرا ، لو أن الجمهور عرف كيف يقاوم الشائعات والأنباء الكاذبة ، لأن الجواسيس كثيرا ما يتخذون من هذه المواد أسلحة لإثارة الخواطر والاضطرابات والذعر .. كما أن التجارب أثبتت أن هيئات مقاومة الجاسوسية يجب أن تحيط أعمالها بسرية تامة لا تقل عن السرية التى يتذرع بها الجواسيس الذين تطاردهم !

ومما يؤثر عن نابليون أنه قال يوما : « لو أن ملوك فرنسا كانوا يملكون نظاما صالحا لمقاومة الجاسوسية ، لما أتيح لى أن أفر من ألبا » !



# الفصل الحادى والعشرون

## مكتب التحريات الأمريكى

يعتبر الأمريكيون محدثين نسبيا فى فنون الجاسوسية .. فقد بدأت مخابراتهم السرية — كأدارة رسمية — فى الحرب العالمية الأولى ، وكانت تتألف عند مولدها من ضابطين اثنين ! ومع ذلك فان الحرب لم تنته حتى كانت هذه الإدارة الناشئة قد اكتسبت احتـرام حلفاء بلادهـا لما وفقت إليه من معلومات واستنتاجات صحيحة !.. ولقد كان من جراء تعدد الجنسيات التى تألف منها الشعب الأمريكى ، أن تيسرت للجاسـوسية الأمريكية فرص واسعة . فان المواطن الإنجليزى قد لا يسهل عليه أن ينتحل شخصية مواطن ألمانى ، على خـلاف المواطن الأمريكى .. إذ أن فى أمريكا ثلاثة عشر مليـونا من أصـل ألمانى !

على أن اختلاط الجنسيات كان — من ناحية أخرى — مصدر خطر لا سبيل إلى التغاضى عنه ، لأن هذه الملايين الثلاثة عشر تضم نسـبة كبيرة ممن يحتفظون بالولاء والعطف على وطنهم الأصلى .. فكانت هذه الحقيقة سببا فى أن أصبحت مقـاومة الجاسـوسية فى أمريكا عظيمـة الأهمية !.. وقد كان مكتب التحريات الاتحادى — أى التابع للحكومة الاتحـادية — هو الأساس الذى قامت عليه هذه المقاومة . فقد تأسس المكتب فى سنة ١٩٠٨ ، ولم يكن ثمة مناص من أن يجرفه تيار السياسة، على أنه استطاع — فى سنة ١٩٢٤ — أن يتخلص من التيار

السياسى ، وكان نجاحه فى ذلك سريعا حاسما ، فهبطت حوادث السطو على المصارف من ٦٠٦ حوادث إلى ٤٢ حادثة فى عشر سنوات .. واستطاع المكتب ان يوفق فى حل ٢٤٩ من ٢٥١ حادث اختطاف . ذلك لأن مكتب التحريات الاتحادى حذق اللغة التى كان يفهمها رجال العصابات الذين استفحل نفوذهم فى أمريكا إذ ذاك ، كما استطاع أن ينظم البوليس المحلى، بحيث لم يعد أفراده من محاسيب السياسيين ، وإنما أصبحوا أداة قوية ، منظمة ، لا تستميلها الرشوة ، ولا يثنيها عن صون القانون أى اعتبار !

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ ، وكلت إلى المكتب مهام كان قد باشرها من قبل، هى مقاومة الجاسوسية ومنع التخريب والحيلولة دون كل ما يخالف لوائح الحياد ونظمه . وقد أتيح لى أن أطلع على بعض الأساليب والنظم التى استنها المكتب ، فاذا هو مزود بأوسع وأدق نظام للملفات والمحفوظات ، يضم بيانات كثيرة منها نحو ١٠٠ مليون مجموعة من بصمات الأصابع ، يمكن أن تفحص كل واحدة منها وتراجع فى ثلاث دقائق !.. كذلك تشمل الملفات تسجيلا دقيقا للنشاط السياسى الذى كان الأمريكيون المنحدرون من أصل ألمانى يبدونه .. وتبينت أن وسائلهم لاكتشاف المداد السرى رائعة، كما أن قسم الراديو واللاسلكى فى هذه المنظمة دائب على فتح آفاق جديدة لنشاطه .

وإذا كان المكتب قد عنى — أثناء الحرب العالمية الأولى — بإيقاف حوادث التخريب ، فانه حرص فى الحرب الثانية على



أن يمنع هذه الحوادث قبل وقوعها . ولم يكن يضايق رجال المكتب سوى العقبات التى كانت تثيرها فى وجوههم الحرية السياسية التى تمتاز بها الولايات المتحدة الأمريكية !.. ففى أيام الحياد ، كان فى وسع الأمريكيين المنحدرين من أصل ألمانى أن يؤلفوا جمعيات تناصر ألمانيا ، وأن ينظموا هيئات عسكرية كفرق العاصفة النازية !.. على أن الولايات المتحدة لم تلبث أن دخلت الحرب ، فزادت سلطات المكتب فى الحال، واستغلت أحسن استغلال . وينم فحص بعض قضاياه الهامة عن ظواهر ذات شأن كبير .

**الألمان يحصلون على أسرار أمريكا باسم رئيسها !**

ولعل أول اتصال لمكتب التحريات الأمريكى بأحداث الحرب العالمية الثانية ، هو ذلك الذى حدث عند إزاحة الستار عن شبكة الجاسوسية النازية فى ( اسكتلندا ) . ففى سنة ١٩٣٧ ، كانت تعيش فى شارع محترم بمدينة (دندى) ، حلاقة متوسطة العمر تدعى مسز « جامى جوردان » .. وقد استرعى نظر موزع البريد فى ذلك الشارع ، أن هذه الحلاقة كانت تتلقى رسائل كثيرة من بلدان عديدة .. فأسر إلى البوليس بهواجسه، وسرعان ما كشفت التحريات عن أن مسز جوردان أرملة ألمانى قتل فى الحرب العالمية الأولى .. ثم ظهر أنها بمثابة « صندوق بريد » للجواسيس الألمان ، وكان معظم عملائها من المقيمين فى أمريكا !

وبادرت السلطات البريطانية إلى إبلاغ مكتب التحريات الأمريكى بذلك ، فاذا المكتب يتبين أن أمريكا كانت على شفا

مؤامرة نازية محكمة .. إذ كانت هناك عصابة من الأمريكيين، المنحدرين من أصل ألمانى، تدبر الخطط لسرقة الورق الأبيض الذى اعتاد رئيس الولايات المتحدة أن يسجل عليه ملاحظاته، ثم تستغله فى توجيه رسائل للحصول على أسرار من وزارات الجيش والحربية والطيران، وكأن هـذه المعلومات مطلوبة للرئيس نفسه !

وبدأ المكتب يعمل، ولكن الصعوبات التى اعترضت طريقه كانت عسيرة التذليل .. وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٣٨، والألمان فى أمريكا يتمتعون بحريات واسعة، فيؤلفون فرق العاصفة النازية ويتدربون علنا فى الأماكن العامة. ولكن القدر لم يلبث أن مال إلى مساعدة مكتب التحريات، فاذا بأحد المتآمرين يرتكب غلطة مفاجئة، من النوع الذى يسمى «فلته»! .. إذ استهان بقوة الأمن فى أمريكا، واتصل تليفونيا برئيس إدارة جوازات السفر — منتحلا شخصية وزير الخارجية الأمريكية — وطلب موافاته بخمسة وثلاثين جوازا جديدا (على بياض) .. وكان يرجو — من وراء ذلك — أن يستغل الجوازات فى تمكين الجواسيس الألمان من دخول أمريكا !

على أن إدارة جوازات السفر لم تكن من الغفلة بالدرجة التى حسبها ذلك الألمانى — وكان يدعى « رومريخ » — وكان من نتائج يقظتها أن تولى مكتب التحريات الأمر، وأعد للمتآمرين شركا تمكن به من اعتقال « رومريخ » .. ولكن أحد رجال البوليس ارتكب بدوره « فلتة »، إذ أفشى القصة للصحف، فانتبه النازيون واتخذوا حذرهم، وبادر زعماء الحركة إلى



الاختفاء فى الحال، فلم تستطع السلطات اعتقال أهم شخصياتهم !

وظهر أن « رومريخ » كان واحدا من الذين راسلتهم مسز جوردان، وأنه كان مجرما لا يعمل إلا من أجل المال !.. وما لبث أن قرر رومريخ الاعتراف، فأفضى بقصة أغرب من الخيال، كشف فيها عن أنه كان فى ( همبورج ) رجل — يدعى « كارل شلوتر » — موكل بتنظيم الجاسوسية فى أمريكا، تعاونه سيدة تدعى « يوهانا هوفمان » .. فكانا يتصلان بالأمريكيين ذوى الأصل الألمانى، والذين اعتادوا زيارة ألمانيا قبل الحرب، ويغريانهم بالتجسس، ويكلفانهم بالاتصال — فور عودتهم إلى أمريكا — بالشبان الغارقين فى الديون، والشيوخ الذين يعولون أسرات كبيرة العدد، وأن يستدرجوهم بالتهديد أو الاحتيال أو الفتيات، على التجسس لمصلحة ألمانيا !

واختتم رومريخ اعترافاته بأن شلوتر ومساعدته كانا إذ ذاك فى طريقهما إلى أمريكا .. على أن إقدام الصحف على نشر المؤامرة نبه شلوتر فى الوقت المناسب، فلم يمض فى رحلته. ولكن مساعدته وصلت على سفينة ألمانية تدعى « يوروبا »، منتحلة اسما مستعارا، وزاعمة أنها حلاقة. وراقبها رجال المكتب، ثم اعتقلوها وزجوا بها فى السجن. واستطاع رومريخ أن يتعرف عليها، وأن يكشف حقيقة شخصيتها، كما استطاع رجال مكتب التحريات أن يعثروا فى الحجرة التى كانت تشغلها — على السفينة — على عدد من الرسائل المكتوبة بالشفرة، وأن يعثروا على مفتاح هذه الشفرة فى حقيبة يدها!

وهكذا كانت « يوهانا » ــ برغم جرأتها وكفاءتها ــ ضحية لإهمالها .. ولكنها لم تكن الضحية الوحيدة ، إذ كشف اعتقالها الستار عن جواسيس آخرين !.. فماذا بين جواسيس المانيا النازية جاسـوس يدعى « أريك جليزر » ، بلغ من دهائه انه استطاع أن يلتحق بالجيش الأمريكى ــ برغم انه كان حديث العهد بالهجرة إلى أمريكا ، وكان لا يتقن الإنجليزية ــ وتمكن وهو فى أحد معسكرات القوات الجوية من أن ينقل صحيفتين من كتاب الشفرة الذى يعتبر من الأسرار الأمريكية العليا !

كذلك كان من ضحايا إهمال « يوهانا » جراح معروف ، هو الدكتور « ا. ت. جريبل » ، الذى زار المانيا مع عشيقة له كان يزعم انها زوجته ، وهناك اتصل به شلوتر واجتذبه إلى شبكة الجاسوسية .. وكان «جريبل» من قادة الحركة النازية فى امريكا ــ قبيل الحرب ــ كما كان يجهر بسخريته من كل ما هو أمريكى ، وبعطفه على المانيا وعلى المذهب النازى بالذات! .. وقد وجدت معه شفرة كان يخفيها فى علبة من علب الثقاب، كما وجد اسمه فى قائمة الذين كانوا يراسلون الحلاقة الاسكتلندية !

وإذا كان رومريخ جاسوسا من طبقة دنيئة ، فان الدكتور جريبل كان ذكيا ، وكان ذا مكانة ، فلم يجد رجال مكتب التحريات وسيلة للتغلب على عناده إلا بتهديده بالفضيحة .. أى باذاعة معاشرته للمرأة التى كان يزعم أنها زوجته !.. وبقدر ما كان مصرا على الصمت ، اندفع ــ بعد هذا التهديد ــ فى اعترافاته ، دون أن يقف عند حد ، فكشف أمر عشرين



جاسوسا فى الولايات المتحدة ، كان بعضهم فى مناصب مكنتهم من الحصول على تصميمات لاختراعات حربية سرية !.. على أن رجال المكتب لم يحصلوا على كل ما كان فى جعبة «جريبل»، إذ انه هرب بعد ان افرجت عنه السلطات بكفالة .. أو لعله اختطف وارسل إلى المانيا !.. ولكنه ترك وراءه من الأدلة ما كان كافيا لإدانة عدد كبير من الجواسيس النازين فى أمريكا !

وتعلم مكتب التحريات من قضية « جريبل » دروسا افادته .. تعلم ان اى نظام لمقاومة الجاسوسية لا يمكن ان يكون كاملا، وإنما هو فى حاجة دائما إلى تفقده وسد ما يتكشف من ثغرات خلاله .. كذلك تعلم أن رجل المخابرات السرية يجب أن ينأى عن الصحفيين ، وأن يكون على حذر فى اتصالاته بهم .. وأن القانون مخطىء فى تحمسه للحريات إلى الدرجة التى تضطر السلطات إلى الافراج عن المتهم بالتجسس مقابل كفالة !

## المخابرات الأمريكية تتعلم على ايدى « اسكتلنديارد » !

على ان المكتب لم يلبث ان اتخذ مسلكا اشد حزما من ذى قبل، بمجرد قيام الحرب، فاستكمل جهازه حتى بلغ عدد رجاله خمسة عشر الفا ، واوفد بعثات إلى إنجلترا لدراسة أحدث الطرق الفنية التى كان يتبعها « القلم الخاص » فى « اسكتلنديارد » .

وقبل أن يحدث الهجوم اليابانى المفاجىء على الأسطول الأمريكى فى قاعدة ( بيرل هاربور ) ، انهمك رجال المكتب فى فحص حالات آلاف ممن كان يحتمل أن يصبحوا خطرين ..

وعلى اضواء هذه الدراسات ، تمكنت السلطات الأمريكية ـ فى خلال ٤٨ ساعة بعد ذلك الهجوم ـ من اعتقال ١٧٧١ شخصا ، كما احتجزت ١٢ الف شخص للتحرى عنهم والتحقيق معهم ، واكتشفت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ..

ولم تكن كل النتائج التى توصل إليها المكتب وليدة الأساليب العلمية ، بل انه كان يتبع احيانا الأساليب القديمة فى مكافحة الجاسوسية ، كما حدث فى قضية « أوجست باوماير » .. وكان أمريكيا نازيا من أصل ألمانى ، يمتلك مطعما تحول إلى مركز عام لجمعية نازية سياسية كانت تسمى «بوند» ، ثم انقلب إلى مركز للتجسس ولإخفاء الأسرى الألمان الذين كانوا يفرون من كندا .. وقد انتحل أحد رجال المكتب شخصية أسير هارب ، واختبأ فى مخزن المطعم ، حيث اقام جهاز إرسال لاسلكى قصير الموجة ، واخذ يرسل عن طريقه تقاريره إلى المكتب ، مزودا زملاءه بالمعلومات التى ادت إلى اعتقال عصابة كبيرة !

على ان أعظم أعمال مكتب التحريات ـ فى مضمار الجاسوسية ـ حدث قبيل قيام الحرب بوقت قصير .. ففى سنة ١٩٣٩ ، قام أمريكى ألمانى الأصل ـ يدعى « وليم شيبولد » ـ بزيارة بعض أقاربه فى ألمانيا ، فاتصل به منظمو الجاسوسية وراحوا يغرونه على التعاون معهم .. وكان الرجل اكثر ولاء لأمريكا منه لألمانيا ، فاتصل بأقرب قنصل أمريكى وشاوره فى الأمر ، ثم وافق على ما عرض عليه ، فكلف



بأن يحمل بعض رسائل إلى الولايات المتحدة ، وأن ينشىء هناك محطة لاسلكية يبعث عن طريقها بتقاريره !

وعندما وصل إلى أمريكا ، تولى رجال مكتب التحريات الأمر ، فاستخدموا أموال النازيين واجهزتهم ، وارسل شيبولد ـ بارشاداتهم ـ ٥٠٠ رسالة كان أكثرها مصوغا بمهارة للتضليل .. وأفلحت الخطة ، حتى ان الألمان وثقوا به ، واخذوا يوصون جواسيسهم الآخرين باستخدام الجهاز اللاسلكى الذى كان فى حوزته !.. وهكذا اتيح لشيبولد ان يتعرف إلى ٧١ جاسوسا ألمانيا .. وعندما اعتقلوا ووجهت اليهم تهمة الجاسوسية ، قدم رجال المكتب إلى القضاء أفلاما سينمائية التقطت لهؤلاء الجواسيس أثناء ترددهم على مكتب شيبولد ، وتسجيلات لأحاديثهم !

ومن أهم الأعمال التى وفق فيها مكتب التحريات ـ أثناء الحرب ـ اعتقال ثمانية من المخبرين الألمان الذين نزلوا على سواحل فلوريدا ولونج ايلاند ، فى يونيو سنة ١٩٤٢ ، وكان أربعة منهم فى ثياب عسكرية ألمانية .. وكادت المسألة تبدو مجرد محاولة فاشلة ، لولا أن اثبتت التحريات أنها كانت حركة واسعة لإبعاد أنظار رجال المكتب عن مسائل أخرى أكثر خطورة ..

ولكن أبرع أعمال المكتب جميعها ، هو انه أبى أن يسلم بانتهاء الحرب ، عقب انهيار مقاومة ألمانيا واليابان .. ومع انه خفض عدد رجاله ، إلا انه احتفظ بالجهاز معدا ومهيأ للعمل فى أى وقت !

# الفصل الثانى والعشرون

## الألمان خسروا حرب ١٩١٤ .. بسبب شائعة !

اتيح لى فى سنة ١٩٣٧ أن أشاهد بعض المناورات الألمانية . وفى ذات ليلة ، أخذ ضباط أركان الحرب يسألوننى عن معركة ( المارن ) التى وقعت فى سنة ١٩١٤ .. وكان الموضوع من الموضوعات التى يحق للعسكريين أن يناقشوها، فضلا عن أن المعركة كانت من المعارك الحاسمة فى الحرب العالمية الأولى .. وكان الألمان قد توغلوا فى فرنسا ، ولم يتمكن الحلفاء من إيقافهم إلا عند نهر (المارن) ، بالقرب من باريس.. وكانت المعركة متأرجحة بيننا وبينهم ، إذ أن التقهقر لمسافات طويلة أوهن قواتنا ، ولكن تراجع الألمان عند ( المارن ) — برغم أنه لم يكن طويل المدى — سجل أول هزيمة لهم ، ولهذا كانت المعركة تعتبر حاسمة .. فقد كان فى وسع الألمان أن يكسبوا الحرب كلها لو أنهم فازوا فى هذه المعركة بالذات ، فى الوقت الذى كنا فى حاجة إلى أربع سنوات أخرى لنحرز النصر الذى لم يواتنا إلا فى سنة ١٩١٨ !

ولم يبد الضباط الألمان — فى حديثهم معى — اهتماما بالحركات الاستراتيجية والفنون فى هذه المعركة الهامة ، وإنما انصب اهتمامهم على ناحية نعتبرها الآن « مهزلة » كبرى .. تلك هى : مرور الروس إلى الميدان الغربى — عن طريق بريطانيا — فى الأسابيع الأولى من تلك الحرب ! .. والذين عاصروا تلك الفترة يذكرون الأمر جيدا . والواقع أنه لم يكن



هناك روس على الاطلاق ، ولكن آلافا من مروجى الشائعات والمبالغين زعموا أنهم رأوهم .. بل ذهبوا إلى وصفهم زاعمين انهم شاهدوهم ينفضون الثلج عن أحذيتهم !.. وحقيقة ما حدث هو أن قطارا مليئا بجنود « الهايلاندرز » وقف فى محطة بجنوب إنجلترا ، فدهش أحد الحمالين ، وسألهم عن المكان الذى جاءوا منه ، فأجاب أحدهم : «جئنا من روسشاير»، فالتبس الأمر على الحمال وظنه يقصد ( روسيا ) !

وصادف أن كان فى اسكتلندا — إذ ذاك — جاسوس ألمانى يدعى « كارل لودى » ، كان تحت رقابة المخابرات السرية دون أن يفطن ، وقد تبين أنه أوقف جميع الاتصالات التى كانت بينه وبين زميل له فى السويد .. ولكنه حين علم بأمر هؤلاء الجنود، كتب إليه يصفهم ، وزعم أنه رآهم بعينيه فى محطة ( دندى ) ! .. وما أن تسلم الجاسوس الألمانى فى السويد رسالة زميله ، حتى أخطر هيئة أركان الحرب الألمانية العامة !

وكان الجيش الألمانى القوى مرتبطا بعمليات حربية فى فرنسا ، وقد طالت خطوط مواصلاته الممتدة من ألمانيا — عبر بلجيكا — إلى فرنسا . ولو أن الروس استطاعوا النزول فى بلجيكا ، كما زعمت الأقاويل فى ذلك الحين ، لقطعوا هذه الخطوط ولحاقت بالجيش الألمانى كارثة .. ومن ثم خصص الألمان من جيشهم الرئيسى فرقتين لحراسة الساحل البلجيكى، قبل معركة ( المارن ) بأسبوعين فقط .. ولو أن هاتين الفرقتين خاضتا المعركة مع الجيش ، لأتيح للألمان أن يكسبوها !

ومن هنا يمكن القــول بأن الألمان خسروا المعركة بسبب شائعة !

ولقد جاءت الشائعة — فى سنة ١٩١٤ — مجرد مصادفة عارضة. ولكن الألمان كانوا — فى سنة ١٩٣٧ — يضعون الخطط لاستخدام الشائعات كسلاح فعال . ومن هنا كان إلحاح ضباط أركان الحرب فى السؤال عن هذه القصة الغريبة !

**« فظائع الألمان » فى الحروب ... ليست إلا شائعات !**

على أن سلاح الشائعات — فى حــد ذاته — ليس بالشىء الجديد .. فان التاريخ يحدثنا عن آثاره فى حروب جرت منذ ألف عام . كما أن الشائعات لعبت دورا كبيرا فى إضعاف الروح المعنوية لدى الإيطاليين قبيل هزيمتهم فى معركة ( كابوريتو ) ، فى الحرب العالمية الأولى .. وقد صرح «لودندورف» — رئيس أركان حرب الجيش الألمانى فى تلك الحــرب — بأن الدعاية والشائعات قد أحدثتا « أثرا مدمرا للروح المعنوية لدى الشعب الألمانى » !

والفرق بسيط بين الشائعة — كسلاح من أسلحة الحرب — والدعاية ، التى تعتبر بدورها ســلاحا رئيسيا : فكل من السلاحين يعتمد على جهل الإنسان وضعفه ، وكل منهما يشهر فى اللحظات الهستيرية التى تتخلل الحرب . ولكن أساليبهما تختلف اختلافا إيجابيا !

ولقد عرفنا « الدعاية » فى الحرب العالمية الأولى .. كانت تتدفق فى إسفاف جعل للكلمة البريئة وقعا قبيحــا تنفر منــه



الأسماع !.. اجل ، أصبحت كلمة « الدعاية » توحى بتشويه الحقائق ، بل وبالكذب .. وقد صدق من قال : « الصدق هو اول المصابين بعد إعلان الحرب .. فان الزور والتمويه باتا من الأسلحة المعترف بها فى الحرب » !

وكانت بريطانيا من اكثر الدول استغلالا للدعاية فى الحرب العالمية الأولى ، وإن كانت الوسائل التى اتبعت فى تلك الأيام وسائل مبتسرة ، غير ناضجة .. وكان هدفها الأول إثارة حمى الحرب فى الشعب ، إذ كان معظم الناس يتصورون الحــرب سلسلة من المناوشات !.. وانتهت السلطات — فى ذلك الحين — إلى ان افضل اتجاه للدعاية هو إثارة البغضـــاء فى نفــوس الشعب ضد العسكريين الألمان ، وذلك باختلاق سلسلة من الشائعات عما أطلقوا عليه إذ ذاك : « فظائع الألمان » !

ويميل المستوى الأخلاقى فى الجيوش إلى الانحــدار عندما يوفد الجنود إلى ميادين فى خارج بلادهم ، لا سيما إذا وجدوا أنفسهم فى مناطق فتحوها بقوة السلاح .. ومن ثم فان قصص النهب وهتك الأعراض — فى البلاد المحتلة — ليست كلها دعاية ، بل إن امثالها تقع بالفعل وتعتبر أسوأ جزء من ثمن الحرب !.. ولكن دعاية الحلفاء لتنفير الشعوب من « فظائع الألمان » اتجهت اتجاها آخر ، إذ زعمت أن الألمان كانوا يبترون أيدى الأطفال ، ويصلبون الكنديين ، ويشقون صدور النساء بالســونكى .. وكانت كل شائعة تتضخم بالمبالغات ، وتنتشر بسرعة ، دون أن يكون لها أســاس من الواقع .. ولم يكن لدى الناس ما يمكنهم من أن يمحصوا تلك الشائعات ليعرفوا الصادق منها والكاذب ،

ومن ثم فانهم كانوا يصدقونها فى أول الأمر ، ولكنهم ما لبثوا أن بداوا يرتابون فى صحتها .. ثم أدت المبالغة فيها إلى عكس ما كان يرجى منها . وحدث هذا بصفة خاصة عندما أشيع أن لدى الألمان مؤسســة لاستغلال جثث القتلى ، تذيب جثث الضحايا من جنودهم لاستخراج ما فيها من شحم ودهن .. واستطاع القائمون على الدعاية أن يهيئوا صورا تدعم هـذا الزعم . ثم فطن المتعلمون إلى أن الاسم الألمانى لتلك المؤسسة - كما روجه الحلفاء فىدعايتهم - يوحى باستغلال جثث الحيوان لا الإنسان ، فتزعزعت ثقة الناس فى الدعـاية !.. وهـذه ظاهرة مألوفة فى هذا السـلاح من أسلحة الحـرب ، إذ أن الدعاية لا تلبث أن تنقلب على نفسـها ، فانك إذا أسرفت فى إثارة أحقاد الناس ، لا تلبث أن تولد فى نفوسـهم شيئا من الخوف يصحب هذه الأحقاد ، كما ظهر فى التهوس الذى أصاب الشعب البريطانى إزاء الجاسوسية فى الحرب العالمية الأولى ، حتى أصبح كل إنسان يشك فى أن جاره جاسوس ، مما ضايق السلطات وسبب لها الكثير من العناء !

والواقع أننا لا نجد سلاحا أخطر فى ارتداده إلى مشهره من سلاح الدعاية ، لا سيما إذا كانت هذه الدعـاية كاذبة .. و « الهستيريا » الجماعية ليست بالشىء الذى تتعذر إثارته بين الناس ، ولكنها إذا أفلتت من عقالها وجمحت أصبحت خطرا من المستحيل السيطرة عليه !



## هذا السلاح الفتاك .. أجدر بمزيد من العناية !

وفى خلال الحرب ، تميل ملكة الانتقاد عنـد النـاس إلى الاختفاء . وقد دلتنى تجاربى ودراساتى على أن النـاس لا يفحصون الدعاية بالدقة اللازمة ، بل إنهم يتلقفون الشائعات ويرددونها ويبالغون فيهـا .. ومن ثم فان الشائعات — فى الدعاية — تستغل نقط الضعف فى العقول ، حتى يصـدقها الناس فى بساطة .. ولو أن الشائعة التى ذكرناها من قبل عن نزول الروس فى انجلترا ليصلوا إلى الجبهة الغربية .. لو أن هذه الشـائعة محصت وفحصت عندما ذاعت فى انجلترا ، لما صمدت أمام أى عقل ذكى !

كنت و « أومباشى » فرنسى نستقل دراجتين ، خارج مدينة ( آراس ) فى سنة ١٩١٦ ، عندما انفجرت إطارات الدراجتين معا ، فلم نجد بدا من أن نقلبهما ونعمل على إصلاح الاطارات .. وكان على حافة الطريق سد من التراب ، تقوم خلفه مدرسة للتدريب على إطلاق القنابل . وفيما كنا منهمكين فى عملنـا ، وقفت سيارة هبط منها رجل التقط صورة ، فلم ينقض أسبوع أو أسبوعان حتى نشرت الصورة فى عدد من الصحف وقد كتب تحتها : « جنديان بريطانيان يصلحان دراجتيهما فى طمأنينـة تحت سيل القذائف » ! .. وسرعان ما انهمرت علينا الخطابات ممن تعرفوا علينا فى الصورة — من الأصدقاء — دون أن يساور أحد الشك فى صحة الصورة ، إذ كانت سحب التراب التى أثارتها قذائف المدربين توحى بجو ميدان القتال !

ولقد أتيح لى أن أدرس خصائص العقل البشرى، إذ وجدت نفسى — فى شتاء سنة ١٩٣٩ — فى فرنسا ، حيث توفرت على دراسة آثار الشائعات فى الجنود والمدنيين .. وتبينت أن الألمان ابتكروا أسلوبا جديدا فى الشتاء الأول للحرب ، هو ترويج كل شائعة قديمة لبلبلة عقول الفرنسيين وتهيئتها لتصديق كل شىء .. وقد أفلحوا فى ذلك ، فلم تكد المقاومة الفرنسية تنهار ، حتى أخذ سكان القرى يهربون من قراهم على غير هدى ، وفى كل اتجاه ، معرقلين تقدم وحدات الجيش التى كانت تسعى للوصول إلى العدو . وكان أنكى ما فى المأساة ، أن الناس كانوا يفرون من لا شىء .. أو بالأحرى ، كانوا يفرون من الشائعات التى زعمت أن الألمان كانوا قادمين ، فلم يحاول أحد أن يتبين مصدر تلك الشائعات ولا صحتها !

والشائعات هى أرخص الأسلحة وأقلها نفقات ، لأنها لا تحتاج إلى أكثر من عقول قليلة لنسجها ، ثم يتولى المروجون والناس ما بعد ذلك !.. وهدفها معروف ، ويتمثل فى تحطيم الروح المعنوية للناس . وفى الحروب الحديثة ، أصبحت الثغرة بين القوات العاملة والمدنيين جد ضيقة .. فلو تداعت روح المدنيين فى أى دولة ، لخسرت هذه الدولة الحرب !

وكم من شائعات ترددت فى الحربين الأولى والثانية ، فلما تتبعت منشأها وجدت أنها ترددت فى حرب القرم وحروب نابليون أيضا ! .. ذلك لأن الشائعات نادرا ما تتغير فى جوهرها .. ومن الأمثلة على ذلك ، شائعة سمعتها فى الحرب الأولى ، وتكررت فى الحرب الثانية ، وإن تغير الأسلوب الذى



رويت به ، والأوصاف التى تخللتها .. ومؤدى هذه الشائعة أن البريطانيين اغرقوا غواصة ألمانية ، وأخذوا قائدها أسيرا . فلما فتشوه وجدوا فى جيبه تذكرتين من تذاكر مسرح «جلاسجو امباير » - مثلا - فكأنه هبط إلى تلك المدينة وقضى سهرته فيها دون أن تفطن السلطات .. ومن العجيب أننى سمعت هذه القصة فى أمريكا — فى الحرب الثانية — مع تغيير مسرحها ، إذ ذكرت مدينة ( سان فرانسيسكو ) بدلا من ( جلاسجو ) !

وقد تبدو أمثال هذه القصة تافهة ، ولكن فى وسعك أن تتصور تأثيرها على العقول ، لا سيما إذا تذكرت أننا — فى أوقات الحرب — قل أن نعنى بتمحيص ما نسمع .. بل تصور مفعولها إذا ما حملها إلى ميدان القتال جندى عائد من إجازته! .. وقد لا يكون من المؤكد أن فى وسع الشائعة الموجهة — أى المدروسة والمعدة لأغراض معينة وعقول معينة — أن تكسب حربا ، ولكن من المؤكد حقا أنها قادرة على أن تتسبب فى الهزيمة فى الحرب ! .. ولذلك نجد أن انجلترا عنيت بتنظيم « الحرب السياسية » فى الحرب العالمية الثانية . ولكن الهيئات الموكلة بهذا النشاط لم تحرز نجاحا يذكر إلا عندما بدأت القوة العسكرية الألمانية فى التداعى . ذلك لأن كثيرا من جهود تلك الهيئات كان سيىء التوجيه .. فكان من التفاهة — مثلا — أن تنفق هذه الجهود فى إذاعة الأنباء عن تفشى الفساد فى صفوف السلطات الفاشيستية العليا ! .. وقد كان للنظام الحازم الذى درج عليه الشعب الألمانى ، فضل مقاومة كثير من الجهود التى

كانت من هذا القبيل .. فضلا عن ان الألمان كانوا سباقين دائما فى هذا المجال !

ولم تكن بريطانيا وحدها التى لم تقدر قيمة الشائعة حق قدرها .. بل ان الروس تجاهلوها تقريبا — فى الحرب العالمية الثانية — مركزين جهودهم على الدعاية السياسية التى لم تكن ذات أثر يذكر إلا بعد أن تحقق انكسار الألمان فى ميدان القتال بالفعل .. على أن عدم تقدير الأمريكيين لقيمة الشائعة يفوق تجاهل الروس لها ، وإن كنت قد وجدت الرئيس روزفلت — عندما أوفدت إلى واشنطن للتشاور فى شئون الدعاية — منتبها كل الانتباه للأخطار والاحتمالات التى تترتب على سلاح الإشاعة !

## الأطباق الطائرة : احقيقة هى أم خيال ؟!

ومن الواجب قتل الشائعة فورا ، وإلا فلن يتسنى القضاء عليها . ففى ٢٤ يونيو سنة ١٩٤٧ ، صرح رجل — فى واشنطن — بأنه رأى تسعة اجسام لامعة تطير بسرعة قدرها ١٢٠٠ ميل ، على ارتفاع ١٠٫٠٠٠ قدم من الأرض .. وإن هى إلا أيام حتى رأى أناس غيره تلك الأشياء ، ووصفوها بأنها على شكل « أقراص » ، ثم أطلقت الصحافة الأمريكية لخيالها العنان ، فوصفتها بأنها «أطباق طائرة» .. وتوالت الشائعات وانتشرت فى البلدان الأخرى ، ثم تعاقبت الانباء بأن مئات رأوا تلك « الأطباق الطائرة » ! .. ومع أن بعض من زعموا انهم رأوها لم يلبثوا — عند التحقيقات الدقيقة — أن اعترفوا بأنهم كانوا



الأطباق الطائرة .. أحقيقة هى أم خيال ؟!

واهمين ، إلا أن اعترافاتهم ضاعت وسط ضجيج الشائعات . ولقد ذكر عالم ضليع أن الإنسان إذا وقف جامدا وثبت بصره على نقطة معينة فى السماء ، فانه لا يلبث أن يرى أشياء تتحرك بسرعة ، نتيجة مرور كريات الدم الحمراء أمام شبكة العين . . إلا أن أحدا أبى أن يأخذ بهذا التعليل البسيط المعقول ! . . وقد زعم البعض أن « الأطباق الطائرة » سلاح روسى جديد ورهيب ، يستطيع أن يصل إلى أى ركن من أركان الدنيا !

وتلعب الشائعة دورا هائلا فيما يسمونه بـ « الحرب الباردة » . . وما أقل الناس الذين يدركون أن من الممكن كسب المعارك دون إطلاق رصاصة واحدة ، وذلك عن طريق الحرب الباردة! . . ومن أساليب هذه الحرب أن تعمد إحدى الدول إلى شن حملة — فى الدول المعادية لها — تطالب بالسلام ومنع التسلح ، بينما تكون هى منصرفة إلى زيادة قواتها ! . . كما أن من أساليبها محاولة النيل من الشخصيات الحاكمة فى الدول المعادية ، وذلك باتهامها بأنها « دعاة حرب » و « دعاة استعمار » . . أو محاولة التفرقة بين الدول المعادية وتحطيم وحدتها !



# الفصل الثالث والعشرون

## الأسلحة السرية الألمانية

ما أظن أهل لندن وجنوب انجلترا ينسون قط القنابل الطائرة والصواريخ التى كانت تنهمر عليهم فى سنة ١٩٤٤ ! على أن الشىء الذى لم يعرفوه ، هو أن تلك القنابل والصواريخ كانت تنهمر بمعدل مائة فى اليوم — فى حين أن خطط الألمان كانت ترمى إلى إرسال ألف منها لضرب بريطانيا يوميا — وأن هذه الحملة تأخرت ستة أشهر عن الموعد الذى كان محددا لها . . ووراء هاتين الحقيقتين حلقة من أهم حلقات الجاسوسية فى الحرب العالمية الثانية !

فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، كنت أطوف بشواطىء البلطيق على دراجة ، أجمع مادة لكتاب كنت أضعه عن الرحلات . . وبلغت فى طوافى جزيرة ( روجن ) الألمانية ، وهناك ضللت طريقى بمحض المصادفة فدخلت منطقة كانت محاطة بأسوار ، وإذا بى أعتقل . إلا أنى سرعان ما أثبت حسن نيتى ، فأطلق سراحى . ولكننى استطعت — فى الفترة القصيرة التى قضيتها فى تلك المنطقة — أن ألاحظ بعض أشياء ، منها قطع من الأسمنت المسلح تناثرت فى أرجاء المكان ، وكانت إحداها على شكل شبه دائرى ، يتخلله مجرى ضيق فى الوسط . . واستطعت أن أفهم من القرويين المقيمين حول المنطقة ، أنهم كانوا يسمعون انفجارات تتبعها ضوضاء غريبة تتراوح فى شدتها وتشبه الضجة التى يحدثها القطار أثناء سيره ، وقيل لى أنه يبدو

أن ثمة تجارب كانت تجرى داخل المنطقة ، وأنها فشلت ، إذ رأى القوم قوافل من سيارات الاسعاف تغادر المنطقة — ذات يوم — محملة بالجرحى !

وما أن ادليت إلى الخبراء — فى لندن — بهذا النبأ ، حتى ادركوا ما كان يحدث داخل المنطقة .. فهناك ، كانت المانيا تجرى تجارب لاستعمال الصواريخ ، وكانت قطع الاسمنت هى بقايا القاعدة التى تطلق منها الصواريخ ، إذ ان بعضها انفجر وهو قريب من الأرض .. وقد سمعت من بعض الاصدقاء الألمان — بعد ذلك — أن محاولات بذلت لإطلاق صواريخ تحمل آدميين !.. وأستطيع أن أؤكد أن جواسيسنا توصلوا إلى انباء هذه التجارب ، وإن لم يسرقوا مشروعاتها من خزانة وزارة الحربية الالمانية .. ذلك لأنهم كانوا يلتقطون المعلومات، ويضمون بعضها إلى بعض فى مهارة وذكاء ، ليصلوا إلى ما كان لدى هتلر من « أسلحة الانتقام » التى كان لا يفتأ يهدد بها !

ولقد حدث عندما انهارت فرنسا — فى سنة ١٩٤٠ — أن أصيبت المخابرات السرية البريطانية بضربة شديدة . ولكن حسن الطالع خف لنجدتها ، إذ كان الألمان قد نقلوا ملايين من أبناء الأراضى التى احتلوها — كالفرنسيين والتشيكيين والبولنديين — للعمل داخل المانيا ، فوجدت المخابرات البريطانية فى هؤلاء أعوانا وعيونا لها ! .. وتحضرنى هنا قصة بدأت فى سنة ١٩٤١ فى ( وارسو ) ، إذ جمع الالمان فريقا من « المتطوعين » البولنديين لترحيلهم إلى المانيا للعمل فيها .. فلما تهيأوا للسفر ، انتحى ثلاثة منهم جانبا مع صديق كان يودعهم،



وإن راح يوصيهم بأن يفتحوا عيونهم وآذانهم وأن يوافوه بما يرون ويسمعون .. وكان هذا الرجل من العاملين فى المقاومة البولندية ، المتصلين بأحد جواسيس انجلترا !

وحدث أن نقل « المتطوعون » البولنديون إلى مكان على بحر البلطيق يسمى ( بينيموند ) ، فأدركوا من الأحاديث العابرة أن المكان مسرح للتجارب العسكرية أكثر مما هو مصنع عادى للطائرات .. وفى ذات يوم ، وصل ضابط من الهيئة التى كانت مسئولة عن العمال الأجانب ، فاذا به هو الآخر من رجال المقاومة البولندية ، الذين كانوا يتجسسون لحساب الإنجليز . وما أن اطمأن العمال إليه ، حتى قالوا له : « ان أمورا غريبة تجرى هنا .. ان هذا المكان ليس مجرد مصنع للطائرات ، وإنما هو محطة للتجارب .. وقد سمعنا كلمة « الصواريخ » تتردد أكثر من مرة ، كما رأى احدنا فى إحدى الحظائر طائرة صغيرة ، ذات محرك واحد .. ولكنها خلو من مكان للطيار !».

واستطاع العمال — بإرشاد الضابط — أن يرسموا خريطة للمكان وسرعان ما أرسل سلاح الطيران البريطانى طائرة استطلاع صورت الموقع ، وإذا بخبيرة فى تفسير الصور تقرر انها ترى فى الصورة طائرة بالشكل الذى وصفه العامل ! .. ومن هنا ندرك المصدر الذى استند إليه تشرشل عندما صرح فى البرلمان — فى ٦ يوليو سنة ١٩٤٤ ، أى بعد اولى غارات القنابل الطائرة — بأن انجلترا « تلقت فى الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٣ تقارير من المصادر الكثيرة التى تستعين بها مخابراتنا، تدل على أن الألمان كانوا يعملون على ابتكار سلاح جديد طويل

المدى لضرب لندن » ! .. وفى اغسطس سنة ١٩٤٣ ، قام السلاح الجوي البريطانى بأكبر غارة فى الحرب ، لتدمير ذلك المصنع الذى كان قائما فى ( بينيموند ) ، تدميرا تاما .

على أن هذه الكارثة لم تحول الألمان عن غايتهم .. فمن العمال الأجانب أيضا ، عرف الجواسيس الإنجليز أن قطع الصواريخ كانت تصنع فى مضانع متفرقة ، ثم يتم تجميعها وتركيبها فى مكان معين ، فهاجمت الطائرات البريطانية هذه المصانع كلها .. ولكن البولنديين الذين كانوا يقيمون على مقربة من مدينة ( ميليك ) لم يلبثوا أن اشاروا إلى مصنع غير عادى فى تلك المنطقة ، احاطه الألمن بحراسة شديدة ، واعتادت القطارات أن تتردد عليه ليلا ، وفى كل عربة من عرباتها حراس مسلحون .. وسرعان ما تسلل إلى المنطقة جاسوس بولندى استدرج سائقى القطارات ــ التى كانت تتردد على المصنع ــ فى الحديث ، حتى جمع منهم بعض المعلومات ، كما عرف من فرنسى كان يعمل داخل المصنع ان بعض ذوى المكانة فى الحكومة الالمانية يزورون المصنع من وقت لآخر ، لا سيما مدير الأرصاد الجوية بالذات !

وثبت أن المصنع كان ينتج اجهزة لاسلكية دقيقة ، توضع فى « بالونات » تطلق لتحلق فوق انجلترا .. وتجلى بعد ذلك أن هذه الأجهزة ــ التى أصبحت اليوم عادية ــ كانت تصدر إشارات لاسلكية عن الأحوال الجوية ، يستعين بها الطيران الألمانى فى غاراته !



## كاد هتلر يكسب الحرب .. بقذائفه الموجهة !

ومن ( ريجويس ) ــ ببولندا ــ تلقت المخابرات البريطانية تقارير من جواسيسها عن أجسام تشبه الطائرات شوهدت محلقة فى السماء ، والضوء ينبعث من ذيلها .. وما لبث أن ظهر أن الألمان كانوا يجربون سلاحا جديدا . وفى ذات يوم ، سقطت إحدى هذه القذائف بالقرب من نهر ( بوج ) دون أن تنفجر ، نبادر اعوان هيئة المقاومة السرية البولندية إلى دفعها إلى النهر . فلما بحث عنها الألمان لم يعثروا لها على اثر . وما لبث البولنديون ان اخرجوا القذيفة من النهر ، فالتقطت لها صور ، كما فحصت أجزاؤها ، وأعد عنها تقرير مفصل سلم إلى رجل كان ينتحل شخصية بحار سويدى ، فنقل التقرير فى حذائه إلى السويد ، ومنها إلى لندن . وفى ليلة وصوله أذيع فى البرنامج البولندى بالاذاعة البريطانية نبأ بسيط فى مظهره : « ان هتلر لا يقتنع بالوعود التى تكتب على ورق ، وإنما هو يريد الشىء الحقيقى .. ونحن كذلك ! » .

ولم يكن النبأ سوى رسالة إلى الجواسيس البولنديين ، ادركوا منها ان القذيفة ذاتها هى المطلوبة ، فنقلوا الأجزاء الهامة منها ــ وكانت تزن نحو قنطار ــ إلى غابة فى جنوب بولندا ، على مقربة من بقعة فضاء كانت معدة لتهبط فيها طائرات القتال الألمانية عند الطوارىء .. وكانت عملية نقل القذيفة إلى خارج بولندا من أشق العمليات ، لأن الجنود الألمان كانوا يرابطون على بعد ميل من المنطقة .



سقطت إحدى هذه القذائف بالقرب من نهر ( بوج ) دون أن تنفجر ، فبادر أعوان هيئة المقاومة السرية البولندية إلى دفعها إلى النهر ..



وصدر أمر إلى طائرة بريطانية بأن تطير إلى المنطقة .. وساعدها الحظ ، فهبطت هناك بسلام ، بعد منتصف إحدى الليالى .. وحملت أجزاء القذيفة ، كما حملت أحد زعماء المقاومه البولندية ، وكان يدعى « رافال » .. ولكن اسمه الحقيقى هو « ارشيتزفسكى » ، وقد أصبح بعد ذلك رئيسا لوزراء بولندا !

وعند وصول الشحنة الثمينة إلى لندن ، فحصها الخبراء ، فاذا بها احدث انواع القذائف الموجهة — فى ذلك الحين — وقد عرفت بالقذيفة : « ف — ١ » .

وهكذا ، كان الحلفاء قد عرفوا نبأ الصواريخ والقذائف الموجهة قبل ان يستخدمها الألمان فى غاراتهم ، فلما بدات تلك الغارات ، كان الحلفاء قد استعدوا لها ، كما نظموا سلسلة من اعمال التخريب فى مصانع إنتاج تلك الأسلحة — سواء فى المانيا او فى الدول المحتلة — وغارات عنيفة متوالية عليها .. ومن ثم لم يقدر للألمان أن يرسلوا على بريطانيا الف قذيفة فى اليوم ، كما كانوا يرجون !

ومن هنا نستطيع أن ندرك الدور الذى قام به الجواسيس فى تخفيف وطأة الأسلحة النازية السرية على بريطانيا ، وعلى لندن بالذات !



# الفصل الرابع والعشرون

## قضية التجسس فى كندا!

فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، غادر « ايجور جوزينكو » — كاتب الشفرة بالسفارة السوفيتية فى كندا — مبنى السفارة، كما اعتاد بعد انتهاء عمله فى كل ليلة لمدة عامين .. ولكنه فى هذه المرة كان قد عقد عزمه على أن تكون هذه آخر مرة يغادر فيها السفارة !

وكان شابا صغيرا ، لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، وقد استمتع بعضوية « الكونسومول » — أو هيئة الشباب الشيوعى ، فى روسيا — مذ كان طالباً . ولما توسم فيه المشرفون على هذه الهيئة مخايل مبشرة ، ألحقوه بمدرسة الهندسة فى موسكو ، ثم بمدرسة المخابرات السرية . وبعد أن اطمأنوا إلى إخلاصه تماما ، بعثوا به إلى كندا — فى سنة ١٩٤٣ — ليكون كاتب الشفرة بسفارة روسيا هناك . وإذا به يجد نفسه فى جو يشبه جو قصص الجاسوسية المثيرة ، التى يبتكرها خيال الكتاب .. فقد كان الجناح الذى يعمل فيه بمبنى السفارة، مفصولا عن باقى أجنحة المبنى بحواجز ونوافذ فولاذية . ولم يكن من المباح لأحد أن يدخل إلى تلك الأجنحة .. أما حراس الأبواب وخدم السفارة ، فكانوا جميعا من ضباط الجيش الأحمر ! .. ليس هذا فحسب ، بل ان « جوزينكو » لم يلبث أن تبين أن رئيسه المباشر — وهو الكولونيل زابوتين ، الملحق العسكرى — كان قد نظم شبكة واسعة للتجسس !



واستطاب « جوزينكو » الحياة فى كندا .. لذلك فانه لم يكد يسمع بأن النية قد اتجهت لإعادته إلى روسيا ، حتى قرر أن يبقى — بأى ثمن — وأن يحذر الكنديين من شبكة الجاسوسية ومن الخطط التى كانت ترمى إلى إثارة الشغب والقلاقل فى كندا . لذلك اختار عددا من الملفات التى تثبت ذلك ، وعرضها على إحدى صحف ( أوتاوا ) .. وكانت القصة غريبة ، ولعل غرابتها هى التى جعلت الصحيفة لا توليها نظرة جدية . ولم يكن لجوزينكو من هم سوى أن يجنب نفسه وزوجته وطفلهما، ما كان يخشاه من وراء العودة إلى روسيا ، لذلك راح يطوف بكل إدارة حكومية ، وبكل صحيفة ، ولكن أحدا لم يعن بقصته!

وفى مساء اليوم الذى غادر فيه السفارة وهو مصمم على ألا يعود إليها ، اقتحم بعض أعضاء تلك السفارة مسكنه ، ليستولوا على الوثائق التى سرقها .. وكان جوزينكو قد احتاط للأمر ، فنقل أسرته إلى مسكن جار له كان جاويشا فى السلاح الجوى الكندى ، فحاول رجال السفارة اقتحام هذا المسكن ، ولكن صاحبه استغاث بالبوليس . وقرر البوليس أن جوزينكو سارق ، فمن حق رؤسائه أن يعاقبوه ! .. وأثار هذا الموقف ضجة لفتت نظر السلطات العليا ، فبادرت إلى تأليف لجنة لفحص القضية، وإذا وثائق جوزينكو تكشف عن حقائق خطيرة! .. فقد ظهر أن الجناح المغلق ، المحاط بالحراسة — فى السفارة الروسية — كان فى الواقع مركزا عاما لخمس منظمات للجاسوسية ، انبثت فى مختلف ميادين النشاط فى كندا ، كما كان كل فرد فيها يتجسس على زملائه! .. وكان زابوتين

هو الذى نظم كل هذا ، بناء على الأوامر التى كانت تصدر إليه من موسكو مباشرة . وكانت له شبكة خاصة مهمتها معرفة كل شىء عن القنبلة الذرية ومصانعها ، وعن الجيوش التى ترسلها كندا والولايات المتحدة إلى اوربا ، وعن جهاز سرى لحرب الغواصات ، وعن القنابل الاليكترونية وانظمة الدفاع الكندية ..

وكانت هذه المهام تتطلب حشد عدد كبير من الجواسيس ، فاستخدم زابوتين واعوانه وسائل تدل على خبرة باستغلال مواطن الضعف فى نفس الإنسان .. فقد اتصلوا — فى بداية الأمر — بالدوائر الشيوعية الكندية ، واتصل اعضاء هذه بدورهم ، بالمشايعين للشيوعية أو الذين يعطفون عليها .. ونظمت اجتماعات لهؤلاء ، كانوا يلقنون فيها اساليب التجسس. وكانت السفارة تعنى بهم عناية فائقة ، لانهم لم يكونوا شيوعيين ، ومن ثم كانوا بمأمن من الشبهات !.. وكان زابوتين واعوانه يهتمون بالعلماء والموظفين الحكوميين بوجه خاص ، ويبحثون حال كل واحد ينتقونه بحثا دقيقا ، حتى انهم كانوا يتحرون عن علاقاته برؤسائه المباشرين ، واحواله المالية ، وامانيه ، وميوله ، وموقفه إزاء سياسة بلاده ، ومدى نفوذ زوجته عليه !

وكانوا من البراعة بحيث استدرجوا بعض السذج إلى شبكة الجاسوسية دون ان يفطن هؤلاء إلى ما كان يكمن وراء ذلك ، فلما انتبهوا إلى ما تورطوا فيه ، حاولوا ان ينسحبوا ، ولكن فرصة الانسحاب كانت قد فاتت ! .. وكان زابوتين يعد لكل



واحد ملفا خاصا ، ثم يلخص المعلومات التى جمعها عنه فى بطاقة يرسل نسخة منها إلى موسكو !

وفى الوقت الذى فر فيه جوزينكو من السفارة ، كان زابوتين منهمكا فى مضاعفة اعوانه ، كما اقترح إيفاد بعثة تجارية روسية إلى كندا ، ليتسلل معها عدد من الجواسيس الروس إلى البلاد ..

كل هذه الحقائق اكتشفتها لجنة التحقيق .. كما اكتشفت أن الشيوعيين كانوا مكلفين بالسيطرة على اكبر عدد ممكن من الجمعيات والنقابات ، بحيث لا يفطن أعضاؤها إلى أنها أصبحت تحت إشراف الشيوعيين . وبهذه الأساليب استطاع الجواسيس الروس أن يستغلوا رجالا كان من المحتمل أن ينفروا من الاتصال بالشيوعيين إذا انتبهوا إلى حقيقتهم !

## عالم بريطانى ينقل اسرار الذرة إلى الروس !

وكان نظام شبكة التجسس الروسية فى كندا بسيطا فى ظاهره ، ولكنه كان فعالا : كان كل فريق من الجواسيس المكلفين بمهمة واحدة ، ينتظمون فى خلية لا يتصل بالروس منها سوى عضو واحد .. وكان هذا العضو ينقل التعليمات إلى اعوانه ، ويتلقى منهم المعلومات .. وكانوا جميعا ينتحلون أسماء مستعارة .

وكانت هذه الخلايا تضم — فيمن كانت تضم من أعضاء — نساء كثيرات. وقد استطاعت المنظمة أن تدس إحداهن ، وكانت

تدعى « ايما وويكن » ، فى قسم الشفرة بوزارة خارجية كندا ، الأمر الذى مكنها من الاطلاع على برقيات هامة ! .. كما كان للمنظمة جاسوس يحتل مركزا رفيعا فى إدارة الذخائر ، فاستطاع أن ينقل إليها بيانات عن التجارب والمتفجرات الجديدة بلغت من الدقة درجة لم يكن ليحلم بها أى جاسوس آخر !

وكان بين الجواسيس عدد من أصل روسى ، كما كان بينهم عدد من أصل بريطانى .. بل ان واحدا منهم كان يتمتع بالجنسية البريطانية حتى ذلك الحين ، ومن ثم تولت السلطات البريطانية محاكمته .. ذلك هو الدكتور « آلان نن ماى » . وكان عالما ذريا بارعا ، اشترك فى التجارب الذرية الأولى فى كندا . وقد استطاع — خلال عمله — أن يطلع على كثير جدا من المعلومات والبيانات عن الأبحاث الذرية وأعمال الهيئة المشرفة على « مشروع الطاقة الذرية » . وقد دلت التحريات على أنه كان — قبل حضوره إلى كندا — شيوعيا متحمسا ، فى الخفاء ، وكان معروفا لدى السلطات فى موسكو . وقد اتصلت به منظمة زابوتين عقب وصوله إلى كندا ، وأطلقت عليه اسما مستعارا هو « اليك » !.. ولم تقتصر المعلومات التى قدمها على العمليات الفنية الخاصة بالقنبلة الذرية ، بل إنه ذهب فى تحمسه إلى درجة تقديم عينات من مختلف أنواع اليورانيوم الذى كان يستخدم فى الأبحاث !

وقد رفض « ماى » — أثناء محاكمته — أن يذكر اسم الرجل الذى كان يتصل به ، ولكنه اكتفى بأن قال ان هذا الرجل



كان روسيا ! .. على أن « ماى » لم يكن العالم الوحيد فى هذه الشبكة ، بل لقد كانت هناك خلية من الأساتذة المحترفين .

وإلى جانب ذلك ، كانت للجواسيس الروس فى كندا براعة فائقة فى تزوير جوازات السفر .. وكانوا يستخدمون الرشوة فى سبيل العبث بالملفات واستبدال الاستمارات المزورة بالاستمارات الأصلية وفقا لما يحقق مصلحتهم !.. ولم يكشف هذه الطريقة الماكرة سوى أن كاتبا جاسوسا فى إدارة الجوازات وضع الاستمارات المزورة فى الملفات ، ونسى أن يسحب منها الاستمارات الأصلية ، فانتبه رؤساؤه إلى المؤامرة !

وقد حنقت السلطات الروسية على ايجور جوزينكو اشد الحنق ، وحاولت بشتى الطرق أن تضع يدها عليه ، وذهبت إلى حد مطالبة الحكومة الكندية رسميا بتسليمه إليها ، وإلى حد رفع دعوى عليه متهمة إياه بسرقة أموال من السفارة .. ولكن الحكومة الكندية لم تنظر إلى شىء من هذه المحاولات نظرة جدية ، بل إنها أحاطت « جوزينكو » بحراسة شديدة حتى لا ينتقم اعداؤه منه بقتله !

**هذه القضية .. هزت اثنتى عشرة دولة !**

ولعل اهم ما اثارته هذه القضية هو : ما مدى المعلومات التى حصل عليها الروس بالوسائل التى اتبعتها شبكة الجاسوسية ؟ .. كان كل ما خرجت به لجنة التحقيق من تحرياتها فى هذا الصدد ، هو الآتى : « من المستحيل أن نعرف كمية المعلومات التى حصل عليها هؤلاء الجواسيس ، أو أن نقدر

قيمتها .. فان العمليات ظلت مستمرة سنوات عديدة ، وليس فى شهادات الشهود ولا فى القــرائن ما يوضح المدى الكامل لهذه المعلومات .. ولكن الثابت هو ان الروس حصلوا على قدر كبير جدا من البيانات السرية ، من عدة مصالح وهيئات ووكالات حكومية » !

وقد ذكرنا أن « ماى » قدم للروس بعض « عينات » من « اليورانيوم » المستخدم فى التجارب الذرية ، فتوصلوا إلى بعض اختراعات حربية سرية ، تقدر قيمتها ببضعة ملايين من الجنيهات .. ولكن الخسارة الأدبية كانت اكثر فداحة من الخسارة المادية ، إذ ان ما تبين من سهولة إغراء الكنديين على التجسس لحساب روسيا ، كان صدمة زعزعت الروح المعنوية هناك !

ثم ان الأسرار التى سرقها الجواسيس لم تكن أسرار كندا وحدها ، بل كان بينها أسرار تقتسمها مع كندا دول أخرى ، كالولايات المتحدة التى كانت تتعاون معها فى الأبحاث الذرية.. ومن ثم كان للقضية رد فعل فى حوالى اثنتى عشرة دولة ! .. ففى بريطانيا ، بادرت الحكومة إلى تطهير المناصب الكبرى ، التى يخشى على ما تحت أيدى أصحابها من وثائق ، لا سيما بعد أن أثبتت عمليات التجسس فى كندا أن معظم الجواسيس الخطرين لم يكونوا شيوعيين قط ! .. على أن رد الفعل فى الولايات المتحدة كان أشد وأقوى ، إذ اكتشفت السلطات أن ثمة شيوعيين وموالين للشيوعية فى كل مكان من البلاد .. ودارت المناقشات فى طول الولايات المتحدة وعرضها عن المعانى



الكامنة وراء عبارة : « الشيوعى الأمريكى » .. أهو مجرد مواطن يؤمن بمذهب سياسى معين ؟ وهل فى وسع الشيوعى أن يحتفظ بتحمسه للشيوعية وبولائه لوطنه أو للبلد الذى اتخذه موطنا ، فى آن واحد ؟ .. وبلغ الاستنكار الشعبى مدى بعيدا ، حتى أن محكمة الاستئناف الجنائية فى الولايات المتحدة، أصدرت حكما فى سنة ١٩٤٧ بأن « من الأمور التى يؤاخذ عليها القانون ، أن يصف إنسان غيره ، أو أن يصـف هيئة بأنهـا شيوعية او موالية للشيوعية . لأن لفظ « شيوعى » أصبح بدل — فى عقول كثير من الأشخاص المحترمين ! — على صفة تحط من قدر المرء وتجعله هدفا لكراهية الجمهور » !!

وكان من نتائج هذه القضية ، أن ضاعفت سلطات الأمن فى الدول الغربية — وفى كندا والولايات المتحدة وبريطانيا بالذات — جهودها ، وأخذت تراقب كل من تحوم حوله أتفه الشبهات، من العـاملين فى الأبحاث الذرية والحربية . وكان من هؤلاء شخص لم يلبث أن دمغ بوصمة الجاسوسية .. ذلك هــو الدكتور « كلاوس فوخس » ، الذى سأتحدث عنه بعد أن استعرض معك الجاسوسية بين « الحلفاء » ، فى فترة الحرب العالمية الثانية !

# الفصل الخامس والعشرون

## مؤامرة المانية لاغتيال ستالين وروزفلت وتشرشل

عندما أشرفت الحرب على نهايتها ، رأى أقطاب الحلفاء أن يجتمعوا لدراسة حالة العالم بعد الحرب ، فوضعوا نواة النظام الدولى الجديد ، وبتوا فى مصائر زعماء الدول المهزومة ، واتفقوا على المبادىء الأولية لميثاق الأمم المتحدة . وقد بحثت كل هذه الموضوعات فى ثلاثة مؤتمرات ، عقدوها فى ( يالتا ) بالقرم ، وفى ( القاهرة ) بمصر ، وفى ( طهران ) بايران .

ومما يؤثر عن روزفلت ، الرئيس الأمريكى الأسبق ، أنه كان يردد — عندما عقد الأقطاب الثلاثة مؤتمر يالتا — القول الآتى : « سواء وجد فى يالتا جاسوس أو لم يوجد ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو أنه كان ثمة جواسيس فى مؤتمر طهران » . . فقد كان مؤتمر طهران — الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٩٤٣ — هو المناسبة الأولى التى جمعت بين روزفلت وتشرشل وستالين بأشخاصهم . وعندما وصل روزفلت إلى العاصمة الإيرانية ، كانت قوات روسيا تحتل النصف الشمالى من إيران ، بينما كانت القوات الإنجليزية والأمريكية تحتل النصف الجنوبى ، إذ كانت إيران من أهم المناطق التى كان الحلفاء يوافون الروس بامداداتهم عن طريقها . .

وكان مبنى السفارة الأمريكية فى بقعة شبه منعزلة عن المدينة . وما ان استقر روزفلت فيه ، حتى تلقى رسالة غريبة



من ستالين ، جاء فيها : « هناك مؤامرة هتلرية للقضاء على ثلاثتنا ، فالمدينة مليئة بالجواسيس الألمان . فهلا جئت وأقمت معى فى السفارة السوفييتية؟ » . . واستجاب روزفلت للدعوة ، فانتقل إلى السفارة السوفييتية ، فاذا بها قد تحولت إلى قلعة حصينة . . وقد ظل فيها إلى أن انتهى المؤتمر .

ولقد كان ستالين صادقا فيما ذكره عن الجواسيس ، إذ أن نبأ المؤتمر لم يكن محوطا بتكتم كاف . . ولكنه كان مغاليا فيما ذكره عن المؤامرة . . أو بالأحرى ، ان المؤامرة لم تكن قائمة حين كتب رسالته . فقد وضعت المخابرات السرية الألمانية فى الشرق الأوسط خطة للقضاء على الأقطاب الثلاثة ، وعينت لتنفيذها ضابطين وستة أفراد من « الجستابو » . . ولكن كثرة عدد المتآمرين كانت السبب فى فشل هذه الخطة ، إذ لم يلبث أحد المكلفين بمعاونتهم — من جواسيس الألمان المندسين فى إيران — أن أفشى سر المؤامرة للحلفاء ، فسرعان ما نشطت سلطاتهم إلى تعقب المتآمرين حتى عثرت عليهم مختفين لدى أحد زعماء القبائل . . ولكنها لم تعتقلهم ، بل تركتهم ليطمئن الألمان ، ثم ضربت ضربتها فى اللحظة الأخيرة ، فاعتقلت أفراد « الجستابو » الستة وعددا كبيرا من الجواسيس .

## أسرار أمريكا العليا .. فى أيدى الشيوعيين !

وكان الاجتماع التالى للأقطاب الثلاثة فى ( يالتا ) ، فى فبراير سنة ١٩٤٥ . . ولم يكن ثمة خوف من الجواسيس الألمان فى هذه المرة ، إذ كانت هزيمتهم شبه محققة . . ومع ذلك فان بوليس الأمن السوفييتى أبدى نشاطا فائقا ، لأن ( يالتا )

تقع فى أرض سوفييتية ، فكان الأقطاب الثلاثة أشبه بوديعة فى عنق روسيا !

ولقد كان مؤتمر يالتا يفوق مؤتمر طهران أهمية ، إذ بحث فيه الأقطاب الخطط النهائية للاجهاز على المانيا وتقسيمها إلى مناطق احتلال ، كما تضمنت القرارات التى أسفر عنها مادة سرية بشأن دخول روسيا الحرب ضد اليابان . وتناول البحث كذلك : مسائل التعويضات ، ومساعدة الدول المتحررة ، ورسم الأداة الخاصة لإعداد العدة لقيام الأمم المتحدة ..

وليس هنا مجال الحكم على القرارات التى اتخذت فى ذلك المؤتمر ، ولكنا نكتفى بأن نشير إلى أن روسيا كانت أكثر الحليفات الثلاث كسبا فيه .. وأن بذور الخلاف الذى ظهر بعد ذلك واستفحل ، بين روسيا وبين أمريكا وبريطانيا ، إنما بذرت فى ذلك المؤتمر بالذات !

والواقع ان اتفاقية ( يالتا ) وضعت شرق أوربا كله تقريبا تحت سيطرة روسيا ، وأدت إلى اضطرابات لم يسمع بمثلها فى آسيا من قبل ! وتدل سجلات المؤتمر على أن ستالين كان قد حدد أهدافه ، فسعى إليها بكل ما فى وسعه ، ووجد من تشرشل وروزفلت استجابة لمعظم مطالبه ! .. ولقد آثار مسلك الزعيمين الغربيين انتقادات مريرة ، حتى لقد اعتبر هذا المسلك — فى نظر عدد من قادة الرأى فى انجلترا وأمريكا — بمثابة تسليم منهما لستالين .. فلماذا تراهما قبلا هذا الوضع ؟

يقول أصدقاء روزفلت — فى هذا الصدد — انه كان يدرك ما فى الاتفاقية من أخطار ، ولكنه كان يعتقد أن نفوذه الشخصى



لدى ستالين كان من القوة بحيث يمكنه من توجيه الاتفاق طبقا لتفسيره الخاص .. ولعل روزفلت كان مسرفا فى التفاؤل ، ولكنه — على كل حال — لم يعش حتى يجرب ذلك ! .. أما تشرشل ، فقد حاول أن يبرر موقفه فى مجلس العموم — فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٥ — بأن تعلل بأن نجاح الاتفاقية او فشلها إنما يعتبر نتيجة لتباين معانى « الديموقراطية » و « الانتخابات الحرة » لدى كل من الشرق والغرب !.. وعلى كل حال ، فان الأمر الذى لا شك فيه هو ان تشرشل وروزفلت يحملان مسئولية المتاعب التى يعانيها العالم اليوم ، والتى نبعت من مقررات يالتا ! ترى هل كان الزعيمان الغربيان من الضعف والتراخى بحيث جرفتهما الدبلوماسية الروسية ؟.. اننى لا ابغى التصدى للاجابة عن سؤال كهذا ، ولكن قد يكون ثمة تفسير آخر لحقيقة الموقف الذى جرى فى ( يالتا ) ، فلنبحث عنه فى القصة التالية :

إن الأمريكيين يعجبون عادة بالشاب الناجح الذى يبنى حياته بجهوده .. ومن ثم كان إعجابهم شديدا بشاب يدعى « الجير هيس » ، ولد لأسرة متوسطة كانت تقيم فى (بلتيمور)، وأبدى فى مختلف مراحل دراسته تفوقا ، كما كان فى طليعة خريجى جامعة ( هارفارد ) ، مما سمح بتعيينه — فور تخرجه — فى منصب قانونى هام . ولازمه النجاح ، فأخذ يتنقل من منصب إلى آخر أرفع منه ، حتى إذا كانت سنة ١٩٣٦ عين فى منصب مرموق فى وزارة الخارجية الأمريكية ، ثم بلغ ذروة النجاح فى سنة ١٩٤٥ ، إذ عين سكرتيرا عاما لمؤتمر ( سان فرانسيسكو )

الذى وضع ميثاق الأمم المتحدة ، وافتتح بنفسه أول اجتماع لهذا المؤتمر التاريخى !

هذا النوع من قصص النجاح الذى يكتسب بالعمل والذكاء، لا بالحسب والجاه ، يستهوى الأمريكيين . ومن هنا كان إعجابهم بشخصية « الجير هيس » .

وحدث فى سنة ١٩٤٨ ، أن أجرى تحقيق مع شيوعى أمريكى سابق يدعى « هويتاكر تشامبرز » ، فاذا الرجل يعترف بكل نشاطه السابق ، فيدوى هذا الاعتراف كالقنبلة ! .. فقد ذكر أنه كان عضوا فى عصابة للتجسس ، ولكنها لم تكن على نسق عصابة « جوزينكو » فى كندا .. وكان — عندما بدأ هذا النشاط — شيوعيا مثاليا ، وقد تولى نقل رسائل خلية كانت تسرق أسرار وزارة الخارجية الأمريكية ، فكان يسلمها إلى جواسيس من الروس ، ذكر منهم — بوجه خاص — الكولونيل بيكوف ، الذى كان رئيسا للمخابرات العسكرية السوفييتية فى الولايات المتحدة ، وكان ينتحل لنفسه فى العصابة اسم « بيتر » .. على أن تشامبرز ما لبث أن شعر — كما قرر فى اعترافاته — بأن الشيوعية ليست بالعقيدة المثلى ، وكان من جراء تبدد يقينه فيها أن انقلب فصار من أعدائها . وعندما استدعى أمام لجنة من لجان الكونجرس — وكان قد أصبح رئيس تحرير مجلة واسعة الشهرة — تبرع بذكر أسماء الذين كانوا يشتركون معه أيام كان جاسوسا .. وشد ما كانت دهشة الجميع حين ذكر اسم « الجير هيس » بين تلك الأسماء ، وتمادى فأذاع



اتهامه لهيس فى حديث بالراديو ، فما كان من هيس إلا أن رفع الأمر للقضاء واتهمه بالتشهير به .

وتريث تشامبرز حتى اتخذت الدعوى سيرها القانونى ، ثم استخرج من مخبأ سرى — فى قطعة من أثاث بيته — حزمة من الوثائق يرجع عهدها إلى عشر سنوات سابقة .. أى أيام كان ينقل الرسائل للجواسيس الروس . وبهت المحامون حين تبينوا أنها كانت وثائق سرية تتصل بالسياسة العليا لوزارة الخارجية الأمريكية ، وكان عددها خمسا وستين .. وقد كتب بعضها بخط « هيس » !

وسخر « ترومان » — وكان رئيسا للجمهورية إذ ذاك — من القضية ، وزعم أنها حيلة سياسية من منافسيه استعدادا للانتخابات ، إذ كان « الجير هيس » من كبار موظفى حكومته، ومن شأن أية وصمة تصيبه أن تمس برشاشها رئيس الحكومة. ومما يذكر أن ترومان نجح فى الانتخابات ، ولكن عددا كبيرا من أعضاء لجنة مجلس الشيوخ — التى تولت التحقيق مع تشامبرز — نجحوا هم الآخرون ، فاستأنفوا التحقيق . وهنا قال تشامبرز انه قبل عشر سنوات ، أعطى أحد أقاربه مظروفا مختوما بالشمع الأحمر ، وسأله أن يسلمه للسلطات ، إن أصيب هو — أى تشامبرز — أو زوجته بسوء بعد خروجه على الشيوعية ! .. وذكر أنه استرد المظروف بعد ذلك ، وأخفاه فى مزرعة له بماريلاند . ومن ثم أوفد أحد رجال المباحث التابعين لوزارة الخارجية إلى المزرعة ، فعثر على المظروف ، وتبين أن فيه شرحا لما ذكره تشامبرز ، وعشرات من الأفلام الدقيقة الحجم ، التى التقطت لوثائق دبلوماسية أمريكية سرية جدا !

وترنحت لجنة الكونجرس لفرط الذهول ، لا سيما حين اثبت تشامبرز أن « هيس » هو الذى سلمه تلك الوثائق فى سنة ١٩٣٨ ، ونسخ بعضها بخطه ! .. واستحوذت القضية على اهتمام الرأى العام الأمريكى ! فضاعت جهود ترومان فى التقليل من شأنها .. واستغلت العناصر السياسية هذه الضجة ، فأخذ السياسيون يزجون بأسماء بعضهم بعضا فى القضية نكاية ودسا ! .. واختلف المحلفون فى المحاكمة الأولى ، ولكن الاتهام جاء بشهود جدد ، بينهم «هيدى ميسنج»، وكانت زوجة سابقة لزعيم شيوعى ألمانى ، كما كانت جاسوسة .. وقد أقسمت على أن « هيس » كان شيوعيا ! .. كذلك شهدت خادم كانت تعمل لدى « هيس » بأن مخدومها اعتاد أن يزور دار تشامبرز فى ( بلتيمور ) قبل عشر سنوات .. ثم ظهر دليل قوى ، تمثل فى أن بعض الوثائق نسخ بآلة كاتبة كانت خاصة بهيس !

وفى يناير سنة ١٩٥٠ ، ادين هيس لتجسسه لحساب روسيا ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات !

وإذا كان تشامبرز قد أفشى أسرار هيس التى عرفها قبل عشر سنوات ، فان احدا لم يعرف ما كان من نشاط هيس التجسسى بين سنتى ١٩٣٨ و ١٩٤٨ .. والذى يعنينا من أمر هيس انه كان من معاونى روزفلت فى مؤتمر ( يالتا ) فى سنة ١٩٤٥ ، كما كان من بين الذين رافقوا روزفلت للإقامة فى السفارة السوفييتية فى طهران ، عندما أشفق ستالين على حياة الرئيس الأمريكى، أثناء المؤتمر الذى عقد فى العاصمة الإيرانية!!

---



# الفصل السادس والعشرون

## قضية الدكتور كلاوس فوخس

عندما اخترع الالمان مدفعهم الجبار « برتا الكبير » ، ورموا بحممه العاصمة الفرنسية من مسافة ٧٥ ميلا — فى سنة ١٩١٨ — استنكر عملهم قس ألمانى كان بفطرته يمقت الحروب ، وآلى على نفسه أن يبشر بالسلام . فلما قدر لألمانيا أن تنهض ثانية — عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى — وبدأ الاشتراكيون يسيطرون على شئونها ، ويسعون إلى القوة ، ويبثون روح العنف فى الحركة الوطنية ، أبى القس على ابنه « كلاوس » أن يشترك فى هذه الحركة ، وراح يحدثه عن الإخاء والسلام والوئام الدولى .

وانصاع الابن لتعاليم أبيه ، وتحمل فى ذلك ألوانا من السخرية المقذعة التى كان زملاؤه فى المدرسة — ومعظمهم من ابناء الجنود — يصبونها عليه ، ولكن « كلاوس » لم يلبث أن التحق بجامعة ( كييل ) ، وإذ ذاك لم يجد نفسه وحيدا فى النفور من النازية ، إذ كان بين الطلبة من يتحدونها علانية .. لأنهم كانوا شيوعيين !.. وبقدر ما كان عقل « كلاوس » جبارا فى التحليل العلمى والرياضى ، فانه كان ساذجا إزاء الحجج السياسية ، ومن ثم تقبل فى بساطة الأفكار المتطرفة التى كان الشيوعيون يبشرون بها .

وتتابعت التطورات فى الميدان السياسى ، فاذا النازيون يستولون على أزمة الحكم ، فيضطهدون كل من لم يؤمن

بمذهبهم .. واعتقلوا القس « فوخس » وساموا ابنته العذاب حتى انتحرت .. أما ابنه « كلاوس » فقد استطاع أن يهرب إلى إنجلترا !

وهناك أحس « كلاوس » بالوحدة ، وبالحاجة إلى أن يتبين حقيقة نوازعه وآرائه : كان يميل إلى ما يكتبه الشيوعيون عن مبادىء الأخوة والسلام والوئام الدولى .. وكان يميل إلى التدين .. وكانت نظرته إلى المستقبل — حتى ذلك الحين — مائعة ، مضطربة !.. وظل العلم هو العنصر المسيطر على عقله إلى أن فاز بالدكتوراه من جامعة أدنبره — فى سنة ١٩٣٨ — وتوقع له أساتذته أن يصبح بين طلائع رواد الميدان العلمى الجديد : ميدان الذرة ! على أنه لم يلبث أن اعتقل عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، وأرسل إلى كندا . فقد كان ألمانيا ، وكانت تدبيرات الأمن تضع كل ألمانى فى إنجلترا موضع الشك . وكان هذا الإجراء صدمة للعقيدة التى كانت قد بدأت تتكون فى ذهن العالم الشاب عن الديموقراطية الغربية ، فاذا إيمانه فى الشيوعية يتجدد . على أنه لم يقض فى المعتقل أكثر من عام تقريبا ، ثم أطلق سراحه وأعيد إلى إنجلترا حيث عين بجامعة بيرمينجهام للعمل تحت إشراف أحد الخبراء الذين كانوا يتوفرون على الأبحاث الذرية ، فأبدى الشاب من العبقرية ما جعل السلطات تمنحه الرعوية البريطانية بعد عام . وما أن أقسم «كلاوس» يمين الولاء لوطنه الجديد ، حتى اختير عضوا فى فريق من علماء الذرة البريطانيين ، أوفد إلى أمريكا للعمل مع الفريق الأمريكى الذى كان متوفرا على الأبحاث الذرية .



وهناك ، أتيح لكلاوس — بحكم مركزه — أن يطلع على أهم الأسرار الذرية .. وكان من زملائه الدكتور ، « الان نن ماى » الذى روينا قصته من قبل !

وكان الجواسيس الروس قد سعوا إلى الاتصال بكلاوس فى إنجلترا من قبل ، واستطاعوا أن يقنعوه بأن واجبه الإنسانى يقتضيه أن يعاون القضية الشيوعية عمليا ، وأن سلطات الطبقة العاملة — ممثلا فى نظام الحكم القائم فى روسيا — لن يلبث أن يتداعى تحت ضغط حلفائها السابقين ، ما لم تتمكن روسيا من أن تبارى بريطانيا وأمريكا بالذات ، فى مضمار القوة .. وكانت تنتاب « كلاوس » فترات من الاضطراب ، إذ يستيقظ ضميره ليهيب به أنه خائن للبلاد التى ائتمنته ووثقت به . ولكن الروس كانوا يلاحقونه بإغرائهم وبأموالهم ، حتى انصاع وأصبح تحت رحمتهم .. وبينما كانت « القنبلة الذرية » تمر بآخر مراحل التجربة، ظل جاسوس روسى على اتصال مستمر بالعالم الشاب ، متبعا فى اتصالاته أساليب بارعة لم تعرضه أو تعرض كلاوس لأية شبهة !

وعندما تمت هزيمة دول المحور ، عاد كلاوس إلى إنجلترا ، حيث عين فى منصب من مناصب المسئولية الرئيسية فى أول مركز للأبحاث الذرية فى إنجلترا ، وهو مركز أبحاث ( هارويل ) . وهناك ، خفت وطأة العجلة التى كانت تتطلبها حاجة الحرب ، فبدأ كلاوس يجد متسعا من الوقت لإمعان الفكر .. وبدأت الهواجس تراوده ، إذ تناهت إلى إنجلترا الضجة التى أحدثتها قضية الجاسوسية الروسية فى كندا !

واسترعى انتباه كلاوس بالذات ما تجلى خلال تلك القضية من استغلال الشيوعيين السذج فى التجسس .. وزاد من هواجسه أن أيقنت السلطات الأمريكية — عندما فجرت روسيا أولى قنابلها الذرية — أن الروس ولا بد قد تلقوا معونة من الخارج كشفت لهم أسرار العمليات الذرية ، فبدأ رجال مكتب التحريات الاتحادى — فى أمريكا — و « القلم الخاص » فى اسكتلنديارد بانجلترا ، يتحرون الأمر .. وحصروا شبهاتهم أولا فى العدد القليل من العلماء الذين كانوا يشتركون فى تلك العمليات ، فأخذوا يفحصون حالاتهم واحدا بعد آخر ، حتى تركزت الشكوك فى ستة من هؤلاء العلماء .. كان بينهم كلاوس فوخس !

وفى تلك الأثناء ، كانت الهواجس قد استبدت بالعالم الشاب ، وأصبح ذهنه مسرحا لأفكار متضاربة متصارعة ، فلم يجد سبيلا إلى التخلص من هذا التوتر المرهق إلا بالاعتراف !

### كلاوس ينتمى إلى هذا الجيل .. الحائر !

وكان اعترافه وثيقة عجيبة ، تنم عن حيرة الجيل الجديد من الجواسيس وتخبطهم .. وتدل فى الوقت ذاته على الاضطراب الفكرى الذى يسود عصرنا الحالى !.. ووجد النائب العام — فى إنجلترا — أنه إزاء قضية بلغت ذروة الخطورة ، ولست أجد خيرا من أن أنقل بعض فقرات من قرار الاتهام : « لم يعد هناك ريب فى أن المعلومات التى أفشيت خليقة بأن تكون ذات فائدة عظمى لأية دولة تناصبنا العداء .. وقد لا تصبح الدولة التى قدمت إليها الأسرار عدوا لنا يوما ما ..



فمع أن علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى ما تزال فى حاجة إلى كثير من الأمور المرغوب فيها ، إلا أنها ليست علاقات معادية » .. « فى البيان الذى أفضى به السجين ، اختلطت الدوافع بالحقائق دون ما تفسير واضح : فالسجين شيوعى ، وهذا هو التفسير المباشر وموطن المأساة فى القضية .. إذ أن إخلاصه للشيوعية طغى على تفكيره إلى حد جعله مزدوج الشخصية ، فاذا بالجزء المسيطر على سواه من أجزاء عقله ، يسمح له بأن يأتى أشياء كانت تلك الأجزاء الأخرى تعترف صراحة بأنها تصرفات خاطئة » .. وكان النائب العام يعنى بذلك أن ولاء المتهم للشيوعية طغى على كل ولاء آخر ، وجعله يأتى من الأعمال ما كانت مبادئه واتجاهاته الفكرية الأخرى تعيبه .

ونقل النائب العام فقرات من بيان فوخس للتدليل على ذلك : « عندما علمت بالغرض المقصود من العمل الذى انتدبت له ، رأيت أن أبلغ روسيا الأمر ، فاتصلت بعضو آخر فى الحزب الشيوعى ، ومنذ ذلك الحين أصبحت على اتصال مستمر بأشخاص لم أكن أعرف عنهم سوى شىء واحد ، هو أنهم على استعداد لأن يقدموا كل ما لديهم من معلومات إلى السلطات الروسية .. وكنت إذ ذاك أثق ثقة تامة بالسياسة الروسية ، كما كنت أعتقد أن الحلفاء الغربيين تعمدوا إشعال نار الحرب بين ألمانيا وروسيا حتى تقضى كل منهما على الأخرى ! ولذلك لم أتردد فى أن أفضى للروس بكل ما كان لدى من معلومات ، وإن حاولت — برغم ذلك — أن أركز تلك المعلومات فى نتائج العمل الذى كنت أقوم به .. واستغللت فلسفتى الماركسية فى تقسيم عقلى إلى قسمين منفصلين ، سمحت لنفسى فى

احدهما بأن أرتبط بصداقات وعلاقات شخصية ، فالتقى بالناس واصبح فى علاقتى معهم الرجل الذى كنت أرجو ان اكونه ، بل والذى كنته من قبل — إلى حد ما — فى علاقتى الشخصية بمن كان لى من أصدقاء فى الحزب الشيوعى » ..
اما القسم الثانى ، فهو الذى سمح فوخس لنفسه فيه بأن ينقل نتائج ابحاثه العلمية إلى روسيا . ولقد حاول ، عندما طلبت منه السلطات الروسية مزيدا من التفصيلات عن القنبلة الذرية ، أن يقتصر على إبلاغها نتائج عمله فقط . على انه عندما عين فى ( هارويل ) بعد ذلك ، بدأ يمحص المعلومات التى كان يقدمها .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٣ ، أوفد فوخس إلى أمريكا لمواصلة أبحاثه ، فجدد العهد بأن يصون أسرار عمله . وقضى ١٨ شهرا فى أمريكا ، بعضها فى نيويورك وبعضها فى نيو مكسيكو . وقد عقد عدة اتصالات مع الجواسيس الروس فى تلك الأثناء . ثم تناهت الأنباء من أمريكا عن تسرب اسرار ذرية فى الفترة التى كانت البعثة البريطانية فيها هناك ، فأجريت تحريات واسعة النطاق ، انحصرت الشبهات فى نهايتها فى فوخس .. وسواء شعر بها ام لم يشعر ، فانه كان يحس بقلق وعدم اطمئنان إلى مسلكه . وقد عبر عن ذلك فى اعترافاته بقوله : « وفى أعقاب الحرب ، بدأت اشعر ثانية بهواجس إزاء السياسة الروسية . وفى تلك الفترة لم أعد واثقا ان بوسعى أن أمضى فى إعطائهم ما لدى من معلومات .. وتجلى لى — اكثر من ذى قبل — ان الوقت الذى يتم فيه لروسيا بسط نفوذها على أوربا جد بعيد ، فكان على أن اقرر ما إذا كنت امضى فى نقل



المعلومات إليهم سنين عديدة أخرى ، دون أن أكون متأكدا فى نفسى من اننى كنت على صواب فيما افعل .. وانتهى رايى إلى اننى لن أستطيع . وتخلفت عن موعد كان بينى وبينهم — لأننى كنت مريضا إذ ذاك — كما قررت الا اذهب فى الموعد التالى . وبعد ذلك بقليل ، انبانى أبى بأنه قد يرحل إلى المنطقة الشرقية من المانيا » .

وبعد اشهر قلائل ، أخذ فوخس يزداد اقتناعا بوجوب تخليه عن عمله فى ( هارويل ) .. « على اننى بدأت أرى بوضوح أنى سأوجه ضربة قاصمة لهارويل ولكل العمل الذى أحببته ، إذا انا رحلت .. كما أننى سألقى الشكوك على أصدقاء أحببتهم ، وعلى اشخاص كانوا يرون فى صديقا لهم .. وإذ ذاك تبينت ان الجمع بين المبادىء الثلاثة التى كونت شخصيتى ، كان جمعا خاطئا .. بل إن كل مبدأ منها كان خاطئا فى حد ذاته .. وتبينت ان ثمة معايير معينة للسلوك الخلقى لا يمكن إغفالها » !

ولقد استغل الدفاع عن فوخس ذلك التوتر الذهنى الذى كان العالم الشاب يعانيه ، فى مناشدة المحكمة أن تترفق فى الحكم عليه .. وأسهب فى وصف حيرته العقلية إزاء ما اعترض حياته — فى صباه — من تضارب بين الآراء النازية والشيوعية .. ثم إزاء تضارب الأحداث فيما بعد .

ولم يشأ فوخس أن يعقب بعد ذلك إلا بشكر هيئة المحكمة ، وهيئة الدفاع ، وهيئة السجن ، على معاملتهم .

وكان القاضى لاذعا فى التعليق الذى وجه إلى المتهم عندما قضى عليه بالسجن اربعة عشر عاما ، إذ قال : « لقد استغللت

– وأنت هارب من الاضطهاد السياسى فى المانيا – حقوق وكرم البلاد التى لذت بها .. وخنت الضيافة والحماية اللتين بسطا لك بأبشع غدر .. وفى رأيى أن هناك أربعة أمور أراها أخطر وجوه الجريمة : أولا ، انك بسلوكك عرضت للخطر حق الايواء الذى كانت هـذه البلاد تبسطه للاجئين من قبل .. فكيف نجرؤ الآن على أن نأوى لاجئين سياسيين قد يكونون من اتباع هذه العقيدة السياسية التى تعادى عقيدتنا ؟.. وثانيا ، انك لم تقتصر على إفشاء مشروعات ومخترعات من إنتاج ذهنك ، بل إنك خنت أيضا أسرار غيرك من العاملين فى هـذا الميدان من ميادين العلم ، لا فى هذه البلاد وحدها ، بل وفى الولايات المتحدة ، والقيت أخطر الشبهات على أولئك الذين كنت تتظاهر بأنك صديقهم . وثالثا ، انك ربما تكون قد عرضت للخطر ما بين هذه البلاد والجمهورية الأمريكية من علاقات طيبة . ورابعا ، أنك الحقت بهذه البلاد وبالولايات المتحدة أضرارا لا تعوض ، ولا يمكن معرفة مداها .. وقد فعلت كل ذلك لغرض واحد – كما يظهر من اعترافاتك – هو تعزيز عقيدتك السياسية .. فاننى أحب أن أسلم بأنك لم تفعل ذلك لكسب المال ! على أنى لست أحكم عليك لأعاقبك، فان العقاب بالنسبة لرجل له مثل عقليتك لا يعنى شيئا ، وإنما يدعونى واجبى إلى أن أوقع بك العقوبة حماية لهذه البلاد .. إذ كيف أطمئن إلى انك لن تسمح لعقلك فى أية دقيقـة اخرى بأن يسير بتلك الطريقة الغريبة ، فيقضى بك إلى إفشاء اسرار لها أعظم قيمة وأهمية فى هذه البلاد ؟ ! » .



## خطر العلماء .. على البشرية !

ولا تكاد توجد قضية من قضايا التجسس أثارت مشاعر الرأى العام مثل هذه القضية ، إذ هزت رجل الشارع هزا ! كانت قضية التجسس فى كندا قد كشفت بجلاء عن ان ثمة شبكة للجاسوسية الروسية فى إنجلترا ، وفى أوساط علمائها بوجه خاص .. ولكن الرأى العام البريطانى أبى أن يصدق أن مثل هـذه الشبكة يمكن ان تقوم فى بلاده . فلما صدم بقضية فوخس ، راح يهاجم فى غضب نظام الأمن فى إنجلترا .. ولكن أية دولة لا تصيب من الأمن إلا بقدر ما تبذل من جهود ويقظة واستعداد !

ومن الحقائق المذهلة التى أظهرتها هذه القضية ، هو أننا نزداد اعتمادا فى حياتنا الحديثة على العلم ، دون أن ندرك منه إلا القليل ، مما يجعلنا تحت رحمة العلماء بدرجة هائلة ، ويمكنهم من أن يغرروا بنا بسهولة إذا شاءوا .. وقد لاحظنا أن هناك علماء بارعين فى ميادينهم ، ولكنهم فى تصرفاتهم يهبطون إلى مصاف الأطفال السذج !

ولكن مما يتجافى مع المنطق أن ننظر إلى قضية فوخس على انها وحدة قائمة بذاتها ، بل يجب أن نربط بينها وبين الماضى – كقضية التجسس الكندية – وبينها وبين المستقبل .. فليس من شك فى أن سير التجسس قد اتخذ طريقا جديدا ، وأصبح يستعين بوسائل حديثة – إلى جانب القديمة – ومن ثم وجب أن تتغير نظرتنا إليه ، ووسائلنا فى مقاومته !

# الفصل الختامى

## مستقبل الجاسوسية

على الرغم من أن الشجاعة التى يبديها الجاسوس الذى يعمل لصالح بلده تخفف من قبح الجاسوسية وشناعتها ، إلا أنها لا تمحو تماما ما فى مهمة الجاسوس من صفة ممجوجة . فلماذا إذن تسكت عنها الشعوب وترتضيها أحيانا ؟.. الواقع أن الجاسوسية فى حد ذاتها ليست علة أو سببا ، وإنما هى نتيجة ، أنمتها الحروب المتعاقبة ، والخوف من الحروب . فلو أننا استطعنا أن نمحوا الحروب ، لتلاشت الجاسوسية !

إن ثمة ضبابا كثيفا يلف أوربا والشطر الأكبر من العالم اليوم .. ضباب الشك والتوجس ، الذى لا يثير الأعصاب شىء مثله . فأنت لا تدرى ما إذا كانت اليد التى تمتد إليك تبغى أن تأخذ بيدكَ وترشدكَ ، أو انها تمتد لتنتشل ما فى جيبكَ !

وهذا الضباب العالمى قديم العهد ، طويل العمر ! وليس من الانصاف أن يلقى عبء تنميته كله على روسيا وحدها . بل إن اكبر ذنب أتاه زعماء السوفييت هو أنهم لم يستغلوا الفرصة التى سنحت — عندما حانت ساعة النصر فى سنة ١٩٤٥ — لتبديد هذا الضباب ، فجعلوا ساسة الدنيا يقضون الساعات الطوال فى مناقشة آثاره ، دون أن يذكروا أسبابه الأصلية .. ومن ثم فان الضباب يزداد تكاثفا ، وشرور الحرب ما تزال

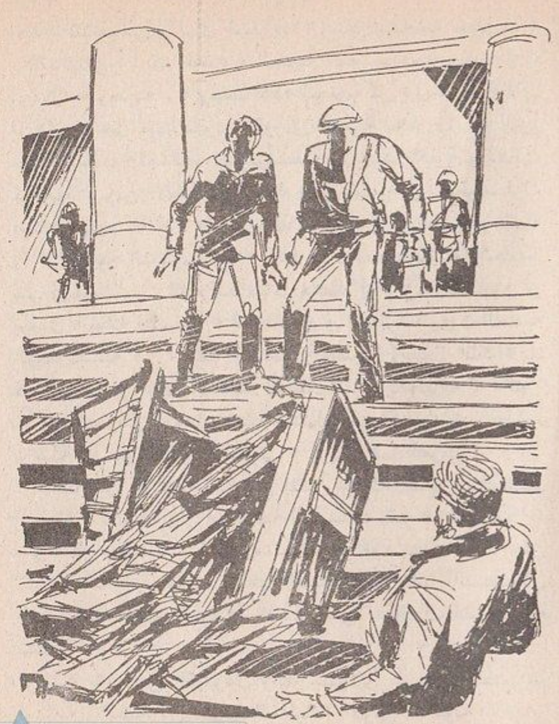


تخيم على أفق العالم .. فلا نجد ركنا فى الأرض يخلو من القلق والهواجس .. وكل هذا خليق بأن يؤخر كل تقدم حقيقى !

ولسنا نجاوز المعقول فى شىء ، إذا قلنا إن فى العالم اليوم من الجاسوسية الحربية والبحرية والجوية أكثر مما كان فيه ، فى أية فترة من فترات السلام(١) .. وكل ما هنالك هو أن أسلوب التجسس قد تغير .. فأصبح رجال المخابرات الموكلون بتصيد الجواسيس — فى البلاد الديموقراطية — هم أكثر الناس عناء وتعرضا للارهاق . ثم أن مراقبة الخونة من أهل البلاد تعتبر أشق بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب . ذلك لأن الأجنبى عرضة لأن يفضح نفسه بأتفه خطأ يبديه نتيجة جهله بالعادات المحلية . أما الخائن لوطنه ، المتجسس فى داخل بلاده لدولة اجنبية ، فمواطن كغيره من المواطنين ، لا يختلف عنهم فى شىء إلا بأفكاره وآرائه — وهى أشياء يمكن أن تختفى وراء مظهر خادع — فضلا عن انه يعرف بلاده ، وله كل حق قانونى فى ان يتنقل فى أرجائها .. ومن ثم نرى بجلاء أن مراقبة الخونة المحليين اصعب بكثير من مراقبة الجواسيس الأجانب .

---

(١) ثبت فى قضية شبكة الجاسوسية المعروضة أمام القضاء المصرى ، أن الجواسيس كانوا على اتصالٍ ببعض ملحقى السفارة البريطانية بالقاهرة.



وعندما تهشم الصندوق ، تناثرت منه ألوف من المنشورات الثورية !





## مستوى الدبلوماسية .. فى انهيار مستمر !

ولقد يسخر الشباب الحديث من أسلافه ، ولكن بعض أساليب الأجيال الماضية كانت أسمى من أساليب الأجيال الراهنة من الناحية الخلقية .. إذ أثبتت القضايا الحديثة هبوطا عاما فى المستوى الخلقى الدولى : فلم تعد «المعاهدة» اليوم وثيقة مصونة محترمة ، ولكنها أصبحت وسيلة للخداع .. وصارت « كلمة الشرف » غير ذات معنى تقريبا !

وقد امتد انهيار المستوى العام للأخلاق إلى الميدان الدبلوماسى ، الذى كان من قبل نظيفا فى أساليبه إلى حد كبير . ولا يخفى الروس إيمانهم بذلك ، فهم يعتبرون كافة الدبلوماسيين الأجانب فى بلادهم جواسيس !.. ومن الطبيعى أن يتوقع غيرهم أن يكون كافة الموظفين الروس فى الخارج جواسيس لبلادهم أيضا !.. وكان الألمان أبعد الناس عن أن ينساقوا للأوهام إزاء هذا الأمر . وقد حدث ذات مرة ، أن وصل إلى ألمانيا دبلوماسى روسى ــ من حملة الحقائب الدبلوماسية ــ ومعه اثنا عشر صندوقا خشبيا كبيرا ، فراودت الهواجس أحد الألمان المكلفين بمقاومة الجاسوسية ، ومن ثم أوعز إلى أحد حمالى محطة ( فريدريكسهافن ) ــ إحدى محطات السكة الحديدية ببرلين ــ بأن يتعمد إسقاط أحد الصناديق على الأرض .. وعندما تهشم الصندوق ، تناثرت منه ألوف من المنشورات الثورية !

ولقد كانت الحصانة الدبلوماسية امتيازا عظيم القيمة يوما ، ولكنها انحطت اليوم إلى الدرك الذى جعلها تتخذ أحيانا

ستارا للتجسس وأعمال التخريب، وبث الدعايات التحريضية والانقلابية !.. كما كانت « الحقيبة الدبلوماسية » يوما أداة لها كرامة وحرمة .. وكانت هذه الحقيبة من قبل صغيرة، إذ لم تكن ترسل فيها سوى الأوراق السرية فقط .. أما اليوم فقد تضخمت الحقائب الديبلوماسية بدرجة كبيرة وانحطت كرامتها . ومن الأمثلة على هذا، أن سفيرا فى بريطانيا أراد يوما أن يقيم حفلة، فاستورد مائة صندوق من خمور وطنه فى « الحقيبة الديبلوماسية » !.. وأعرف ديبلوماسيا إنجليزيا كان فى موسكو — أثناء الحرب — فاعتاد إزاء أزمة الصابون أن يرسل « ثيابه المتسخة » إلى مغسل فى إنجلترا، وفى « الحقيبة الديبلوماسية » .. ولك أن تتصور منظر « رسول الملك » — كما كان يسمى حامل الحقيبة الديبلوماسية الإنجليزية إذ ذاك ! — وهو يحرس فى وقار حقيبة تشتمل على ثياب متسخة، مرسلة من طرف أوربا الشرقى، إلى طرفها الغربى !

لذلك فان الواجب أصبح يقضى بإعادة النظر فى النظم العتيقة، لا سيما وأن أسلحة الحرب قد تغيرت تغيرا كبيرا، سواء من حيث سرعة إرسالها أو قوة تدميرها .. ومن الاقتراحات التى أثيرت فى هذا الصدد، أن يقابل استغلال الامتيازات الديبلوماسية فى التستر على أعمال الجاسوسية بمثله !

ومما يؤثر عن الكولونيل والتر نيكولاى — مدير المخابرات السرية الألمانية فى الحرب العالمية الأولى — قوله : « ان التجسس مهمة لا يمارسها سوى السيد المهذب المثقف ! » . وقد ينطبق قوله هذا على من يتجسس لصالح بلده، ولكنه



لا ينطبق على من يخون بلده لمصلحة غيره، ولا على من يتوسل بالتآمر الديبلوماسى الذى لا يقوم على مبدأ أو أساس !..

ولقد كان الشعور الذى ساد بريطانيا بعد قضية « فوخس » أبعد ما يكون عن الاستنكار والغضب للكرامة القومية .. كان شعورا من القلق وعدم الطمأنينة : ترى كم « فوخس » آخر.. كم شخصا على غرار فوخس ما يزالون طلقاء ؟.. وهكذا أحرز الروس — بهذه القضية — نصرا فى إحدى مناوشات الحرب الباردة التى تعتمد على إضعاف الروح المعنوية بالتخويف(١).

وفى بعض الدول اليوم، ينبث البوليس السرى فى كل ناحية من نواحى الحياة، ويستعان بأجهزة التسجيل الميسورة الإخفاء، وبأساليب التحقيق البوليسى الشديدة، لمقاومة الجاسوسية الأجنبية . ومكتب التحريات الأمريكى ذاته — برغم ما تفخر به أمريكا من اعتزاز بالحريات — يستخدم وسائل تعتبر افتئاتا على الحريات .. فيكفى أن يشتبه فى أن شخصا ما شيوعى، لكى يتبعه البوليس السرى أياما وأسابيع، ولكى يتعرض أصدقاؤه ومعارفه لاستجوابات دقيقة، وتراقب اتصالاته التليفونية ورسائله !.. ذلك لأن من واجبنا أن نعترف بأننا نخوض حربا فعلية وإن لم تكن رسمية .. سواء سميت هذه الحرب « حربا باردة » أو « حربا ساخنة » !

ولقد فطنت الولايات المتحدة الأمريكية — أثناء الحرب العالمية الأولى — إلى أن قوانينها الخاصة بمقاومة الجاسوسية كانت

---

(١) يجب أن نذكر ونحن نقرأ هذا الجزء أن مؤلف الكتاب انجليزى، وانه يتحدث عن الموقف كما يراه الغرب .

متخلفة عن قوانين سائر بلاد العالم . أما الآن ، فان بريطانيا هى المتخلفة ! ولقد كشفت محاكمة وليم جويس — الذى كان يوجه الاذاعات إلى بريطانيا من راديو برلين أثناء الحرب العالمية الثانية، والذى اشتهر باسم لورد « هاو هاو » — ان الصحيفة الفاشية التى كان يصدرها فى إنجلترا حتى سنة ١٩٣٩ ، كانت تعتمد فى مواردها المالية على ألمانيا .. ولو أن هذا حدث فى الولايات المتحدة لاعتبر جريمة ، ولكن القانون فى إنجلترا يبيح لأية دولة أجنبية أن ترسل الاعانات المالية للصحف والمؤلفين وجمعيات الصداقة مع الدول الأجنبية وسائر الهيئات الممكن استغلالها فى الدعاية . وليس فى القانون ما يجبر هؤلاء على أن يذيعوا مصدر العون المالى الذى يتلقونه !

## « ادركوا السلام .. قبل فوات الأوان ! »

أما عن احتمال نشوب الحرب عن عمد وتدبير وقصد ، فهو فى رأيى أمر مستبعد ، اللهم إلا إذا كان الجنس البشرى قد بلغ من الغباء حدا يفوق التصور ! على أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هناك ما يسمى « حربا باردة » ، وأن هذه الحرب لا تقل فى نتائجها المدمرة عن الحرب العسكرية !.. وان المشكلات الموجودة اليوم فى العالم ، لتدل على أن الإنسان لا يفيد من دروس الماضى .. والمنازعات القائمة اليوم بين الدول — فى شرق الأرض وغربها — ميادين تعمل فيها الجاسوسية بنشاط ودأب . وقد يساهم بعضها فى زيادة حدة التوتر بين الشرق والغرب ، أو بين روسيا والديموقراطيات



الغربية .. وهذا هو الخطر الأعظم كما قلنا من قبل !.. لقد كشفت الأحداث عن أن نظام الجاسوسية السوفييتية يشمل العالم على سعته ، وليس ثمة ما يبرىء الغرب من أن يكون له مثل هذا النظام !.. و « الحرب الباردة » قد تتحول فى أوجز وقت إلى لهب . ومن ثم فنحن اليوم فى حاجة إلى تعريف جديد لكل كلمة من كلمات الحياة اليومية العادية .. نحن فى حاجة إلى تفسيرات جديدة ، لا لكلمة «الديموقراطية» فحسب ، وإنما لكلمة « الجاسوس » أيضا .

ولست أزعم أن أية أساليب تبتكر كفيلة بأن تمحو الجاسوسية محوا ، فان هذا مستحيل .. ولكنها قد تساعد على أن تجعل نشاط الجاسوسية الشرقية فى الغرب عسيرا متعذرا ، كنشاط الجاسوسية الغربية فى الشرق .. أى فى الدول السوفييتية. وتشديد الإجراءات المحكمة ضد الجاسوسية ، بأساليب الأمن والبوليس ، لن تزيد الموقف الدولى سوءا .. ولقد كان الضباب من العوامل التى كثيرا ما عاقت السلاح الجوى البريطانى فى أثناء الحرب الأخيرة ، فماذا فعل ؟.. لقد ابتكر أجهزة لتبديد الضباب الذى يتكاثف على المطارات الرئيسية .

ونحن اليوم فى حاجة إلى جهاز عقلى لتبديد الضباب المخيم على العالم .. ولست أرى خيرا من الأفكار الذكية والعمل الدائب لتكوين هذا الجهاز . ولدينا الأساس الذى نقيمه عليه ، ممثلا فى ميثاق الأطلنطى وميثاق الأمم المتحدة ، فهما ما يزالان فى حاجة إلى عمل شاق وجهود جبارة لإقرار السلام العالمى .. ومن أهم الإجراءات التمهيدية لخلق جهاز تبديد

ضباب الشك المخيم على العالم ، فهم كل شعب لوجهات نظر الشعوب الأخرى .. وفهم كل من الكتلتين الغربية والشرقية لوجهات نظر الأخرى بالذات !

إن الإحصاءات التقديرية توحى بأن دول العالم تنفق سنويا ما لا يقل عن ١٨٠ مليونا من الجنيهات على الجاسوسية ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى هذه الأموال لتحسين أحوالها بعد الحروب المتعاقبة التى مرت بها .

لقد قال ليتفينوف أثناء الحرب العالمية الثانية : « السلام لا يتجزأ » .. وهذا حق ، فكما نطالب بتسريح القوات المسلحة . يجب أن نطالب بتسريح الجواسيس .. ويجب ألا يتم التسريح من أحد الجانبين دون الجانب الآخر !

كذلك قال الكولونيل نيكولاى الألمانى — وهو من أشهر أساتذة الجاسوسية فى عصرنا هذا — إن «الجاسوسية بارومتر يسجل درجة الضغط بين الأمم » .. وهذا البارومتر يوحى اليوم بأن فى الجو بوادر عاصفة هوجاء ، ينبغى تسكين حدتها!

---

**تم الكتاب**

---

## كتابي

صدر من هذه السلسلة :

1 - وجوه الحب السبعة .
2 - الحب الأول .
3 - جريمة حب .
4 - آنا كارنينا .
5 - الحرب والسلام جـ ١ .
6 - الحرب والسلام جـ ٢ .
7 - الخاطئة .
8 - البؤساء جـ ١ .
9 - مدام بوفارى جـ ١ .
10 - مدام بوفارى جـ ٢ .
11 - البؤساء جـ ٢ .
12 - الخطيئة الأولى .
13 - المفتون .
14 - الحب هو الكنز .
15 - فن الحياة .
16 - د. زيفاجو جـ ١ .
17 - د. زيفاجو جـ ٢ .
18 - د. زيفاجو جـ ٣ .
19 - د. زيفاجو جـ ٤ .
20 - البؤساء . جـ ٣ .
21 - الحرب والسلام جـ ٣ .
22 - محاكمة سقراط .
23 - الجريمة لا تفيد .
24 - نساء ومآس فى ساحة العدالة .
25 - الحرب والسلام جـ ٤ .
26 - تعلم كيف تسترخى .
27 - مركب النقص .
28 - غرام سوان جـ ١ .
29 - غرام سوان جـ ٢ .
30 - كيف نجحوا فى الحياة .
31 - كيف تحصل على الثروة .
32 - غرام سوا ن جـ ٣ .
33 - لماذا أنت عصبى .
34 - عش بحكمة تعش سليماً .
35 - زواج الحب .
36 - التحليل النفسى للأحلام .
37 - حذار من الشفقة .
38 - أمير الانتقام .
39 - إعترافات جان روسو جـ ١ .
40 - إعترافات جان روسو جـ ٢ .
41 - إعترافات جان روسو جـ ٣ .
42 - إعترافات جان روسو جـ ٤ .
43 - إعترافات جان روسو جـ ٥ .
44 - مرتفعات ويذرنج جـ ١ .
45 - مرتفعات ويذرنج جـ ٢ .
46 - مرتفعات ويذرنج جـ ٣ .
47 - قلوب ضالة .
48 - عاشقات فى الخريف .
49 - أسرار الجاسوسية .
50 - الابن الضال .
51 - ١٠١ الثأر للوطن .
52 - أرواح هائمة .
53 - المسبحة جـ ١ .
54 - المسبحة جـ ٢ .
55 - ذات الثوب الأبيض .
56 - بنر سبع جـ ١ .
57 - بنر سبع جـ ٢ .
58 - جين إير جـ ١
59 - جين إير جـ ٢
60 - جين إير جـ ٣



# مطبوعات كتابى
## إصدار جديد



## عزيزى القارئ :

معروف أن أقدم مهنتين فى التاريخ هما : الجاسوسية ، والدعارة ! ... وفى هذا الكتاب الذى بين يديك تقرأ أشهر قصص الجاسوسية الواقعية ، منذ أقدم العصور إلى اليوم ، من ذلك مثلاً : جواسيس موسى فى أرض (كنعان) .. دنيلة .. ويهوذا الأسخريوطى .. أساليب ديوان التفتيش الإرهابية ..

لولا الشائعات لاحتل المسلمون أوربا .. جاسوسية ريشليو فاقت جاسوسية ديوان التفتيش .. الملكة إليزابيث الأولى ، وجاسوسها الأعظم .. أباطرة يتجسسون لمصلحتهم .. من ساحات القتال إلى مخادع الملوك ... أستاذ الجاسوسية يمهد لغزو فرنسا .. الجاسوسية فى الحرب الأهلية الأمريكية .. « إمبراطور الجواسيس فى عصر نابليون ... لينكولن يعارض فى إعدام الجواسيس ، فيقتله جاسوس .. قضية دريفوس .. المرقص رقم **13** بالأوبرا .. الموت ثمن الخيانة .. جاسوس ألمانى يباشر عمله علناً .. نساء ، فى الجاسوسية .. الجاسوسة العالية كانت ترقص عارية ! .. بائعة الدانتيلا ، وأكلة السجق ! .. ماتا هارى والطبيبة التى كانت تعلم فن الجاسوسية .. لغة طوابع البريد فى الجاسوسية ..

يظن صديقته غبية ، وهى تتجسس عليه .. خطر الجاسوسية فى الحرب البحرية .. دخول أمريكا حرب **1914** من عمل الجاسوسية البريطانية .. فون بابن «الغبى» ! .. الشرق الأوسط مستودع الجواسيس .. السقطة التى اكتشفتها خليلته ، فأودت به ..

مغامرات لورنس بلاد العرب وغريمه الألمانى ! .. حيل الجواسيس حين تنضب أموالهم .. غباء جاسوس بريطانى يكلف بلاده غالياً ! .. جاسوس واحد أنقذ مليون نسمة .. لغز اغتيال ولى عهد النمسا .. ضربة معلم أفنت نصف مليون إيطالى .. جواسيس لليابان من حاشية قيصر روسيا .. لغز معاهدة عدم الاعتداء بين ستالين وهتلر .. تشرتشل يعلم بالهجوم الألمانى على روسيا قبل وقوعه بأيام .. جاسوس مجرى يهودى ينتخب عضواً بمجلس العموم البريطانى !

الجاسوس الذى حصل على خطة غزو هتلر لبولندا .. الفراشة الجميلة التى سقطت فى الفخ ..

الجواسيس النازيون .. سر الجاسوسة الغامضة .. الألمان خسروا حرب عام **1914** بسبب شائعة .. الأطباق الطائرة ، حقيقة أم خيال ؟ .. الأسلحة السرية الألمانية .. قضية التجسس فى كندا .. عالم بريطانى ينقل أسرار الذرة إلى الروس ! قضية هزت **12** دولة .. مؤامرة لاغتيال ستالين و روزفلت و تشرتشل ! .. أسرار أمريكا العليا فى أيدى الشيوعيين ! .. قضية الدكتور كلاوس فوخس ! مستقبل الجاسوسية .. إلخ .

حلمى مراد